
غمامتان
جَوْلَة مَفَاهِيمِيَّة فِي سُورَتَيِ البَقَرَة وَآل عِمْران



فَايز بْن سَعِيد الزَّهْرَاني

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزهراني، فايز بن سعيد

غمامتان./ فايز بن سعيد الزهراني- الرياض، ١٤٤٢هـ.

٣٦٠ ص؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٩-٤-٩١٥٣٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير

أ. العنوان

ديوي ٦, ٢٢٧ ١٤٤٢/٦٥٦٥

رقم الإيداع: ٦٥٦٥/ ١٤٤٢

ردمك: ٩-٤-٩١٥٣٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م



الإهداء

إلىٰ الجيل الجديد؛

الجيل الذي قرر العودة إلىٰ القرآن.

الجيل الذي رأيته قافلًا من تيه الماديات.

بعد أنْ أُبعد عن القرآن بمسافات طويلة.

بعد أنْ عُزل عنه في زوايا مظلمة.

أهدي هذا الكتاب.

فهرس الموضوعات

مدخل

الحمد لله وحده، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ من لا نبي بعده، وعلىٰ آله وصحبه.

أما بعد، فأستغفر الله العظيم.

هذا ما ينبغي أنْ أستهل به كتابي هذا.

وقد اعتاد كثير من المصنفين والمؤلفين أنْ يستهلوا كتبهم بالثناء علىٰ ما فيها، وعلىٰ جهدهم في تحرير الأقوال وسبر المسائل، وحق لهم ذلك، وأما الكاتب هنا فإنه يقدم لكم كتابه هذا وكله شعور بالعجز عن الوفاء بحق موضوعه، والعجز عن بلوغ أربه، والعجز عن سبر مسائله.

وفي الحقيقة لم يكن غرضي من هذا الكتاب تفسير سورتي البقرة وآل عمران، فأنا دون ذلك بكثير، وإنما قصدت إلىٰ بيان الطريقة التي هداني الله لها في فهم موضوعات السورتين، وكيفية قراءتهما قراءة تُستحضَر معها المعاني والمفاهيم والموضوعات، لأشارك بها إخواني الكرام من باب المباحثة والمذاكرة، لا التأصيل ولا التركيز.

فلا تظن أنَّ هذا كتاب تفسير. نعم؛ حشدت فيه كثيرًا من أقوال المفسرين وأهل العلم، لتفسير غريب أو حل مشكل أو استنباط فائدة أو استنباط حكم.

❊ ❊ ❊

وقد كنت في زمن سابق أجد لسورة البقرة خصوصًا ثقلًا في القراءة لتشعب موضوعاتها وكثرة أحكامها، ثم يسر الله لي أنْ داومت علىٰ قراءتها زمنًا، قراءة حدر بغرض الاستشفاء وطلبًا للبركة، حتىٰ وفقني الله تعالىٰ لاستظهارها، ثم رزقني -بفضله وفيض منِّه وحده- التلذذ بقراءتها، ثم أصبحت المعاني تلمع في ذهني أحيانًا، وصارت الآيات يترابط بعضُها ببعض، وكنت أرجع أحيانًا إلىٰ كتب التفسير بغرض شرح غريب أو حل إشكال فينفتح لي مهيع من المعاني والدلالات.

أصدقك القول أيها القارئ الكريم، لقد كانت دواء لقلبي، ولقد كانت شفاء لصدري، ورأيت فيها عظَمة تخشع لها النفس وتخضع لها الجوارح اضطرارًا لا اختيارًا، وأعظم شيء تعلمته منها هو بعض ما يمكن تسميته معرفة الله تعالىٰ.

ومع مرور الوقت تكوَّن في خلدي أنَّ سورة البقرة هداية في كل شؤون الأفراد والأمة، وأنها إجابة عن سؤال: كيف الاهتداء إلىٰ الصراط المستقيم المذكور في سورة الفاتحة؟

هذه يا إخوتي سورة البقرة. وصار بعضُ الآيات يبعث في نفسي رهبة لم أكُن أعهدها، وصرت أتلمس أسباب مجيء كلمات أو آيات في موقعها من كتب التفسير، فيزداد بناء السورة في عقلي، فمثلًا يقول تعالىٰ في ختام آية من آيات الطلاق:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣١].

كيف يكون اتخاذ الآيات هزوًا؟ ولماذا تكرر الامتنان بتبيين الآيات في سورة البقرة؟ وماذا تعني «آيات» أصلًا؟ وهلم جرًّا..

ثم وجدت سورة آل عمران تشبهها في كثير من الألفاظ والمعاني، بل وفي كثير من الموضوعات والمفاهيم، وهذا التشابه وحدَه جدير بالدراسة والتأمل،

وكنت لا أستطيع أنْ أخفي دهشتي لنظم السورتين وطريقة توجيههما للمؤمنين في بداية العهد المدني، وكم اختلطت في وجداني من مشاعر الحب والرهبة والتعظيم والفرح وغيرها، وكم ازدحمت في نفسي معاني لم أستطِع البوح بها إلىٰ اليوم، ووالله الذي لا إله غيره إنَّ القلم واللسان ليعجزان عن بيان أشياء كثيرة من هذا الباب، وهذا اعتذار مبدئي عن القصور في العبارات.

وأجد في السورتين اللتين وصفهما النبي ﷺ بالزهراوين وبالغمامتين وبالغيايتين أهم الموضوعات والمفاهيم التي تحتاج إليها الأمة المسلمة في بداية تكوينها ونهضتها وانبعاثها، حيث حقيقة الإيمان وتعريفه، وقوة الأمة وضعفها، وتاريخ الأديان والأفكار ونقدها، والتشييد العلمي، والحديث عن القرآن والتعريف به، وكأنها مقومات النظر في بناء الأمة المسلمة، وقاعدة الانطلاق في التشييد الحضاري.

وأرجو للقارئ لكتاب الله تعالىٰ أنه إذا فهم موضوعات سورتي البقرة وآل عمران ومعانيهما ومراد الله فيهما أنْ يسهل عليه فهم بقية سور القرآن الكريم، لا سيما المدني منها.

* * *

ومما منَّ الله به علىٰ أمتنا تلك التآليف العظيمة في تفسير كتاب الله وبيان معانيه واستنباط أحكامه وإرشاداته، شيَّدها علماء أجلاء وقامات عظيمة نادرة، أكرمهم الله بإعانته لهم في تأليفها، فظهرت مرصعة بالجمال، مزدانة بالجلال والبهاء، وقد وفقني الله للنظر في بعضها في تفسير السورتين، وأخص بالذكر الكتب الآتية:

١. جامع البيان للطبري.

٢. معالم التنزيل للبغوي.

٣. المحرر الوجيز لابن عطية.

٤. تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

٥. تيسير الكريم الرحمن للسعدي.

٦. التحرير والتنوير لابن عاشور.

فإدامة النظر فيها مجتمعة في قراءة الآيات يثريك للغاية، ويكسبك نظرًا شموليًّا في معانيها وفوائدها، ويبني لك ملكة في فهم معاني القرآن وتفسيره.

ومما يفيد الباحث في المفاهيم الإسلامية أنْ يولي وجهه قِبل كتب التفسير، فإنَّ بها -والله أعلم- غناء عن غيرها، وليس لغيرها غناء عنها في بيان المفاهيم، ذلك أنَّ القرآن كتاب هداية في كل شيء.

وإنَّ من التيه الذي أصابنا أنْ ننظر في الموضوعات والمفاهيم في كل كتاب، فإذا ما أرادت أيدينا أنْ تمتد إلىٰ رفِّ كتب التفسير ثنينا عطافنا وانصرفنا، ربما ظنًّا منا أننا لسنا أهلًا لقراءة هذه الكتب!

لكني أقول لك: كف عن هذا الورع البارد، واعمد إلىٰ كتب التفسير، فاجعل لنفسك منها نصيبًا، واقتنها وزين بها مكتبتك، وطالعها كلما عنَّ لك إشكال في فهم المعاني واستنباط الفوائد، وارجع إليها كلما أردت البحث عن مسألة أو موضوع، واجعل لنفسك نصيبًا من القراءة المنهجية فيها، ولو دورة واحدة في العام، فإنَّ أعظم غبن هو أنْ تموت وأنت لم تعرف حقائق القرآن ولم تفهم مرادات الله تعالىٰ.

نعم. أنا وأنت بحاجة إلىٰ أنْ نعرف الدار قبل أنْ ندخلها، علينا أنْ نتعرف إلىٰ كتب التفسير قبل قراءتها، وذلك لنتمكن من الاستفادة المثلىٰ منها وتجنب الأخطاء والمزالق التي تعتريها أحيانًا، وذلك بالقراءة الوافية عنها، أو بالاستماع إلىٰ الدروس المسجلة في التعريف بها، وهي متوفرة.

❁ ❁ ❁

وشهر رمضان هو شهر العودة إلىٰ القرآن؛ عودة استصلاح واستهداء، وهو فرصة للتغيير القرآني وتحسين العلاقة بالقرآن، وسماع آيات الله في صلاة التراويح، أو القراءة بها لمن كان إمامًا في مسجده:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

وهذه دعوة إلىٰ أنْ يكون لك برنامجك القرآني في رمضان، كما هو هدي النبي ﷺ وسلفنا الصالح من الصحابة والتابعين، لقد كان الانطلاق دومًا يبدأ من رمضان.

* * *

والكتاب الذي بين يديك يمثل إجابة عن سؤال: ما الموضوعات الكلية لسورتي البقرة وآل عمران -التي تفرعت عنهما الكثير من الموضوعات والإجابات- التي جعلها الله تعالىٰ هداية للأمة المسلمة في بدايات العهد المدني؟

وهي إجابة وفق تحليلي الخاص، ولا ترقىٰ أنْ تكون تحريرًا دقيقًا، فهمتها من قراءتي للآيات والاطلاع علىٰ كتب التفسير والسيرة النبوية.

وقد قسمت الكتاب إلىٰ خمسة فصول:

الفصل الأول: الخروج من التيه. ويتحدث في موضوعات الاهتداء بالقرآن الكريم.

الفصل الثاني: الأمة وتاريخية الأديان. ويتحدث في تاريخ الأديان الكبرىٰ اليهودية والنصرانية ودين الإسلام وعلاقة الأمم بإبراهيم ودينه، وعرض القرآن لتفصيلاتها.

الفصل الثالث: حقائق الإيمان. ويناقش أهم القضايا الإيمانية في السورتين، كمفهوم الإيمان ومفهوم النفاق، والتعريف بالله تعالىٰ.

الفصل الرابع: رعاية العلم. ويتحدث عن القضايا العلمية الرئيسة التي ناقشتها السورتان.

الفصل الخامس: البنيان الاجتماعي. ويناقش أسباب قوة الأمة وضعفها، وطريقة العرض القرآني لقضيتين اجتماعيتين بالغتي الأهمية: الزواج والمال.

* * *

وقد اعتمدت علىٰ طريقة السورة الواحدة للموضوع الواحد، أيْ بحث الموضوع بسورة واحدة، سواء كانت سورة البقرة أو آل عمران، لأنَّ المقصود هو الإشارة إلىٰ الموضوع وروحه، وليس تتبع كل تفاصيله، وقد أحتاج أحيانًا إلىٰ بحث الموضوع بالسورتين، فلم ألتزم في ذلك معيارًا، إذ غلب علىٰ جوِّ الكتابة الاختصار والإيجاز والإشارة.

وهذا يقتضي -من باب أولىٰ- عدم تتبع الموضوع وبحثه في بقية آيات القرآن الكريم في شتىٰ سوره، وذلك -أيضًا- لأنه ليس مقصود الكتاب.

ولقد سألت نفسي: ماذا لو كان القارئ لكتاب الله مسلمًا جديدًا، وابتدأ الاستهداء بالقرآن من أول المصحف.. لو فعل ذلك فهل ستكفيه السورتان وتشفيانه؟

فلعلك إذا اطلعت علىٰ الكتاب تستطيع الإجابة عن ذلك، سواء بالإثبات أو بالنفي أو بالتفصيل.

وحاشية الكتاب إنما تفيد الذي يريد الرجوع إلىٰ المصدر، وأما غير ذلك فلا أرغب لك أنْ تقطع قراءتك بالنظر فيها، لأنها ثانوية.

❊ ❊ ❊

وأصدقك القول أنني هممت أنْ أجعل الكتاب مرسلًا بلا مقدمة، فقد صعب علي أنْ أقدم بين يدي هذه الفصول، وتزاحمت في ذهني كثير من النقاط التي أرغب قولها لك، ولكنْ خشية الإطالة وخشية الفوضىٰ منعتاني من ذلك، ثم وجدت من الأهمية بمكان أنْ أكتب مدخلًا ربما يفيد القارئ لهذا الكتاب.

وبعد شكر الله تعالىٰ علىٰ فضله وإنعامه وإلهامه، أشكر مُراجع الكتاب علىٰ استقطاع جزء من وقته وإفادتي بملحوظاته القيمة، ولا أنسىٰ أنْ أشكر أهل بيتي الذين بذلوا ما في وسعهم صبرًا عليَّ وخدمة لي وتسهيلًا لعملي.

وإذ أنشر هذا الكتاب فإني أسأل الله المولىٰ الكريم ذا الجود الواسع والرحمة الواسعة والمغفرة الواسعة، الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ويستر العيوب ويقيل العثرات، أنْ يقيل عثراتي يوم ألقاه.

اللهم اجعل هذه الصفحات ثقيلة في ميزاني ونورًا في قبري وذخرًا لي يوم الحساب، واكتب لقارئها مثل ذلك، وزيادة في الأجر والحسنات، وصلاحًا في القلب والعمل، وفهمًا في المعاني والآيات. آمين.

اللهم اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرًا. والحمد لله رب العالمين.

فَايز بْن سَعِيْد الزَّهْرَاني

٣ رجب ١٤٤٢هـ

بين يدي السورتين

عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه. اقرؤوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طيرٍ صواف، تحاجان عن أصحابهما)[1].

وهذا الحديث في فضل سورتي البقرة وآل عمران معًا، وهو مروي عن عدد من أصحاب النبي ﷺ، وهو من أجلِّ أحاديث فضائل القرآن، ومما تبتهج النفوس بقراءته ومذاكرته، لما فيه من الفيض الرباني والكرم الإلهي. فهو يذكر لك فضل سورتي البقرة وآل عمران في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرىٰ.

أما في الحياة الدنيا فهما زهراوان، والإزهار هو الإضاءة والإنارة، أيْ أنهما نيرتان مضيئتان، تنيران لصاحبهما طريق حياته، وتبددان ظلمات طريقه، فلا يسير إلا بنورهما معه وأمامه.

وهذا الإزهار يكون في قلب القارئ المتدبر، فهما تضيئان له حياته كلها؛ حياته الخاصة وما فيها من أحكام فقهية تتعلق بأركان الإسلام، وما فيها من عبودية القلب وتعظيم الرب، وحياته مع أهل بيته وما فيها من عقد الزوجية وتربية الأبناء والإحسان إلىٰ الوالدين، وحياته الاجتماعية وما فيها من علاقات بالأقربين والبعيدين، المسلمين والكافرين، وحياته العلمية والمالية وهلم جرًّا..

هذه حال السورتين في الحياة الدنيا.

أما في الآخرة، في ذلك اليوم المهيب، الذي سنقف فيه الوقفة الكبرىٰ حفاة عراة غرلًا، والذي ستجلدنا فيه الشمس بسياطها الملتهبة، وتسلط علينا فيه أمواج

(١) أخرجه مسلم ١/ ٥٥٢، ح٨٠٤.

العرَق.. تأتي البقرة وآل عمران -كرامة من الله- فتظللان صاحبهما، الذي كان يحفظهما ويكثر من تلاوتهما ويتفقه علىٰ مدرستهما ويتخذهما دليلًا في حياته وسيره إلىٰ الله تعالىٰ، كأنهما غمامتان.

ذلك الإنسان الذي كان ضالًّا فهداه الله بسورتي البقرة وآل عمران، سيجدهما معيته في اليوم الآخر، والناس ينظرون إليه وقد سلم من سياط الشمس وأمواج العرق؛ فيغبطونه ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتي فلان، إنه لذو حظ عظيم، وتأكلهم الحسرات: كيف فاتنا هذا الفضل العظيم؟ وكيف غفلنا عن هذه الجائزة الكبيرة؟ وأين كنا حين وفق الله هذا الإنسان للاهتداء إليهما والاهتداء بهما؟ يا حسرتا علىٰ ما فرطنا فيهما!

هكذا ستكون أحاديث النفس في اليوم الآخر، وهكذا ستكون أناشيد الحزن والندم، حين تسليم الجوائز الأولية قبل دخول الجنة، جوائز المتآخين في الله وجوائز السبعة في ظل العرش وغيرهم. أما أصحاب الزهراوين فتظللهما غمامتان.

فيا رب اجعلنا من أهل الغمامتين في الآخرة بفضلك وكرمك.

وعن أنسٍ ﵁ قال: (كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا، يعني عظُم)[1].

في الصدر الأول.. لم يكن المال هو الذي يرفع الناس. ولا الجاه ولا المنصب ولا الزعامة. لم يكن حجم العمامة التي يعتمرها الرجل يشير إلىٰ منزلته، ولم تكن العباءة التي يشتملها تدل علىٰ مكانته الحقيقية. في الصدر الأول..

الدين هو المعيار الذي به يقوَّم الناس. ذلك في الصدر الأول.

فكانت سورتا البقرة وآل عمران مؤشرتين علىٰ العلم والفقه والصدارة والتمكن والعظَمة.

---

(١) أخرجه أحمد ١٩/ ٢٤٧، ح١٢٢١٥.

المدينة الجامعة

أُثر عن التابعي الجليل خالد بن معدان رحمه الله تسمية سورة البقرة بـ«فسطاط القرآن»[1]. والفسطاط المدينة التي فيها مجتمع الناس. وكل مدينة فسطاط. وفي العين قال الخليل الفراهيدي: (والفسطاط مجتمع أهل الكورة حوالي مسجدهم؛ وهم الجماعة)[2]. فالفسطاط إذًا المدينة المعمورة بأهلها والمرتبة في بنيانها، إذ يتوسطها المسجد.

وهكذا سورة البقرة؛ هي كالمدينة الجامعة لعلوم القرآن وأحكامه وآدابه، قال ابن عطية: (يقال لسورة البقرة: فسطاط القرآن، وذلك لعظمها وبهائها وما تضمنت من الأحكام والمواعظ، وفيها خمسمئة حكم وخمسة عشر مثلًا)[3].

وقال ابن عاشور: (هذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبها ذات أفنان، قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقًا لتلقيبها فسطاط القرآن، فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان)[4].

فالطاهر ابن عاشور يرىٰ سورة البقرة متسعة للغاية، فقد جمعت الكثير من الأحكام والعلوم والآداب والأخبار، وأنها متنوعة في الأساليب والعرض والمحاجة، ويجد كثيرًا من مقاصد السور القرآنية قد أتت بها سورة البقرة، ويقول: (لا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان)، أيْ إنك لو قمت بجمعٍ لما اشتملت عليه هذه السورة من أحكام وآداب ونحوهما لأعجزك أنْ تنتهي من ذلك.

---

(١) موسوعة التفسير بالمأثور ٢/ ٥١.

(٢) كتاب العين ٧/ ٢١٧، النهاية في غريب الحديث ٣/ ٤٤٥.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٢٦٥.

(٤) التحرير والتنوير ١/ ٢٠٣.

ويقول ابن العربي المالكي: (اعلموا وفقكم الله أنَّ علماءنا قالوا: إنَّ هذه السورة من أعظم سور القرآن؛ سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر، ولعظيم فقهها أقام عبد الله بن عمر ثماني سنين في تعلُّمها)[1].

فلا تعجب من ورود الفضل فيها وتمييزها عن سائر سور القرآن الكريم، فعن أبي هريرة ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ بعثًا وهم ذو عدد، فاستقرأهم، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتىٰ علىٰ رجل من أحدثهم سنًّا، فقال: «ما معك يا فلان؟».

وهذا هو معنىٰ استقرأهم، يعني سألهم.

قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة.

قال: «أمعك سورة البقرة؟».

فقال: نعم.

قال: «فاذهب فأنت أميرهم».

هكذا علىٰ الفور، أنت الجدير بالإمارة.

لقد حزت أفضل مؤهلات الإمارة والصدارة.

سورة البقرة هي النيشان الذي يجب أنْ يعلق علىٰ صدر الأمير.

فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أنْ أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها.

---

(١) أحكام القرآن ١/ ١٥.

فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن فاقرؤوه وأقرئوه، فإنَّ مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكًا يَفُوحُ بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكئ علىٰ مسك».

قال الترمذي: هذا حديث حسن[1].

وفي الحديث الآخر، قال النبي ﷺ: (تعلَّموا سورة البقرة؛ فإنَّ أخذْها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة)[2].

وأخذها يعني قراءتها والمواظبة علىٰ تلاوتها والتدبر في معانيها والعمل بها، هذا الأخذ يصبح بركة يجدها الإنسان في دينه وفي دنياه، في روحه وفي بدنه، في نفسه وفي عقله، ويزداد بها علمًا وفهمًا.

والحسرة متحتمة علىٰ من يهملها أو يهجرها أو يترك تعلمها، حسرة في الدنيا بفوات البركة وأدوية الروح والبدن والفقه في الدين، وبفقد النور في طريق الحياة المعتم، وحسرة في الآخرة بفوات الأجور والثواب، وبتضييع فرصة الاستظلال من حر شمس الآخرة.

ولا تستطيعها البطلة، أي السحرة، فهي درع متينة ضد السحر بإذن الله، وإذا كانت سورة البقرة حرزًا أمينًا وحصنًا قويًّا من تأثير السحر؛ وهو ما هو في قوة تأثيره ونفوذه إلىٰ الإنسان وقوة حبكه وصناعة عُقده وحبائله واجتماع العدد من الإنس والجن في إتمامه، فمن باب أولىٰ قدرة هذه السورة العظيمة علىٰ شفاء النفس من سائر الأمراض كالعين والحسد والقلق والاكتئاب والرهاب، وقدرتها علىٰ دواء القلب من أمراض الشبهات والشهوات ووساوس الشيطان ونزغاته.

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٥٦، ح٢٨٧٦.

(٢) أخرجه مسلم ١/ ٥٣٣ ح٨٠٤.

واليوم.. شباب الإسلام أحوج ما يكونون إليها، لدواء قلوبهم وشفاء صدورهم ودفع خصومهم.

وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إنَّ الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)[1]. قال الملا علي القاري: (والمعنىٰ يَيْئَس من إغواء أهله ببركة هذه السورة، أو لما يرىٰ مِن جدهم في الدين واجتهادهم في طلب اليقين، وخص سورة البقرة بذلك لطولها وكثرة أسماء الله -تعالىٰ- والأحكام فيها)[2].

وهو أيضًا يَيْئَس من التسلُّط علىٰ أهله بأمراض النفوس وأدواء القلوب ووساوسه.

أرأيتم هذه العظمة لسورة البقرة: فسطاط القرآن؟!

هذا لبيد بن ربيعة الشاعر الكبير في الجاهلية، وصاحب المعلقة المعروفة:

عفت الديارُ محلُّها فمُقامُها ... بمنًىٰ تأبَّد غَوْلُها فرِجامُها

فمُدافعُ الريَّان عُرِّيَ رسْمُها ... خلَقًا كما ضمِن الوُحيَّ سلامُها

الشاعر الذي لم تُخفِ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إعجابها بشعره -وهي العالمة بشعر العرب- فقد حكىٰ ابن أبي الخطاب قولها: (رحم الله لبيدًا ما أشعره في قوله:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلَفٍ كجلد الأجربِ

لا ينفعون، ولا يُرجَّىٰ خيرُهم ... ويُعاب قائلهم، وإنْ لم يَشْغَبِ

(١) أخرجه مسلم ١/ ٥٣٩، ح٢١٢.

(٢) مرقاة المفاتيح ٤/ ١٤٦٠.

ثم قالت: كيف لو رأىٰ لبيد خلفنا هذا؟!(١).

هذا الشاعر العظيم كان مركز فتيا في الشعر وأهله، ذُكر أنَّه مر بمجلس بني نهد بالكوفة، وبيده عصا له يتوكأ عليها بعد ما كبر. فبعثوا خلفه غلامًا يسأله: من أشعر الناس؟ فقال: ذو القروح بن حجر الذي يقول:

وبُدِّلتُ قَرحًا داميًا بعد صحةٍ فيا لكِ نُعمىٰ قد تبدَّلتِ أَبؤُسا

يعني امرأ القيس، فرجع إليهم الغلام وأخبرهم، قالوا: ارجع فاسأله: ثم من؟ فرجع فسأله: ثم من؟ قال: ثم ابن العنيزتين، يعني طرفة. قال: ثم من؟ قال: صاحب المحجن، يعني نفسه(٢).

أسلم شاعرنا وحسن إسلامه، فسأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته حين التقاه أنْ يقول أبياتًا، فماذا كان رد الشاعر لبيد بن ربيعة؟

ابتدر لبيد بن ربيعة سورة البقرة فشرع يقرؤها.

فقال له عمر: إنما سألتك عن شعرك.

فقال لبيد كلمة عظيمة، كلمة مَن عرف البيان ونظْم الكلام وميَّز أعاليه ورديئه، قال:

ما كنت لأقول بيتًا من الشعر بعد إذ علمني الله سورتي البقرة وآل عمران.

فأعجب عمر بقول لبيد(٣).

لقد خرس لسان صاحب المعلقة عن الشعر! نظام الذائقة الشعرية اختلف.

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص٨٢.

(٢) جمهرة أشعار العرب ص٤٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٠٨.

فنون البلاغة ارتقت درجات عن ما كانت عليه. وهذا الأمر لا يدرك حقيقته وكنهه إلا أرباب المعاني وسلاطين الكلمة.

أنىٰ لي أنْ أقول شعرًا بعد سورتي البقرة وآل عمران؟ وكيف أستطيع أنْ أُطرب الناس وأبث فيهم الحكمة والمُثل بعد القرآن؟

لله هذا الصنيع من لبيد بن ربيعة.

أَوَتدري لماذا أُعجب عمر؟

لأنه يعرف قدر سورة البقرة، فهو الذي استغرقت منه -لكي يتعلمها ويلم بما فيها من أحكام وتوجيهات وعلوم وأخبار- اثنتي عشرة سنة، ولما فرغ منها نحر جزورًا[١].

أما ابنه عبد الله فقد تعلمها في ثماني سنوات، وروي أنه تعلمها في أربع سنين، وهذه الرواية أثبت[٢].

وهي سورة مدنية نزلت متفرقة. قال عكرمة: (أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة)[٣]. وذكر ابن حجر الاتفاق علىٰ ذلك[٤]. وقيل غيرها من السور هو أول ما نزل.

وعلىٰ أي حال فهي من أوائل ما نزل من سور القرآن بالمدينة، وإنْ لم تكتمل آياتها في النزول إلا متأخرًا. وعلىٰ سبيل المثال، فإنَّ الصيام فرض في شهر شعبان من السنة الثانية من الهجرة[٥]، وبه نزلت الآيات في سورة البقرة:

---

(١) تاريخ الإسلام ٢/ ١٤٦.

(٢) الموطأ ١/ ٢٠٥ ح١١، الطبقات الكبرى ٤/ ١٥٣.

(٣) موسوعة التفسير بالمأثور ٢/ ٤٨.

(٤) فتح الباري ٨/ ١٦٠.

(٥) المجموع شرح المهذب ٦/ ٢٥٠.

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وهذا واحد من الشواهد علىٰ أنَّ سورة البقرة نزل معظمها وصدرها في وقت مبكر من العهد المدني، بعد هجرة النبي ﷺ، وقد أصبح للمسلمين مدينة يظهرون فيها عباداتهم وشعائرهم، ويحتكمون فيها إلىٰ نبيهم محمد ﷺ.

نزلت سورة البقرة وقد تكوَّن المجتمع المسلم الجديد الذي يتوسطه مسجد النبي ﷺ وتحفه بيوت المهاجرين إلىٰ جنب بيوت الأنصار.

نزلت وقد تغيرت المرحلة، وظهرت أصناف جديدة من خصوم الدعوة الإسلامية غير مشركي قريش، حيث اليهود في المدينة، والذين لم يؤمنوا من الأوس والخزرج والأعراب؛ الذين انتظموا فيما بعد في سلك المنافقين.

فهي إيذان بمرحلة جديدة تتنظم فيها حياة المؤمنين وتتوحد توجهاتهم وسلوكهم في دائرة القرآن الحكيم.

نِعْم الكنز

قال عبد الله بن مسعود: (نِعْمَ كنز الصعلوك سورة آل عمران، يقوم من آخر الليل فيقوم بها). وقال: (من قرأ آل عمران فهو غني)[١].

هذه السورة العظيمة -السورة الكنز- نزلت بالمدينة، ونزلت سورة البقرة سابقة لها، أما شطرها الذي يبدأ من عند قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ

(١) مصنف عبد الرزاق ٣/ ٣٧٤، رقم٦٠١٥.

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١] إلىٰ قرب انتهاء السورة، فقد نزل تعقيبًا علىٰ غزوة أُحد في السنة الثالثة، وأما صدر السورة من مبتدئها إلىٰ (٨٠) آية تقريبًا فقد نزلت في وفد نجران النصارىٰ الذين وفدوا علىٰ النبي ﷺ يناقشونه في الإسلام والنصرانية.

والكثير من أهل التفسير قالوا: إنَّ ذلك كان في عام الوفود التاسع من الهجرة، وخالف ابن عاشور ذلك فقال: (من ظن من أهل السير أنَّ وفد نجران وفدوا في سنة تسع فقد وهم وهمًا انجر إليه من اشتهار سنة تسع بأنها سنة الوفود. والإجماع علىٰ أنَّ سورة آل عمران من أوائل المدنيات، وترجيح أنها نزلت في وفد نجران، يعيِّنان أنَّ وفد نجران كان قبل سنة الوفود)[١].

ويؤيد ما ذهب إليه أنَّ ابن إسحاق ذكر وفد نجران الذي نزلت فيه الآيات وفرضت عليهم الجزية في بداية العهد المدني، في حين ذكر إرسال النبي ﷺ خالد بن الوليد إليهم ووفودهم معه إلىٰ المدينة مسلمين في السنة العاشرة، فربما لوفودهم مرتين حصل الالتباس.

فتأمل الفرق بين دلالة كل قول.

قال ابن حجر: (وقيل بل نزلت سابقةً في أوائل الهجرة، وإليه يومئ كلام ابن إسحاق)[٢].

ويتقوىٰ هذا القول إذا علمتَ أنَّ سورة آل عمران عالجت شبهات النصارىٰ وعقائدهم علىٰ سبيل المحاجة والإقناع، وهذا يناسب حال الأمة المسلمة في بداية تكوينها، في حين جاءت سورة التوبة متأخرة تناقش علاقة الأمة بغيرها من المشركين علىٰ سبيل الصرامة والعداوة، ففي آل عمران يقول الله تعالىٰ:

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٤٧.

(٢)) فتح الباري ١/ ٣٩.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وفي سورة التوبة التي نزلت بعد الفتح وتغيرت المرحلة التي تعيشها الأمة المسلمة نزل قوله تعالىٰ:

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

كما يتقوىٰ بأنَّ أحبار اليهود كانوا يشوشون علىٰ وفد نجران حين قدموا المدينة، وهذا يلائمه أنْ يكون في أول العهد المدني، لأنَّ اليهود بعد ذلك لم تقُم لهم قائمة في المدينة، كما هو معلوم.

والله أعلم بالصواب.

وممن ناقش قول ابن إسحاق في تاريخ وفود نصارىٰ نجران علىٰ النبي ﷺ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، فقال في تفسيره للآية ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾: (وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد أنَّ صدر سورة آل عمران إلىٰ بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وقال الزهري: هم أول من بذل الجزية. ولا خلاف أنَّ آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلىٰ هرقل في جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهري؟

والجواب من وجوه:

أحدها: يحتمل أنَّ هذه الآية نزلت مرتين، مرة قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح.

الثاني: يحتمل أنَّ صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلىٰ عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلىٰ بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبي سفيان.

الثالث: يحتمل أنَّ قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأنَّ الذي بذلوه مصالحة عن المباهلة لا علىٰ وجه الجزية، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك علىٰ وفق ذلك كما جاء فرض الخمس وأربعة الأخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر، ثم نزلت فريضة القسم علىٰ وفق ذلك.

الرابع: يحتمل أنَّ رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا الكلام في كتابه إلىٰ هرقل لم يكن أنزل بعد، ثم نزل القرآن موافقة له كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحجاب...)[1].

وابن إسحاق من أهل العلم والبصيرة في الروايات التاريخية، يقول ابن تيمية عنه: (وهو ذو علم وبصيرة بهذا الشأن، حفظ ما لم يحفظه غيره)[2].

وعلىٰ أي حال، فهي مدنية جاءت وكأنها تتمة لسورة البقرة، وتشابهها في كثير من المعاني والألفاظ، لتشكِّل المجتمع المسلم الجديد، بل جاءت لترسي قواعد الأمة المسلمة التي دعا بها إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة:

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٨].

جاءت لتجعل من الأمة المسلمة أمة متعلمة قوية، تعرف موقعها من العالم والديانات، وتحفظ كيانها من الآفات، وتكون فاعلة إيجابية. قال السعدي:

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٦٠.

(٢) الجواب الصحيح ١/ ١٧٣.

(نزل صدرها إلىٰ بضع وثمانين آية في مخاصمة النصارىٰ وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلىٰ الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود)[1].

الأمة الجديدة

بعد زمنٍ من ابتداء نزول الوحي وبعثة نبينا ﷺ وازدياد عدد المؤمنين بدأ فصل جديد من المعاناة والآلام والتعذيب النفسي والبدني، وأراد الله لهذه الطائفة أنْ تعيش أقسىٰ مراحل الدعوة الإسلامية، وعندئذ أذن النبي ﷺ بالهجرة إلىٰ المدينة، بعد أنْ وطَّأ لها لتكون موطنـًا للأمة الجديدة المكونة من عشرات الرجال والنساء المكيين إلىٰ جانب إخوانهم ممن آمن من الأوس والخزرج.

ولقد كان حدثـًا عجبـًا، فالمهاجرون يتركون أرضهم وبلدهم وديارهم وأزواجهم وذراريهم إلىٰ أرض مختلفة ليس لهم فيها أملاك ولا أموال، والأنصار لا يمانعون من إحداث تغيير في بنيتهم الاجتماعية باستقبال المهاجرين وإدماجهم وتوطينهم في أراضيهم - ناهيك عن مقاسمتهم الأموال والدور - ولا يمانعون من انتقال السيادة منهم إلىٰ تلك الطائفة الوافدة إليهم.

فاجتمع الفريقان: المهاجرون والأنصار، وتشكلت منهم الأمة الجديدة التي ستكون خير أمة في تاريخ البشرية.

لقد أصبح لزامًا علىٰ الأمة المسلمة الناشئة أنْ تتخذ موقفها من الأمم الكافرة، وأنْ تتخذ موقفها من العقائد والديانات المحيطة بها؛ اليهودية والنصرانية، ولم تعد المسألة مسألة خصومة بينها وبين قريش فحسب، ذلك أنَّ الله أراد لهذه الأمة قدَرًا عالميًّا، وليس محليًّا أو إقليميًّا فقط.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٣١ - فروقات.

وأصبح المسلمون -في إثر نزول هذه السورة الكنز- علماء بالعقائد وتاريخ الأمم، ولديهم أصول الفكر الإداري والاجتماعي.

نعم كانت مدينة النبي ﷺ صغيرة، وكان مسجدها صغيرًا، وكان ساكنوها قليلين، لكنهم بعد نزول آل عمران أصبحوا أمة من الأمم، بل خير الأمم، وأصبحت المدينة عاصمة هذه الأمة:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وهنا مسألة ربما يكون إيرادها مناسبًا، وهي أنَّ نبينا ﷺ أخبرنا عن مسألة حتمية الوقوع، وهي وقوع هذه الأمة في التشبه بأهل الكتاب، فعن أبي سعيد رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «لتتبعن سَنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعـاً بذراع، حتىٰ لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»، قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارىٰ؟ قال: «فمن»[1]. فهذا إخبار عن وقوع الأمة في التشبه بأهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، ولذلك نزلت الكثير من الآيات في سورتي البقرة وآل عمران تصف أحوالهم وانحرافاتهم لتكون الأمة المسلمة علىٰ بينة من الأمر ولتتقي سلوك طريقهم المذموم، فإنَّ النبي ﷺ أخبر أيضـاً أنَّ من هذه الأمة من يثبتون علىٰ الحق ولا ينحرفون عنه بعد أنْ تعلموه، كما في حديث ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتىٰ يأتي أمر الله وهم كذلك»[2]. وهذا الاستثناء أخبرنا القرآن عن نحوه في أهل الكتاب، فقال تعالىٰ: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ

(١) أخرجه البخاري ٤/ ١٦٧ ح٣٤٥٥.
(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم ٣/ ١٥٢٣ ح١٩٢٠.

بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١١٣-١١٥]. والتشبه المذموم يقع من العامة والخاصة، وهذا المعنىٰ جعله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أحد مرتكزات كتابه الفرد في بابه: ”اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم“.

وإذا كان عمران الذي تسمت به سورة آل عمران هو والد مريم الصديقة عليها السلام أم عيسىٰ نبي الله، وهو اسم يعرفه النصارىٰ، فإنَّ البقرة التي تسمت بها سورة البقرة رمز يهودي مقدس تعرفه اليهود، فتأمل بارك الله فيك.

الفصل الأول

الخروج من التيه

أُشرع لك الباب

من بديع نسق القرآن ونظمه أنْ جاءت سورة البقرة في ترتيب المصحف في أوله بعد سورة الفاتحة، وتعال معي لننظر في مناسبة مجيء سورة البقرة في أول المصحف وبعد سورة الفاتحة تحديدًا.

إنك حين تقرأ الفاتحة فأنت تتلو في شطرها الآخر قول الله تعالىٰ:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

إنك تسأل الله تعالىٰ الاهتداء في كل مرة تقرأ فيها سورة الفاتحة؛ الاهتداء إلىٰ الصراط المستقيم الواضح الذي لا اعوجاج فيه؛ الصراط الذي من سلكه رضي الله عنه، وأدخله جنته، وأسعده في دنياه، صراط الذين أنعم الله عليهم بالسير عليه من النبيين والمرسلين وأتباعهم من الصالحين والصديقين والشهداء والمتقين.

وهو صراط يختلف عن صراط الذين غضب الله عليهم؛ أعني اليهود الذين أُعطُوا نعمة الهداية، فانحرفوا عنها وأبوا أنْ يحفظوها، فأشركوا مع الله غيره، وقاوموا دعوات الرسل والأنبياء، وسلكوا طريقًا آخر فيه التواءاتٌ وانحرافات.

وهو صراط يختلف عن صراط النصارىٰ الذين ضلوا الطريق، وافتروا علىٰ الله تعالىٰ؛ فجعلوا له ابنًا، واتخذوا عيسىٰ بن مريم وأمه إلهين من دون الله، وابتدعوا الرهبانية، وعادَوا أهل التوحيد، فلم يوفقهم الله لسلوك الصراط المستقيم.

إذًا أنت أمام ثلاثة طرق؛ طريق اليهود ومن شابههم، وطريق النصارىٰ ومن شابههم، وطريق أهل التقوىٰ والتوحيد وهو الطريق الصحيح والصراط المستقيم.

فكأنَّ سائلًا يسأل، وكأنك حين تختم قراءة سورة الفاتحة متدبرًا تقول: وكيف أجد هذا الصراط؟

كيف لي يا رب أنْ أهتدي إلىٰ هذا الصراط المستقيم، الذي هو أعظم نعمة منَّ الله بها علىٰ الناس؟

يا رب! أنا بين يديك، مقبل بكليتي عليك، فدلني عليك، ودلني علىٰ صراطك المستقيم الذي من سلكه فقد سلم من الضلالة ونجا من الغضب.

يا رب! دلني علىٰ الطريق التي تكون فيها سعادتي وصلاحي وهدايتي وفوزي ونجاتي.

يا رب! الطرق كثيرة، والحُداة كُثر، وليس لي أحد سواك يدلني علىٰ الصواب منها، وأنا التائه فدلني.

يا رب! أين هذا الصراط؟ أين الطريق؟

فتأتيك الإجابة فورًا وفي الحال:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢].

خذ. هذا هو دليل الحائرين التائهين.. هذا هو الضوء الذي ينير عتمات الحياة.. هذا هو داعية الصدق..

هذا هو الكتاب!

فيا لله! هل لاحظت ما أعني؟ هل لامست ما أريد؟

أنت حين تطلب الهداية فإنَّ الله تعالىٰ يقول لك: يا عبدي! الهداية هنا، في كتابي، يا عبدي! اقرأ كتابي وتدبره فستجد فيه الهداية، كل الهداية، وستجد في آياته ذلك الصراط المستقيم الذي تبحث عنه، وستجد بين دفتيه منهج الحياة الذي يبعث السكينة والطمأنينة في روحك، المنهج الذي يفضي إلىٰ سعادتك وصلاح معاشك، المنهج الذي به تفوز الفوز الأبدي وتنجو النجاة الأبدية، المنهج الذي يرشدك في المدلهمات فيدلك علىٰ الصواب وقت الحيرة، ويسوقك إلىٰ الرضا وقت الخيبة والمصيبة.

هنا الهداية فحسب.

أرأيت رحمة الله تعالىٰ ونعمته علينا؟

يرشدنا إلىٰ سؤال الهداية ثم يجيبنا عن هذا السؤال ويدلنا عليها، فله الحمد والمنة والفضل والإنعام.

ولذلك جاءت الفاتحة والبقرة في أول المصحف، فالأولىٰ فيها سؤال الهداية، والثانية فيها بيان الهداية وإجابة سؤال أين الهداية؛ وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار البقاعي رحمه الله[1].

وهذا المعنىٰ كثيرًا ما يؤكده القرآن، لأنَّ أكبر سؤال يسأله الناس أفرادًا وجماعات وأممًا هو: أين الطريق الصحيح؟ وما المنهج الذي إذا سرنا عليه صلحت أحوالنا وأرزاقنا وأرواحنا، وصلحت حيواتنا ومو تاتنا؟

ولقد اجتهد الحكماء والفلاسفة في التأطير الفكري للحياة الاجتماعية والدينية لكنهم فشلوا، واجتهد الزعماء والأباطرة في الدول والأمم الغابرة في دسترة الحياة ورصفها بالقوانين وفشلوا كذلك، أما مفكرو الحضارة الغربية وفلاسفتها فقد شيدوا

---

(١) نظم الدرر ١/ ٢٢.

أبنية للعلوم الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، محاولين إيجاد سبيل يُمنهج حياتهم ويؤطرها، لكنهم أخفقوا جميعًا في الوصول إلىٰ الهداية المطلقة والرشاد التام، ليس لأنهم لم تخلُ اجتهاداتهم من أهواء بعضها ظاهر وبعضها خفي فحسب؛ بل لأنَّ البشر دائمًا كانوا -وسيظلون- قاصرين عن إيجاد هذا المنهج الأكمل، فإنه أعلىٰ منهم وأكبر من طاقاتهم وأوسع من إدراكهم، وصدق الله تعالىٰ إذ قال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨].

والمراد بالمماثلة للقرآن: المماثلة في مجموع الفصاحة والبلاغة والمعاني والآداب والشرائع، وهي نواحي إعجاز القرآن اللفظي والعلمي[١]. لذلك تحدىٰ الله تعالىٰ الناس قاطبة أنْ يؤلفوا سورة واحدة تضاهي سور القرآن الكريم، في نظمها وبيانها ومعانيها وآدابها وأحكامها وتوجيهاتها:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٣].

اجتمِعوا وتشاوروا. اعقدوا الورش وحلقات النقاش. استكتبوا الخبراء والباحثين والأكاديميين.

افعلوا كل شيء وأي شيء لتأتوا بسورة واحدة فقط. لن تفعلوا.

بل وصل الحال بتفرد القرآن البلاغي إلىٰ أنْ وقف الشعر العربي عن الحركة زمنًا حتىٰ استعاد ذاته في إثر صدمته من نزول القرآن بهيبته البيانية في الساحات والنوادي، لقد ظل واقفًا مندهشًا يتأمل السياقات والشمول والإجمال والقوة والإيجاز والتنوع في كل سورة من سوره، حتىٰ يقول ابن خلدون عن سبب توقف

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٠٣.

الشعر العربي زمنًا: (ما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأُخرسوا عن ذلك)[1].

هل وعيت ما يقوله ابن خلدون؟

إنه يحكي حالة الشعر العربي الفصيح الذي كان قبل قليل تُعلق جرائده علىٰ جدار الكعبة في موسم الحج، لقد أصيب لسانه بالخرس اندهاشًا وذهولًا.

ونحن نقول: نعم؛ أخفقوا جميعًا في الوصول إلىٰ الهداية المطلقة والرشاد التام، لكنهم لم تخلُ أطروحاتهم من خيرٍ وهدىٰ هما نتاج إرث قديم للنبوات والوحي السماوي، قال ابن تيمية: (وبالجملة فينبغي للعاقل أنْ يعلم أنَّ قيام دين الله في الأرض إنما هو بواسطة المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلولا الرسل لما عُبد الله وحده لا شريك له، ولما علم الناس أكثر ما يستحقه سبحانه من الأسماء الحسنىٰ والصفات العُلا، ولا كانت له شريعة في الأرض.

ولا تحسبن أنَّ العقول لو تُركت وعلومها -التي تستفيدها بمجرد النظر- عرَفَت الله معرفة مفصلة بصفاته وأسمائه علىٰ وجه اليقين، فإنَّ عامة من تكلم في هذا الباب بالعقل فإنما تكلم بعد أنْ بلغه ما جاءت به الرسل، واستضاء بذلك واستأنس به، سواء أظهر الانقياد للرسل أو لم يظهر...

بل يقال: إنه ليس في الأرض مملكة قائمة إلا بنبوة أو أثر نبوة، وإنَّ كل خير في الأرض فمن آثار النبوات. ولا يستريبن العاقل في هذا، فإنَّ الذين درست النبوة فيهم مثل البراهمة والصابئة والمجوس ونحوهم -فلاسفتهم وعامتهم- قد أعرضوا عن الله وتوحيده، وأقبلوا علىٰ عبادة الكواكب والنيران والأصنام، وغير ذلك من الأوثان والطواغيت، فلم يبقَ بأيديهم لا توحيد ولا غيره)[2].

---

(١) المقدمة ١/ ٤٠٨.

(٢) الصارم المسلول ٢/ ٤٥٩.

إذًا فالقرآن العظيم هداية مطلقة.

وكيف لا يكون هذا القرآن هداية مطلقة وهو نزل من عند الله!

ولذلك اجتهد أئمة أهل السنة في إثبات نزوله من عند الله تعالىٰ، وإثبات أنه ليس بمخلوق، وبذلوا لأجل هذه المعلومة الجوهرية أرواحهم ودماءهم وأموالهم وأوقاتهم، في مرحلة جهاد فكري مفصلي في تاريخ الأمة الإسلامية، إذ لو لم يكُن كلام الله المنزَّل من عنده لما كان له كل هذا الإحكام، ولا ادعينا له هذه الإطلاقات من الهداية والحق والرشاد، وبذلك يتبين لك أيُّ دورٍ قدمه أئمتنا رضي الله عنهم في حفظ القرآن.

وسورة البقرة تؤكد بين الفينة والأخرىٰ هذا المعنىٰ..

فتارة تنص علىٰ إنزاله:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤].

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٤١].

﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧].

وتارة تنص علىٰ كونه هدىٰ:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧].

وتارة يعقب القرآن علىٰ الآية التي ذكرت توجيهًا بأنها مما يهدي الله به عباده:

﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وتارة تنص على أنه الحق، الحق الذي لا يحتمل الوهم ولا الخطأ ولا الاشتباه:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة:٢٦].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [البقرة:١٧٦].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [البقرة:٢٥٢].

وتارة تشير إلى ما في القرآن من البيان والوضوح وقوة الحجة والبرهان، فليست هداية القرآن ملتبسة:

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة:٩٩].

﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١١٨].

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢١٩].

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٢١].

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٠].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٢٤٢].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٦٦].

بل إنَّ ابن تيمية أشار إلىٰ قاعدة جليلة في تيسير هذه الهدايات، يقول فيها وفي مثلها: (إنَّ المطلوب كلما كان الناس إلىٰ معرفته أحوج يسَّر الله علىٰ عقول الناس معرفة أدلته)[1].

ولا تستطِلْ ذلك السرد فتظن أنه استطراد، بل هو صلب في الموضوع، ولو أفرد باحثٌ فصلًا في (التبيين الإلهي للآيات) بذكر كل آية وما تضمنته من توجيه لربما انخلع قلبك، ولاستبانت لك قضايا عجيبة.

وقد كنت أتأمل هذه الآيات، وأعجب من تكرار وصف ما أنزل الله علىٰ عيسىٰ بالبينات؛ مع ما في النصارىٰ من الضلال والكفر، ثم وجدت نفسي أتساءل: كيف حصل هذا؟ كيف كفر النصارىٰ مع وجود البينات في كتابهم؟

ثم ورد عليَّ هذا السؤال في قراءتي لسورة آل عمران، وعلىٰ الفور وجدت الله تعالىٰ يعقب علىٰ قصة الكفر في بني إسرائيل بقوله:

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:٨٦].

فشعرت بالذهول والدهشة، وكأنَّ القرآن يتفاعل مع سؤالاتي، ويجيب عنها بلغة واضحة:

السبب يكمن في سلوكهم المنحرف!

قال ابن كثير في هذه الآية: (قامت عليهم الحجج والبراهين علىٰ صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلىٰ ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية)[2].

---

(١) مجموع الفتاوى ٩/ ٢١٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٧٤.

هل لاحظت؟

وإنَّ المؤمن -بعد هذا التوضيح القرآني- ليدرك خوف السلف علىٰ أنفسهم من سلب الإيمان، والله تعالىٰ هو المسؤول أنْ يثبت الإيمان في قلوبنا وأنْ يرزقنا اليقين وحسن الختام.

وتارة تبين السورة أنَّ الوحي حاكم فصْل في المنازعات الفكرية والعقدية:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [البقرة:٢١٣].

بل ليحكم في كل خلاف؛ سواء كان في المنازعات الفكرية والعقدية، أو في الخصومات المالية، أو في الخلافات الاجتماعية، أو غير ذلك.

وعلىٰ أي حال، ثمة تأكيدات متكررة في سورة البقرة علىٰ هداية القرآن المطلقة.

لكن ابتلي فئام من أمتنا بفتور الإيمان، أعني الإيمان بأسماء الله وصفاته وقوته وقدرته، وبضعف اليقين بما أنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيه، وبالظن بأنَّ القرآن لا يشفي من كل داء ولا يبرئ من كل علة ولا يجيب عن كل سؤال ولا يهدي إلىٰ أي صواب.

وهذه لعمرو الحق مصيبة الأمة اليوم!

وسبب ذلك -والله أعلم- هو ضعف إدراكنا لمعنىٰ أنْ يكون القرآن كلام الله، فإنَّ مما يعنيه ذلك أنَّ القرآن صفة من صفات الله جل وعلا، فما ظنك بشيء هو من صفات الله تعالىٰ؟

هل يبلىٰ؟ هل يفنىٰ؟ هل يتقادم؟ هل يمحوه الدهر؟ هل يخفت بريقه وينطفئ ضوءُه؟ هل تتفوق عليه العقول والقوىٰ؟

كلا وحاشا.

وهذا هو الفرق بين كلمات الله تعالىٰ وبين كل ما أنتجته العقول البشرية من اجتهادات ناقصة أو خاطئة، ثم هي تحتاج بعد مدة من الزمن إلىٰ تصحيح وتنقيح وتحسين.

فواعجبًا ممن يعرض عن هذه البينات ثم هو يعكف علىٰ نتاج العقول البشرية القاصرة ليجعلها مصدر التوجيه في حياته!

وواعجبًا ممن يتخذ من الحكمة الصينية أو الإنجليزية مرجحًا لاختياراته وقراراته!

وواعجبًا ممن يجثو علىٰ ركبتيه بين كتب الفلاسفة ليتلمس الطريق السوي في حياته!

وعليه فإنَّ الأمة اليوم أحوج ما تكون إلىٰ هذا الصراط وإلىٰ اليقين بصحته وقوته وقدرته علىٰ الهداية والإرشاد.

ذلك الكتاب لا ريب..

فيه هدىً للمتقين.

ليست هداية مجانية

وإنْ كان القرآن بكل ما ذكره الله عنه مما أسلفتُ ذكره، فإنَّ الله تعالىٰ أخبر أنَّ الذين ينتفعون به -بوصفه دليلًا يهديهم إلىٰ الصراط المستقيم- ليسوا كل أحد من الناس، إنهم المتَّقون فقط:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:٢].

ذلك في أول سورة البقرة. أما في آخرها فقد بيَّن سبحانه أنَّ علىٰ الإنسان أنْ يبذل جهدًا من ذاته في تقوىٰ ربه وإصلاح نفسه، وهذه التقوىٰ تتمثل في تتبع أدلة الاهتداء، فإذا فعل ذلك فإنَّ الله تعالىٰ يعلمه ويهديه ويوفقه للصواب، كما جرت بذلك عادته سبحانه، قال تعالىٰ في آخر آية الدَّين:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٨١].

لأنَّ العلم موجود في ثنايا هذه السورة العظيمة، ولكن عليك أنْ تتقيَ الله، وذلك بتتبع الحق فيها، وبتعلُّم ما تدل عليه من الأحكام والهدايات، قال القرطبي: (وعدٌ من الله تعالىٰ بأنَّ من اتقاه علَّمه، أيْ يجعل في قلبه نورًا يفهم به ما يُلقىٰ إليه)[1].

هداية القرآن الكريم يستفيد منها الذين يتقون الله تعالىٰ، فيجاهدون أنفسهم في الاستقامة علىٰ دينه، فإذا حصلت التقوىٰ من القلب دفعت صاحبها إلىٰ الاهتداء، وعندها ستُفضي بهم هذه الهداية إلىٰ الفلاح في الدنيا والآخرة:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٦٢.

فالفلاح مشروط بالهداية.

لا يفلح المرء إلا إذا هدي إلىٰ الصراط المستقيم، ولن تفلح المجتمعات والكيانات والمؤسسات والدول والأمم إلا إذا هديت إلىٰ الصراط المستقيم، لكنها لن تهتدي إلا إذا تقدمت هي خطوات إلىٰ القرآن، وبذلت مجهودات حقيقية من أجل ذلك؛ وهذه حقيقة التقوىٰ.

فليست التقوىٰ بمجرد الأماني. وإنما هي الاقتناع والاعتقاد. ثم هي العمل الدؤوب المستمر ولو كان يسيرًا.

وليست المسألة بذلك التعقيد. كل ما عليك -بوصفك فردًا مؤمنًا- هو أنْ تنظر إلىٰ حكم الله تعالىٰ في أفعالك، ما الذي يرضيه سبحانه منها وما الذي لا يرضيه، أنْ تبحث في القرآن عن حكمه في سلوكك وأفكارك وتصوراتك وأحكامك، وأنْ تنظر في أقوال أهل العلم والتفسير فيها، وأنْ تسأل نفسك ومن حولك وأهل العلم: ماذا يريد الله تعالىٰ بقوله كذا وكذا وبآية كذا وكذا، وأنْ تبحث في ثنايا كلام الله تعالىٰ الإجابة عن السؤال الذي يحيرك، وأنْ تسأل نفسك: هل يومياتي وتفاصيل حياتي موافقة لما في القرآن؟

ثم تجعل ذلك ديدنك في حياتك وعاداتك اليومية التي لا تنفك عنها.

هذه خلاصة أنْ تكون من المتقين.

أما الكافرون المعاندون فقد أخبرتنا سورة البقرة أنْ ليس لهم إلىٰ هذه الهداية سبيل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة:٦-٧].

عائذًا بالله من الطبع علىٰ القلوب.

وكيف يُهدىٰ إلىٰ الصراط المستقيم من يتأبىٰ علىٰ سلوكه، ومن يعرض عن دليله!

إنهم حين تركوا أول الأمر عاقبهم الله تعالىٰ بآخره؛ بالختم علىٰ القلوب وعدم الانتفاع بالسماع، وتلك عقوبة المعرضين، عافاني الله وإياك، (وهذا شأنه سبحانه في كل من أنعم عليه بنعمة فكفرها، فإنه يسلبه إياها بعد أنْ كانت نصيبه وحظه)[1].

وكذلك المنافقون؛ فقد أخبرتنا سورة البقرة أنهم ليس لهم إلىٰ الهداية سبيل، فإنهم:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٦].

فليست المشكلة لديهم هي الإعراض من المرة الأولىٰ، فإنهم قد عرفوا الحق ورأوا الصواب ووضعوا أقدامهم علىٰ أول الطريق، وربما قالوا: آمنَّا، وربما قالوا: أسلمنا، لكنهم في واقع الأمر فضلوا الضلالة واستحسنوا الغواية والانفلات، ورأوا في اتباع أهوائهم وعوائدهم ما يستغنون به عن اتباع الحق وما جاء به القرآن، واستخْفَوا بذلك.

وهذه المقايضة بين الضلالة والهدىٰ، هي أشنع الصفقات وأكثرها خسرانًا، فلا هي التي أربحتهم واكتسبوا منها شيئًا يذكر في حياتهم، ولا هم الذين اهتدوا كما يهتدي المتقون، أو ربحوا كما ربح المهتدون.

ولذلك فإنَّ الله تعالىٰ يعلمنا أنَّ دلالته لنا علىٰ الصراط المستقيم هي النعمة العظمىٰ التي تستحق الشكر والإكثار من ذكره تعالىٰ إذ امتن بها علينا.

---

(١) شفاء العليل ١/ ٢٦٥.

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

أيْ فاذكروا الله واشكروه فإنه أرسل فيكم رسولًا يهديكم إلىٰ الصراط المستقيم، بالعلم والتزكية وتلاوة القرآن.

وأما اليهود والنصارىٰ من بني إسرائيل فجحدوا ولم يشكروا، وكفروا ولم يذعنوا، ورفضوا الاهتداء علىٰ الرغم من نزول الكتاب عليهم من قبل، بل ونزول الكثير من الآيات المعجزة عليهم، فاستحقوا العقاب الرباني في الدنيا والآخرة:

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [البقرة: ٢١١].

قال القرطبي: (ومن يبدِّل نعمة الله من بعد ما جاءته: لفظ عامٌّ لجميع العامة، وإنْ كان المشار إليه بني إسرائيل، لكونهم بدلوا ما في كتبهم، وجحدوا أمر محمد ﷺ، فاللفظ منسحب علىٰ كل مبدل نعمة الله تعالىٰ. ويدخل في اللفظ أيضًا كفار قريش، فإنَّ بعْث محمد ﷺ فيهم نعمة عليهم، فبدلوا قبولها والشكر عليها كفرًا)[(١)].

أيها الفاضل! ألا تُحْدث هذه الآية في قلبك وجلًا؟

هؤلاء جاءهم الهدىٰ، نزلت الهداية في بيوتهم ونواديهم، لكنهم آثروا الضلالة، وحبذوا الانحراف، فاشتدت عليهم العقوبة الإلهية.

وقد حكىٰ الله تعالىٰ عن ثمود هذه الحالة السرطانية التي إذا أصابت الأمم والمجتمعات فإنها تستنزل الغضب الكبير والعقاب الشديد، فقال تعالىٰ: ﴿فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٠.

استحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ! من أجل متعٍ مؤقتة عاجلة جَنَوْا علىٰ أنفسهم وقومهم. من أجل تشييد حاضرهم قضوا علىٰ الأجيال اللاحقة. وهذا هو ذاته الذي حدث مع بني إسرائيل: تفضيل العماية علىٰ الهداية.

وإنها لأسوأ حال تصيب الأمة، وإنها للحال الجديرة بأنْ يحذِّر منها الناس بعضهم بعضًا.

والله تعالىٰ يذكرنا في سورة البقرة بأنه أنزل علىٰ موسىٰ التوراة هدىٰ لبني إسرائيل، والتوراة أيضًا هي كلام الله وكتابه، ثم أرسل رسلًا إليهم بمضمون رسالة موسىٰ، ثم أنزل الإنجيل علىٰ عيسىٰ ليكون لهم هدىٰ أيضًا، فانظر مغبة إعراضهم عن هذا الهدىٰ!

ماذا حل ببني إسرائيل من العقاب! وكيف تحدثت عنهم سورة البقرة!

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٧-٨٩].

استحقوا اللعنة مرتين.

لُعنوا حين عارضوا ما أنزل الله بما تمليه أهواؤهم وعقولهم وطرائق تفكيرهم ومعاشهم.

ولُعنوا حين كفروا بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ وهم يعلمون أنه الحق الذي جاءت بها كتب بني إسرائيل وأنبيائهم.

وهذا لعمرو الحق محض العماية.

قال الطبري: (وإنما يعني جل ثناؤه بقوله: «وقفينا من بعده بالرسل» أيْ أتبعنا بعضهم بعضًا علىٰ منهاج واحد وشريعة واحدة. لأنَّ كل من بعثه الله نبيًّا بعد موسىٰ ﷺ إلىٰ زمان عيسىٰ بن مريم، فإنما بعثه يأمر بني إسرائيل بإقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء إلىٰ ما فيها، فلذلك قال: «وقفينا من بعده بالرسل»، يعني علىٰ منهاجه وشريعته، والعمل بما كان يعمل به)[1].

فتخيل مواكب الرسل والأنبياء وهم يدعون بني إسرائيل إلىٰ إقامة الأحكام الشرعية المنزلة في التوراة، نبيًّا من بعد نبي، ورسولًا من بعد رسول، يدعونهم إلىٰ الهدىٰ والرشاد والصواب، ويدلونهم علىٰ سبيل النجاة من طرق الغواية والانحراف، ثم هم ينحرفون عن سبيل الحق ويرفضونها.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إنَّ السفينة لا تجري علىٰ يبسِ

هنا تحديدًا استحقوا اللعنة مرتين؛ برفضهم الاهتداء بكلام الله تعالىٰ الذي أنزله في التوراة والإنجيل، ثم بعد ذلك برفضهم الاهتداء بكلام الله تعالىٰ الذي أنزله في القرآن.

أنت أمام معضلة حقيقية!

أمام رفضٍ قاطع للهدىٰ، والذي يتقدمه وينظِّر له ويدعو إليه أحبار اليهود وعلماء النصارىٰ[2]:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ

(١) جامع البيان ٢/ ٣١٩.

(٢) جامع البيان ٣/ ١٨٧.

﴿ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٤٥-١٤٦].

إنَّ فساد النخبة يفتح كل الأبواب لفساد العامة.

وأنت ترىٰ وتسمع في يومياتك من أقوال النخبة من أهل العلم والثقافة والفكر والأدب من تُشاد علىٰ أقوالهم الحوارات وتُخرَّج علىٰ نظرياتهم الأفكار والمسلكيات، ذلك أنَّ شأن النخبة (الذين آتيناهم الكتاب) خطير؛ هكذا نفهم من القرآن.

والسعدي يبين هذا الداء الذي يصيب بعضهم فيقول: (لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه. فالآيات إنما تفيد وينتفع بها من يتطلب الحق وهو مشتبهٌ عليه، فتوضَّح له الآيات البينات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق فلا حيلة فيه)[1].

لكن الله تعالىٰ أخبرنا عن طوائف من أهل الكتاب تمسكوا بالحق الذي أنزل عليهم من الله، واتبعوا أنبياءهم ورسلهم، ولم يبتدعوا، ولم يحرفوا أو يبدلوا، وانقادوا لدلالات الوحي المنزل من الله، فقال تعالىٰ:

﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ١١٣ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١١٣-١١٥].

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٩].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٠٥.

وهذا من العدل والإنصاف الذي ربانا الله عليه، وحفظ به حق المؤمنين من أهل الكتاب.

أما أصحاب محمد ﷺ وأتباع دينه فهم المتقون، وهم الذين طلبوا هداية الكتاب، وجرَوْا ركضًا نحوها، وتعلموها وأدَّوْا حقها وقاموا بواجباتها، لقد أثنىٰ الله عليهم:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

خلَّد القرآن إيمانهم به، بما فيه من التكليف بما يطاق وبما لا يطاق، وخلَّد قولهم: سمعنا وأطعنا، مع أنَّ الله تعالىٰ نسخ التكليف بما لا يطاق بعد ذلك. ولذلك قال ابن عطية: (وقوله تعالىٰ ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ مدحٌ يقتضي الحضَّ علىٰ هذه المقالة، وأنْ يكون المؤمن يمتثلها غابرَ الدهر)[1].

بل أثنىٰ القرآن عليهم لاستجابتهم أمر الله ورسوله في ظروف بالغة المشقة، كاستجابتهم لنداء النبي ﷺ لملاحقة المشركين وقتالهم بعد غزوة أحد وذهابهم إلىٰ حمراء الأسد، رغم الجراح والعناء والمشقة، فقال تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٢].

وفي خضم الحوار القرآني حول مسألة الاهتداء بالقرآن الكريم وحال بني إسرائيل وحال المنافقين وحال أهل الإيمان.. تعرض سورة البقرة لنا النموذج الصالح للأمم والجماعات في الاهتداء بكلام الله تعالىٰ، ذلك الرجل العظيم الذي ننتسب إليه وندين بدينه؛ هو إبراهيم عليه السلام:

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٢٩٧.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

وهنا تفيد الآية أنَّ إنزال الله كلامه الهادي هو ابتلاءٌ منه، وأنَّ إبراهيم عليه السلام أتمَّ كلمات الله، ووفَّىٰ بما فيها من الشرائع والأحكام وطاعة أمر الله، فجعله الله إمامًا وقدوة للناس، وهذا النموذج يأتي في المقابل لعرض نموذج بني إسرائيل المتعنت.

والحق أنَّ القرآن ابتلاء! وعلىٰ ذلك امتُحنت قريش. ولأجله حُدَّت السيوف وبُريت الرماح والسهام. وعلىٰ منابذته اصطفت الأمم الكافرة لمواجهة أهله وحملته.

وإلىٰ يومك هذا يرفض المشركون كتاب الله تعالىٰ، يرفضون وجوده الحقيقي في واقع الناس، ولقد قال فريق منهم: (نحن لن نستطيع أنْ نغيِّر من فحوىٰ القرآن، ولكن علينا التدخل لإفراغه من مضمونه)[١]. وينبغي أنْ تدرك الأمة أنَّ أهم معركة تجالد فيها عدوها اليوم هي «معركة إفراغ القرآن من مضمونه»، وهي معركة شرسة قد تستدعي منهم القدح في سنة الرسول ﷺ المفسرة له والمبينة لأحكامه ومفاهيمه، بعد أنْ عجزوا عن محو كلماته وآياته.

فلا تقلل من شأن الاهتداء بكلام الله، فإنه هو الصراط المستقيم، وهو سبيل السعادة، وهو سبيل الحياة الطيبة، والإعراض عنه هو سبيل حياة الشقاء المليئة بالأحزان والخوف، انظر كيف يصف الله كتابه بأنه هداية وبشارة:

﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧].

من اهتدىٰ بالقرآن فله البشرىٰ في الدنيا والآخرة.

---

(١) العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الغربية ص١١٤.

تخيل حال الناس إذا أعرضوا عن هدايات القرآن في أحكام الزواج مثلًا! ما هو شأنهم؟ وكيف يتخبطون؟ وإلىٰ أي درك في الشقاء يصلون؟

انظر إلىٰ الحالة الغربية علىٰ سبيل المثال: كيف تمزقت الوحدة الاجتماعية فيها، وأصبحت المرأة في لهاث تسابق الزمن من أجل تأمين حاضرها ومستقبلها، وكيف تنطمس المعاني العميقة في الوجدان كالحب والود والرحمة والإيثار...

وقل مثل ذلك في أحكام المال والأعراض والجنايات وغيرها، وقل مثل ذلك في علم النفس والاجتماع والاقتصاد وسائر شؤون الحياة.

أم الكتاب

افتتاح سورة آل عمران مبهر!

افتتاح شديد في الإيجاز، واضح في البيان عن المراد، قوي على القلب.

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران:١-٣].

وبعد أن استفتحت السورة بأنَّ الله تعالىٰ المستحق لإفراده بالعبادة وأنه نزل الكتاب بالحق؛ بينت أنَّ هذا الحق الذي في كتابه ينقسم إلىٰ قسمين؛ محكم ومتشابه:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران:٧].

وهذه الآية تمثل محورًا فكريًّا في الإسلام، وإذا أردت التحقق من ذلك فطالع ما دوَّنه المفسرون حولها وما سطره الأصوليون والمحققون في معانيها، إذ غاصوا في بحرها اللجي واقتحموا أمواجها، واستخرجوا منها من الجواهر واللآلئ ما يجعلها بهذه المنزلة.

فما معنىٰ المحكمات؟ وما المحكمات التي جعلها الله أم الكتاب؟ وما القيمة العلمية والعملية لها؟

لنعرج أولًا علىٰ المعنىٰ الإجمالي للآية، فقد قال السعدي: (محكمات أيْ: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال، وهنَّ أم الكتاب أيْ: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، ومتشابهات أيْ: يلتبس معناها علىٰ

كثير من الأذهان؛ لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلىٰ بعض الأفهام غيرُ المراد منها)[1].

ولاحِظ أنَّ السعدي هنا يجعل المحكمات معظم الكتاب وأكثره، وقد أشار ابن عطية إلىٰ ذلك، فيقول: (معناه الإعلام بأنها معظم الكتاب وعمدة ما فيه؛ إذ المحكم في آيات الله كثير، قد فُصل ولم يفرَّط في شيء منه)[2].

فهي إذًا الآيات التي اتضح معناها وضوحًا يفهمه كل عاقل من الناس، فلا تحتاج هذه الآيات إلىٰ شرح عالم لبيانها.

وإذا سلطنا الضوء علىٰ المحكمات، فسنجد أنَّ سعيد بن جبير يصفها بأنها (أصل الكتاب، وإنما سماهن أم الكتاب؛ لأنهن مكتوبات في جميع الكتب). وفي هذا المعنىٰ يقرر مقاتل بن حيان بأنه (ليس من أهل دين إلا يرضىٰ بهن)[3].

إذًا فالمحكمات أصل الشرائع كلها، وهي منصوص عليها في التوراة والإنجيل والقرآن، بل وفي جميع الكتب التي أنزلها الله تعالىٰ، وفي جميع الشرائع التي ارتضاها سبحانه، وهي التي لا يمكن الاختلاف عليها لوضوحها، وهي بذلك تتفق مع الفطرة الإنسانية السوية المستقيمة، التي لم تتلوث بالفلسفة اليونانية ولا بالحضارة الإغريقية ولا بالمعتقدات الزرادشتية ولا بالحكمة الصينية.

وفي تعيين أفراد المحكمات، ومحاولة تقصي تفاصيلها، يرشدنا حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما إلىٰ بعض أمثلتها، وهي في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأنعام:١٥١] إلىٰ ثلاث آيات، وإلىٰ الآيات في

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٣٢- فروقات.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٢٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣١١.

سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣][1].

أما آيات المحكمات في سورة الأنعام هي قوله تعالىٰ:

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣].

وأما آيات المحكمات في سورة الإسراء فهي قوله تعالىٰ:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ الشَّيَٰطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ

(١) جامع البيان ٥/ ١٩٣.

فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:٢٣-٣٩].

وإذا عدتَ إلىٰ قول مقاتل الذي يشير فيه إلىٰ إيمان كل أهل دين صحيح بالمحكمات، ثم قرنته بكلام ابن عباس الذي ضرب أمثلة علىٰ المحكمات؛ فاسأل نفسك: هؤلاء الذين يسعون إلىٰ اتباع النظم الاجتماعية الغربية المشرِّعة للزنا وشيوع الفاحشة وإباحية العلاقات وعقوق الوالدين وهدم كيان البيت المشتمل علىٰ سلسلة الأجيال.. هل هؤلاء يحافظون علىٰ أصل الكتاب ومعظمه وأكثره؟

بل قل: هل هم علىٰ دين؟

وهل أولئك الذي يسعون إلىٰ هيمنة النظم الاقتصادية الغربية المشرعة للربا وأكل المال بالباطل وإفقار شعوب العالم.. هل هؤلاء يحافظون علىٰ أصل الكتاب ومعظمه وأكثره؟

بل قل: هل هم علىٰ دين؟

أعد النظر في هذه المحكمات المقررة في الآيات السابقة، وتأمل حال الأمة اليوم تجاه أم الكتاب.

وهذا التعيين للمحكمات الذي نص عليه ابن عباس ليس علىٰ سبيل الحصر، فقد جرت عادة السلف في التفسير أنهم كثيرًا ما يعيِّنون معنىٰ ويريدون بذلك جزءًا من المعنىٰ العام أو مثالًا للمعنىٰ العام، ولهذا قال الطبري: (وأما المحكمات فإنهن اللواتي قد أُحكمن بالبيان والتفصيل، وأُثبتت حججهن وأدلتهن علىٰ ما جُعلن أدلةً عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر وزجر، وخبر ومثل، وعظة وعِبر، وما أشبه ذلك.

وإنما سماهن أمَّ الكتاب، لأنهن معظم الكتاب، وموضع مَفزَع أهله عند الحاجة إليه. وكذلك تفعل العرب؛ تسمي الجامعَ معظم الشيء أُمًّا له، فتسمىٰ راية القوم التي تجمعهم في العساكر: أُمَّهم، والمدبِّر معظم أمر القرية والبلدة: أمها)[1].

فالطبري يجعلها قطعية الدلالة علىٰ التحليل والتحريم والثواب والعقاب ونحوها، فليس لأحد أنْ يصرف دلالتها أو يُجري عليها قلم التأويل والإهمال.

لكن الطبري هنا يستنبط من الآية: وجوب الرجوع إليها عند الحاجة، وحيث وجد الخلاف فلا بد من العودة إلىٰ موضع الاتفاق، وفي مسائل الخلاف أصول مشتركة لدىٰ المختلفين، يقول: (وموضع مَفزَع أهله عند الحاجة إليه) لأنها مما لا يصح الاختلاف عليها ولا تأويلها ولا تعطيلها، ومثال ذلك مسائل الصيام التي هي محل خلاف بين أهل العلم، فإنه مهما كان الاختلاف فإنَّ الجميع يقول بفرضية صيام شهر رمضان؛ علىٰ هذه الأمة وعلىٰ الأمم من قبلنا، وإذا اختلف أهل العلم في أحكام البيوع؛ فإنَّ مما لا يختلفون فيه حرمة أكل الأموال بالباطل، وهلمَّ جرًّا.

ولو تدبرت الآيات التي أشار إليها ابن عباس رضي الله عنهما فستجدها كذلك، فهي مع وضوحها وجلائها للجميع فهي أيضًا مما لا يختلف عليه، وهي

---

(١) انظر: جامع البيان ٥/ ١٨٩.

جامعة للناس علىٰ اختلاف مشاربهم وطبائعهم واجتهاداتهم الفقهية وسبل سلوكهم الدعوي والاجتماعي.

أما الطاهر ابن عاشور فيقول: (المحكمات هي أصول الاعتقاد والتشريع والآداب والمواعظ. وكانت أصولًا لذلك باتضاح دلالتها، بحيث تدل علىٰ معانٍ لا تحتمل غيرها، أو تحتمله احتمالًا ضعيفًا غير معتدٍّ به)[1]. وهذا تأكيد لمعنىٰ الوضوح وقوة الدلالة في المحكمات، والذي يفهمه العامة والخاصة علىٰ السواء، لذلك قال ابن عطية: (المحكم هو المتضح المعنىٰ لكل من يفهم كلام العرب، لا يحتاج فيه إلىٰ نظر، ولا يتعلق به شيء يَلبِس، ويستوي في علمه الراسخ وغيره)[2]. لأنها لو كانت مما يلتبس علىٰ الناس لضاع دينهم، ولو جرىٰ عليها أي تغيير أو تحريف عن المعنىٰ لانهدمت الشريعة، فتحريم الزنا وقتل المعصومين بيِّن التحريم ولا يحتاج الناس معه إلىٰ تأويلات عالِم، وهذا يعني أنَّ جهل الناس بهذه المحكمات هو جهل بأصل الشريعة، وجهل بألف باء الإسلام.

ويتأيد هذا بقول الشافعي عن العلم العام -أو ما يسميه علم العامة- أنه العلم الذي (لا يسعُ بالغًا غيرَ مغلوب علىٰ عقله جهلُه، مثل: الصلواتِ الخمس، وأنَّ لله علىٰ الناس صوم شهر رمضان، وحجِ البيت إذا استطاعوه، وزكاةٍ في أموالهم، وأنه حَرم عليهم الزنا والقتل والسرقة والخمر، وما كان في معنىٰ هذا،... وهذا الصنف كله من العلم موجودٌ نصًّا في كتاب الله، وموجود عامةً عند أهل الإسلام ينقله عوامهم عنْ من مضىٰ من عوامهم، يحكونه عن رسول الله، ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم. وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر، ولا التأويل، ولا يجوز فيه التنازع)[3].

هذا في توضيح معنىٰ المحكمات وأمثلتها.

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٥٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٢٤.

(٣) الرسالة ص٣٥٧.

غير أنَّ للمحكمات وظائف مهمة، مرَّ شيء منها فيما سبق، وقد لخصها ابن إسحاق وغيره من أهل العلم في عدد من النقاط، فقال:

(فيهنَّ حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه)[1].

فأولًا هي حجة الله علىٰ عباده، لما هي عليه من وضوح الدلالة وقوة الحجة، ويستطيع كل واحد من الناس أنْ يعرفها وأنْ يعرف الواجب عليه تجاهها، فهل أحد من المسلمين خالف في تحريم الشرك والقتل والزنا؟

أم هل هناك أحد من المسلمين قال بعدم وجوب الصلاة والزكاة وبر الوالدين؟

وقل مثل ذلك فيما وجب وحرم مما أحكمته الشريعة بالبيان والتفصيل، وهذا يقتضي أنَّ الشريعة في أصلها واضحة سهلة التعلم والاتباع في الضرورات.

ثم هي ثانيًا عاصمة للعباد من الزيغ والخروج عن الدين، ذلك أنَّ من حافظ عليها علمًا وعملًا فقد حافظ علىٰ الإسلام في نفسه، ومن فرط فيها وأضاعها علمًا وعملًا فقد أضاع الإسلام في نفسه، والشاطبي يصف هذا التفريط بالهدم، يعني هدم الشريعة، سواء كان المفرط يهدم الشريعة في ذاته أو يهدمها في الأمة، فيقول: (أم الكتاب يعم ما هو من الأصول الاعتقادية أو العملية، وإنَّ المخالفَ في أصلٍ من أصول الشريعة العملية لا يَقْصُر عن المخالف في أصل من الأصول الاعتقادية في هدم القواعد الشرعية)[2].

إنَّ من يحافظ علىٰ المحكمات فهو -تلقائيًّا- يحافظ علىٰ أصول الشريعة، وعليه فهو يصون دمه وماله، ويحفظ مكانه في دائرة الشريعة وسبيل الأمان والمنهج الصحيح للإسلام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣١٠.

(٢) انظر: الموافقات ٥/ ١٤٥.

وكما أنها عاصمة من الزيغ والخروج عن الدين؛ فهي أيضًا عاصمة من سقوط الأمة وضياع المجتمعات وانهيار البيوت والمؤسسات والدول، فإنَّ التفريط في المحكمات يفضي بالأفراد والمجتمعات إلىٰ الخراب في كل نواحيه، وانظر -علىٰ سبيل المثال- إلىٰ قوة تأثير إباحة الزنا وشيوعه في العالم الغربي في انهيار نظام البيوت القائم علىٰ عقد النكاح بين الذكر والأنثىٰ، وانظر إلىٰ قوة تأثير إقرار الربا في التنامي المستمر لمعدلات الفقر في العالم، والمترتب عليها تلقائيًّا ارتفاع معدلات الجريمة.

كما تقوم المحكمات أيضًا بتوحيد الأمة حولها، ففي حين قد تختلف الأمة في المتشابهات، فإنهم يجتمعون علىٰ المحكمات، أو كما يسميها الشافعي علم العامة أو العلم العام، وحين تختلف الأمة في الفروع فإنه يجب ألا تختلف علىٰ الأصول.

بل إنها تمثل منطلقًا للنهضة وأساسًا للإصلاح في الأمة، في برنامجها الدعوي والتنموي، وقد كان المجددون علىٰ مر القرون منذ مبعث النبي ﷺ وإلىٰ اليوم، حين توغل المجتمعات في الانحراف، فإنَّ أول دعوتهم تكون في تثبيت هذه المحكمات، وراجع في ذلك سير أكابرهم كعمر بن عبد العزيز والشافعي وابن تيمية، وهكذا تجد ذلك في سير المصلحين.

دعك من هذا، وانظر إلىٰ دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام التي حكاها القرآن، انظر إلىٰ دعوة شعيب ولوط وموسىٰ وبقية الأنبياء؛ هل كانت إلا في الدعوة إلىٰ المحكمات ومكافحة هوادمها.

المحكمات وأم الكتاب هي أصلٌ في الهداية المنشودة والاتباع المحمود.

من هنا تسير الأمة في الاتجاه الصحيح.

ثم هي ثالثًا تدفع الباطل وخصوم الحق، لأنها مرجع عند الاختلاف، ولقوتها لا يمكن دفعها بالباطل، ولوضوحها لا يمكن الالتباس وتمييع الحقيقة علىٰ عتباتها، ولأنَّ الفطرة توافقها وتطلبها أصبحت مقبولة شرعًا وفطرة، ولا يمكن مدافعتها إلا بغض الطرف عن داعي الفطرة في النفوس؛ الأمر الذي تكرس الحضارة الغربية اليوم جهدها في الدعوة إليه.

ثم هي رابعًا حصن تُحفظ به الشريعة وأحكامها من تحريف المحرفين وتأويل الزائغين ولي المعطلين، عبر العصور والأزمان كانت هذه المحكمات -كما يريد الله لها- عاصمة للشريعة من التبديل علىٰ الرغم من آلاف المحاولات والجهود التي عمدت إلىٰ المشتبهات من النصوص لتجعل منها بابًا مفضيًا إلىٰ تبديل الدين وتحريف الشريعة ولي أعناق النصوص، أفلا ترىٰ أنه لا يختلف اثنان علىٰ تحريم عقوق الوالدين والظلم مثلًا؟

لقد أكسبت المحكماتُ شريعةَ الإسلام الثبات، ويمكن تشبيه ذلك بالأرض وبالجبال فيها، إذا شبهنا الشريعة بالأرض فإنَّ المحكمات هي الجبال التي تثبتها بإذن الله.

وإذا تأملت كلام الفقهاء حول مراتب الأعمال، وكيف يجعلون الضروريات أمًّا للحاجيات ثم التحسينيات، وكيف يجعلون لكل مرتبة طريقًا تُنمىٰ من خلاله وطريقًا يحافظ عليها من العوادي من خلاله.. تدرك أنَّ المحكمات هي الحصن الحصين للعلم والفقه وسائر أبواب الشريعة.

واليوم إذ تعاني الأمة من الدعوات المكثفة لحرف الإنسان عن فطرته وللتشويش علىٰ محكمات دينه؛ فإنَّ الحاجة تزداد إلىٰ الدعوة إليها وتثبيتها في الناس وحمايتها والدفاع عنها بالقلم واللسان والبيان، وبالأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر، وبدروس العلم وخطب الجمعة، وعلىٰ صفحات الإنترنت ومواقع التواصل، وعلىٰ أي منبر يؤمه الناس وبأي وسيلة تصل إلىٰ هذه النتيجة.

فرحم الله امرَأً دعا الناس إلىٰ التوحيد وإقام الصلوات الخمس وزكاة المال وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والإحسان إلىٰ المساكين.

ورحم الله امرَأً حذَّر الناس من خطر الشرك والقتل والزنا والسرقة وشرب الخمر وإتيان الفواحش والظلم والغدر وأخذ الربا وأكل المال بغير الحق.

ألا إنَّ هذا أعظم ما يدعو المؤمن إليه أهله وجيرانه وأصحابه وأهل مسجده وأحبابه وأبناءه، وهذا هو جوهر دعوة الأنبياء والرسل والمصلحين.

علىٰ أنَّ أمرًا مهمًّا ينبغي التنبيه إليه هنا، وهو أنَّ هذه المحكمات ليست من العلم الذي يختص به النخبة من طلاب العلم والفقهاء والمفكرين والمثقفين، بل هي من العلم العام الذي -كما يقول الشافعي- يرويه العامة عن العامة ويتوارثونه خلفهم عن سلفهم، فيمكن للوالدين أن يساهما في هذه الدعوة العظيمة من خلال تربية أبنائهما عليها، ويمكن لمدير الدائرة أنْ يضبط أهداف دائرته في ضوئها، ويمكن للتاجر أنْ تتبدل إلىٰ: يؤدي دوراً في الحفاظ عليها، ويمكن للحاكم أنْ يجعل نظامه محكوماً بها، ويمكن للمعلم أنْ يضع بصمته في صد العوادي الفكرية عليها في طلابه، وهلمَّ جرًّا.

فتلمَّس دورك في تشييد بناء المحكمات، واحظَ بشرف وراثة الأنبياء والرسل، وليهنِك الأجر العظيم من الله.

هذه سبيل الأنبياء.. الدعوة إلىٰ أم الكتاب.

هداية لا تعبأ بالتاريخ

كما أنَّ المولىٰ سبحانه هدانا في كتابه بالمحكمات التي هي أم الكتاب، فقد هدانا أيضًا بالمتشابهات، قال تعالىٰ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾ [آل عمران:٧].

والمتشابهات هنا هي: (التي يلتبس معناها علىٰ كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلىٰ بعض الأفهام غير المراد منها)[(١)].

فليست هي الناصعة البيان علىٰ معنىٰ واحد ولا هي قطعية الدلالة عليه، بل هي مما يُختلف في معناها ومما يتنوع الاستنباط منها، وهذا خلافًا لما أوضحه أهل العلم والتفسير في معنىٰ المحكمات.

والمتشابهات من الآيات أنواع.

فالنوع الأول منها ما وصفه القاضي أبو محمد ابن عطية بقوله: (المتشابهات هي التي فيها نظر وتحتاج إلىٰ تأويل؛ ويظهر فيها ببادي النظر إما تعارض مع أخرىٰ أو مع العقل، إلىٰ غير ذلك من أنواع التشابه. فهذا الشَّبه الذي من أجله توصف بمتشابهات، إنما هو بينها وبين المعاني الفاسدة التي يظنها أهل الزيغ ومن لم يمعن النظر، وهذا نحو الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وبينهما

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٣٢ – فروقات.

أمور متشابهات»[1]، أي: يكون الشيء حرامًا في نفسه؛ فيُشبَّه عند من لم يمعن النظر شيئًا حلالًا، وكذلك الآية يكون لها في نفسها معنىٰ صحيح؛ فتشبه عند من لم يمعن النظر أو عند الزائغ معنىٰ آخر فاسدًا، فربما أراد الاعتراض به علىٰ كتاب الله)[2].

وضرب مثالًا لهذا المعنىٰ بإيراد النصارىٰ -أعني وفد نجران- علىٰ النبي ﷺ في تأليه عيسىٰ وأنه ابن الله، قولهم: (أليس عندك في كتابك أنَّ عيسىٰ كلمة الله وروح منه؟).

فهذه الألفاظ قطعية الثبوت، لكنها تحتمل أوجهًا في اللغة والدلالة، فاستدل بها أولئك النصارىٰ علىٰ ما أرادوا، وليس علىٰ ما أراد الله تعالىٰ.

ولو رجعنا إلىٰ المحكم في مسألة عيسىٰ فسنجد آيات واضحة الدلالة علىٰ إثبات عبوديته ورساليته ونفي ألوهيته بخلاف قولهم، مثل قوله تعالىٰ:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٢-٧٦].

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ١٧٦، ح٥٢.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣١٦.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٢٩-٣٥].

فهذه الآيات واضحة الدلالة علىٰ عبودية عيسىٰ لله، وأنه رسول من عند الله كسائر الرسل، وأنه ليس إلهًا، فهذه محكمات.

وقد بين العلماء أنَّ الواجب في المتشابه بهذا المعنىٰ أنْ يعاد به إلىٰ أصله المحكم، لأنَّ المحكم عاصم من الزيغ ولأنه مرجع عند الاختلاف، (فمن رد ما اشتبه عليه إلىٰ الواضح منه، وحكَّم محكمه علىٰ متشابهه عنده، فقد اهتدىٰ، ومن عكس انعكس)[1]. وابن كثير في هذه العبارة يذكر الواجب في المتشابهات، وهو ردها إلىٰ المحكم، أيْ جعْل المحكم قاعدة للنظر، والمتشابه فرعًا عنه يلتحق به ولا يحيد عن طريقه، فإنَّ للمحكمات وظيفة في تفسير وبيان المتشابهات، من حيث هي أصل ومرجع نرجع إليه في فهمنا للمتشابهات، ولا يصح فهم المتشابهات في منأىٰ عن المحكمات؛ هذا مقتضىٰ كلام أهل العلم، وليس العكس، أيْ: ليس رد المحكم إلىٰ المتشابه كما فعل فريق من أهل الكتاب من قبل، أو كما يفعل أهل الزيغ من هذه الأمة..

نعم.. من هذه الأمة.

فإنَّ في الأمة من عمد إلىٰ آيات من القرآن من قبيل المتشابهات، فقام أولًا بالتفريق بينها وبين المحكم الذي إليه ترجع، ثم أوَّلها وحرفها عن معانيها الصحيحة إلىٰ معانٍ فاسدة:

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣١٠.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧].

وطريقة رد المتشابهات إلىٰ المحكمات وإلحاق هذه بذي منهجية علمية؛ ألا ترىٰ أنَّ الفقهاء -مثلًا- حين يحررون مسألة فأول ما يذكرونه فيها مواطن الإجماع والاتفاق، ثم يثنون بمواطن الخلاف، لأنَّ مواطن الإجماع والاتفاق ذات تأثير قوي في تحرير محل النزاع وتوجيه الأقوال وتأطيرها، بحيث لا يمكن أنْ تخرج الأقوال الصحيحة عن الإطار العام المجمع عليه، وبنحوه تفعل المحكمات.

وإنه لمن المؤسف أنْ يقع مؤمنٌ بما أنزل الله تعالىٰ في فخ الزائغين الذين أخبرنا الله عنهم في سورة آل عمران بأنهم يتبعون ما تشابه منه، فيعمدون إلىٰ تأويل المتشابه وفق مناهج خاطئة، دون العودة إلىٰ ما أحكم الله في موضوع الآية؛ فآل بهم الأمر أنْ أحلوا ما حرم الله أو حرموا ما أحل الله، باسم التنوير تارة وباسم الحداثة تارة أخرىٰ، فاغتر بهم فئام من المسلمين لم يكلفوا أنفسهم الرجوع إلىٰ المحكمات، ولا حتىٰ سؤال أهل العلم عنها، بل ربما وجدَتْ طائفة منهم في تلك التأويلات الفاسدة ما يروق لهم أو ما يتماهىٰ مع اتجاهاتهم.

وقد ذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قاعدة في التعامل مع المتشابهات التي لم يتبين المؤمن فيها وجه الحق، فقال: (إذا قال بعض المشركين: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] وأنَّ الشفاعة حق، أو أنَّ الأنبياء لهم جاه عند الله، أو ذكر كلامًا للنبي ﷺ يستدلُّ به علىٰ شيء من باطله؛ وأنت لا تفهم معنىٰ الكلام الذي ذكره، فجاوبه بقولك: إنَّ الله ذكر في كتابه أنَّ الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه. وما ذكرته لك من أنَّ الله ذكر أنَّ المشركين يقرون بالربوبية وأنَّ كفرهم بتعلقهم علىٰ الملائكة والأنبياء والأولياء مع

قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، هذا أمر محكم بيِّنٌ لا يقدر أحد أنْ يغير معناه. وما ذكرتَ لي -أيها المشرك- من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه، ولكن أقطع أنَّ كلام الله لا يتناقض، وأنَّ كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله.

وهذا جواب جيد سديد، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله فلا تستهِنْ به)[1].

وهذا ما ينبغي للمرء أنْ يتمثله في إيمانه بالكتاب؛ محكمه ومتشابهه.

وعلىٰ أي حال؛ سيقف الجميع بين يدي الله تعالىٰ يوم القيامة، وسيحكم الله بينهم فيما اختلفوا فيه، وسيتبرأ حينها أولئك الذين زاغت قلوبهم واتبعوا المتشابه ونشروا تأويلاتهم بين الناس عبر الشاشة أو عبر الكتب والمنشورات.. سيتبرؤون من اللاهثين خلفهم؛ الذين اتبعوهم علىٰ ضلالهم إذ ذاك:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧].

وهل تنفع الحسرات يومئذ؟!

وأنت تلاحظ أنَّ القرآن يضع المتبوعين هنا في قائمة الأنداد! كما يضع الأتباع الذين أغلقوا علىٰ عقولهم نوافذ التفكر، وأوصدوا الأبواب أمام الأدلة المحكمة.. يضعهم القرآن في قائمة من يتخذ ندًّا لله.

إذًا فالقرآن يربي المسلم علىٰ تحمل مسؤوليته الكاملة، مسؤولية اهتدائه وضلاله.

---

(١) كشف الشبهات ص١٦.

القرآن الهادي بين يديه، وطريقة الاهتداء بالقرآن مشروحة فيه وفي بيان من أنزل عليه ﷺ، فلا مناص يوم القيامة من حصاد ما زرعته بيدك أنت.

وثمة نوعٌ آخر للمتشابهات ذكره ابن زيد، قال: (المحكم: ما أحكم فيه قصص الأنبياء والأمم، وبين لمحمد ﷺ وأمته. والمتشابه: هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور؛ بعضه باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وبعضه بعكس ذلك، نحو قوله: ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠] و﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٠٧])[١]. وتكون الآيتان المتشابهتان تزيدان القصة وضوحًا وتفصيلاً وبيانًا، وربما استطاع المفسر والمتدبر أنْ يتعرف التسلسل التاريخي للقصة، وأنْ يستنبط منها أحكامًا وتوضيحات.

ونوع ثالث من المتشابهات، وهو الإجمال الذي يصح أنْ ندخل فيه عددًا من المعاني والأحكام الصحيحة، والتي تقبلها الأصول العلمية، من غير تأويل فاسد، وهو الذي أشار أبو الدرداء إليه بقوله: (لا يفقه كل الفقه حتىٰ يرىٰ للقرآن وجوهًا كثيرة)[٢].

وابن عاشور يشرح لك جملة أبي الدرداء، فيقول: (علىٰ أنَّ من مقاصد القرآن أمرين آخرين:

أحدهما كونه شريعةً دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين، حتىٰ تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين.

وثانيهما تعويد حملة هذه الشريعة وعلماء هذه الأمة التنقيبَ والبحثَ واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتىٰ تكون طبقات علماء الأمة صالحة في كل زمان لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونون قادرين علىٰ استنباط الأحكام

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣١٨.

(٢) مصنف ابن شيبة ٦/ ١٤٢، ح٣٠١٦٣.

التشريعية، ولو صيغ لهم التشريع في أسلوبٍ سهل التناول لاعتادوا العكوف علىٰ ما بين أنظارهم في المطالعة الواحدة.

من أجل هذا كانت صلوحيةُ عباراتِه لاختلاف منازع المجتهدين قائمةً مقام تلاحق المؤلفين في تدوين كتب العلوم؛ تبعًا لاختلاف مراتب العصور. فإذا علمت هذا علمت أصل السبب في وجود ما يسمىٰ بالمتشابه في القرآن)[1].

والمتشابهات بهذا المعنىٰ تحمل في طياتها سعة الإسلام وشموله، إذ تفتح الباب للمجتهدين للمزيد من استنباط المعاني والفوائد والعبر، وفي رده علىٰ الرافضين لهذا الاتجاه المستندين إلىٰ حديث: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[2]. يقول الماوردي: (قد حمل بعض المتورعة هذا الحديث علىٰ ظاهره، وامتنع من أنْ يستنبط معاني القرآن باجتهاده؛ ولو صحبتها الشواهد ولم يعارض شواهدها نص صريح. وهذا عدول عما تعبدنا من معرفته من النظر في القرآن واستنباط الأحكام منه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء:٨٣]. ولو صح ما ذهب إليه لم يُعلم شيء بالاستنباط، ولما فهم الأكثر من كتاب الله شيئًا. وإنْ صح الحديث؛ فتأويله أنَّ من تكلم في القرآن بمجرد رأيه ولم يعرج علىٰ سوىٰ لفظه وأصاب الحق؛ فقد أخطأ الطريق، وإصابته اتفاقٌ، إذ الغرض أنه مجرد رأي لا شاهد له)[3].

فالمتشابهات بمعنىٰ الإجمال هي الرحم التي أنجبت قولهم: الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، وبهذا النوع من المتشابهات تعالج مشكلات العصر، وينساب

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي ٥/ ٢٠٠، ح٢٩٥٢ وقال: هذا حديث غريب، وضعفه الألباني في الجامع (٥٧٣٦).

(٣) انظر: النكت والعيون ١/ ٣٤، وهذا التلخيص منقول من البرهان للزركشي ٢/ ١٦٢.

الإسلام من أوعية العلم إلىٰ واقع الحياة في كل جيل وعلىٰ كل أرض، شريطة أنْ تكون المحكمات هي الأم والأصل الذي نرجع إليه في ذلك.

وهناك نوع رابع من المتشابهات، وهو ما عبر عنه ابن عطية بقوله: (ما لا يُعلم البتة، كأمر الروح وآمادِ المغيبات التي قد أعلم الله بوقوعها)[1]، فليس هناك حاجة إلىٰ البحث في كنهها، مثل: الروح ووقت قيام الساعة ووقت خروج الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسىٰ عليه السلام ومعنىٰ الحروف المقطعة في أوائل السور، وغير ذلك مما أخفاه الله عن الناس وليسوا بحاجة إلىٰ معرفته، إذ لا يمكن شرعًا أنْ يحتاج الناس إلىٰ شيء في معاشهم ومعادهم ثم لا يبينه الله تعالىٰ لهم.

فالواجب في هذا النوع هو الإيمان بما أحكم منه؛ كحتمية قيام الساعة علىٰ الصفة التي ذكر الله تعالىٰ، وخروج الدجال في الناس وكذلك خروج يأجوج ومأجوج ونزول عيسىٰ في آخر الزمان، ورد ما اشتبه منه إلىٰ علم الله؛ كوقت حدوث كل ذلك، ويكون من الغيب الذي نؤمن به:

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٢٥.

الأسئلة الكبرى

قضىٰ الفلاسفة أعمارهم وأوقاتهم في بحث دؤوب للإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرىٰ:

من الإله؟

ومن أنا؟ ومن أين أتيت؟ وما المصير؟ ولماذا خُلقنا؟

وما يتفرع عنها من سؤالات، مثل: من الموجد لهذه الكائنات؟ وما علاقة الإنسان بها؟

وما تعريف الملائكة والشياطين؟ وكيف بدأت الخليقة؟ وما موقفنا من الغيب؟

وما موقفنا من الدين والسحر والأساطير والعقل...؟ إلىٰ آخر هذه المفردات والمفاهيم، والتي لا يعرف فيها الصواب إلا من استضاء بنور الوحي:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

ألا ترىٰ أنَّ عوام المسلمين وعجائزهم لا يشعرون بحيرة في عقولهم، ولا باضطراب في حياتهم، ولا يجدون قلقًا تجاه مصيرهم! ذلك أنهم لا يعرفون غير القرآن والسنة، فبقيت فطرتهم سوية مستقيمة.

إنما تجد هذه الإشكالات عند من لم يستضئ بنور الوحي من الملحدين، ومن أهل الكتاب الذين حُرفت كتبهم، ومن الوثنيين، ومن اللادينيين والذين هم في الحقيقة يعبدون ذواتهم وأهواءهم، ومن الزائغين الذين يتبعون المتشابه من القرآن ويذرون محكمه.

بل وكذلك من أهل الإسلام الذين يتأثرون بمن ذكرت لك، ممن يقرأ كتبهم ويمعنون النظر فيها، ويستمعون إلىٰ مقالاتهم وشبهاتهم.

وإذا تفهمنا سبب ضلال الفلاسفة وضياع أعمارهم في هذا الباطل، وأنهم أقاموا منهجًا بمنأىٰ عن الوحي الإلهي الذي يجيب عن كل أسئلتهم المطروحة ويشفي صدورهم الحرجة؛ فكيف نتفهم ضلال بعض أهل الإسلام؟ والقرآن المعصوم بين أيديهم، والنور مشرق أمام أعينهم!

وإذا تفهمنا أنَّ عقيدة اليهود والنصارىٰ في الله سبحانه قد حرفت، وأنَّ تفسيرهم لعدد من القضايا الكبرىٰ مكذوب علىٰ الله تعالىٰ وعلىٰ أنبيائه الذين بعثهم في تيك الأقوام؛ فلماذا يتيه بعض أهل الإسلام؟ وكتاب الله لم تنَلْ منه يد التحريف ولم تطَلْه يد العابثين، وحديثُ رسوله ﷺ واضح التمييز، بين ما صح منه وما لم يصح!

لم يكُن هذا سؤالي فحسب أو سؤال عامة المؤمنين، بل إنَّ الله تعالىٰ يبين أنَّ هذا التساؤل جدير بالاهتمام، فيذكره في ثنايا الحديث عن انحرافات القوم:

﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:٨٦].

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١].

لقد وقع التيه في أبناء الإسلام حين اتبعوا الفلاسفة الضُلال وأصحاب المناهج المنحرفة، باسم التنوير والعلم والترجمة والتثاقف والتحضر والتقدم، ولذلك نبه القرآن إلىٰ هذه المسألة، وسمىٰ ما توصلت إليه عقولهم وآراؤهم أهواء، فقال تعالىٰ:

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥].

ذلك، وإنَّ سورتي البقرة وآل عمران -وهما تنزلان في بداية تكوين الأمة المسلمة- راعتا الانفتاح الفكري في المدينة الجديدة «طيبة»، إذ يعيش اليهود في المدينة في ثلاث قبائل، بما يحملونه من العقائد والأطروحات الفكرية التي يستقونها من دينهم المحرف، ومن كذبهم علىٰ الله تعالىٰ وجرأتهم عليه، كما راعتا امتداد نفوذ دولة الروم إلىٰ أطراف الجزيرة العربية والأقاليم المجاورة لها كالشام ومصر والحبشة -التي آوت جزءًا من المهاجرين السابقين- وامتداد نفوذ مملكة الفرس إلىٰ أطراف أخرىٰ كاليمن وأقاليم مجاورة كالعراق، بما تحمله هاتان الدولتان من عقيدة وفكر ونظرية اجتماعية واقتصادية. وذانك إضافة إلىٰ ما لدىٰ مشركي العرب؛ قريش والقبائل الأخرىٰ، من انحراف في الإجابة عن هذه الأسئلة.

وإذا ضربت لك مثالًا؛ فإنَّ مشركي العرب يؤمنون بالملائكة، لكنهم يعتقدون أنهم بنات الله تعالىٰ، واليهود يعتقدون أنَّ عزيرًا ابنُ الله تعالىٰ، ذلك أنَّ الله أماته ثم أحياه، كما في قصة الذي مر علىٰ القرية الخاوية علىٰ عروشها؛ فيفسرون ذلك ألوهيةً في عزير، كما يرون أنَّ آدم إلهٌ مع الله، وفي الجملة فإنَّ اليهود -لعنهم الله- يعتقدون إمكانية تعدد الآلهة، أما النصارىٰ فيعتقدون أنَّ عيسىٰ ابنٌ لله، وأنه مستحقٌّ للعبادة.

ويتفرَّع عن مثل هذه العقائد الفاسدة: اعتقادُ اليهود بأنَّ الله تعالىٰ إلهٌ فيه ضعف وقصور، تعالىٰ الله، فهو كما يزعمون: فقير، ويده مغلولة، وأنه يتعب، وله أولاد.

ولكثرة انحرافاتهم بعث الله فيهم كثيرًا من الأنبياء، ليصححوا لهم ما ابتدعوه من المفاهيم:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧].

فموسىٰ عليه السلام بعثه الله تعالىٰ بالتوراة إلىٰ بني إسرائيل، ثم بعد موته بعث الله تعالىٰ إليهم عددًا من الرسل والأنبياء، ثم بعث عيسىٰ عليه السلام إليهم بعد ذلك.

وكذلك النصارىٰ، يرون في الإله قصورًا وضعفًا، ويشتركان -أي اليهود والنصارىٰ- في إعطاء الإنسان بعض القوة الإلهية، وبعض الصفات الإلهية، وهذا ما يوضح لك اليوم واحدًا من التفسيرات الصالحة لاعتداد الحضارة الغربية بقوة الإنسان: لأنهم في حقيقة الأمر يسبغون عليه شيئًا من صفات الله تعالىٰ، فهو القوي والجبار والمتكبر والجميل والناجح والمتحكم؛ كما يتوهمون.

وعلىٰ أي حال؛ فإنَّ كل الذين يشركون بالله تعالىٰ؛ فإنَّ لديهم تصورًا خاطئًا في مفهوم «الإله»، إذ تشكلت لديهم -علىٰ اختلاف مشاربهم- قناعة بقصور الإله عن العظمة المطلقة والقوة المطلقة والعلم المطلق، ولهذا اشتملت السورتان: البقرة وآل عمران، علىٰ تعريف الله بأنه الحي القيوم، ولا يمكن وصف آلهة بهذا علىٰ الإطلاق.

بل جاءت سورة البقرة بأعظم آية تعرِّف بالله تعالىٰ، وهي أعظم آية في القرآن علىٰ الإطلاق، فقد اكتسبت عظمتها من عظمة المعرَّف به، وهو الله جل شأنه:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

إنَّ الله جل وعلا لا يشبه كل تلك التصورات عن الإله. إنه أعظم من ذلك. فهو إله لا يَعرض له الخطأ ولا النسيان ولا النوم ولا الوفاة ولا الجهل ولا الضعف، ولا غير ذلك من التصورات المنحرفة.

لقد نزلت هاتان السورتان لتعالجا هذه القضايا الكبرىٰ، بلغة سهلة واضحة بينة، وهي صدقٌ وحقٌّ من عند الله، وليست هي من تأويل المبطلين، ولا من اختراع المحرفين، وليست هي من اكتشاف البشر ولا من نتاج عقولهم، بل هي من المحكم الذي لا يقبل التأويل ولا الاشتباه.

وعالجت سورة البقرة تعريف الملائكة وآدم والشيطان؛ تعريفًا مرتبطًا بمفهومَي العبودية والإلهية.

وذكرت أنَّ الله تعالىٰ خلق الملائكة وآدم والشيطان. وأنَّ العلم الموجود عند آدم إنما اكتسبه من تعليم الله له. وأنَّ الملائكة لم تكُن تعلم حكمة الله في خلق آدم. وأنَّ آدم عبدٌ جرىٰ عليه قلم التكليف، بعد أنْ خلقه الله وعلَّمه. وأنه بعد أنْ علمه الله أسجد له الملائكة. ثم أنزله الله من الجنة بعد أنْ وقعت منه معصية جرَّه الشيطان إليها.

وأنَّ الشيطان مطرودٌ من رحمة الله، لأنه أبىٰ واستكبر عن طاعة الله. وأنه يأمر بالسوء والنقائص، ويَعِدُ بالفقر.

وأنَّ الله يدعو إلىٰ الخير ويَعِدُ بالرحمة، إلىٰ آخره.

واليوم تحاول الآلة التربوية الغربية نزع صفة الشر عن الشيطان، وتغرس في نفوس الأجيال الجديدة حبه وتعظيمه من خلال تحسين صورته وتجميلها وإسباغ معاني الخيرية والإحسان إليها، عبر التقنيات الحديثة كالروايات والأعمال السينمائية، وينفقون في سبيل ذلك الأموال الطائلة.

ومن يتأمل سورة البقرة يدرك ضلال من يسوي أحد هذه المخلوقات بالله تعالىٰ، أو يجعل شيئًا منها جزءًا منه سبحانه أو فرعًا له تعالىٰ وتقدَّس.

وعالجت سورة البقرة موضوع بدء الخلق، فذكرت مبدأ السماوات والأرض ومبدأ البشر وخلْق آدم وحواء وتزويجهما، وإسجاد الملائكة لآدم، وقصته في الجنة ونزوله منها إلىٰ الأرض، وبدء حياته فيها، والحكمة من ذلك:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ **قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٣٠-٣٨].

فتخيل أيها الفاضل أنَّ كل عوام المؤمنين وعجائزهم لديهم معلومات كافية وصحيحة، وبسيطة أيضًا عن بدء الخلق!

المسألة لا تحتاج إلىٰ دراسة في جامعة كبرىٰ أو مركز بحثي مرموق، كل ما عليك هو أنْ تفتح المصحف، وتشرع في قراءة سورة البقرة.

وانظر -في هذه الآيات- بيان التفوق الإلهي علىٰ قدرات المخلوقين في القوة والعلم، ولاحظ أنَّ الآية ابتدأت بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، يعني:

واذكر لهم يا محمد إذ قال ربك كذا وكذا مما ورد في الآيات، ليكون لأصحابك علم صحيح بحقيقة الوجود، علمٌ يدفع ما يطرأ على الناس من الأفكار والعقائد التي رسمتها الطوائف الضالة افتراء على الله، واعتداء على الحقائق العلمية.

ولقد عالجت السورة كذلك مسألة المصير؛ مصير الإنسان بعد الموت، وهو الجزاء والحساب والبعث من القبور والإحياء بعد الإماتة:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨].

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١١-١١٢].

وعالجت سورة البقرة كذلك علاقة الإنسان بالكون:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩].

فكل ما في الأرض من أودية وسهول وجبال وأنهار وبحار وحيوانات وطيور ونباتات... إنما هي هبةٌ من الله للإنسان، لينتفع منها، وليستمتع بها، وليستثمر علمه في ترسيخ العبودية لله والسعي في الأرض بما ينفع الناس في دينهم ودنياهم، فعلاقة الإنسان بالكون علاقة انسجام وليست علاقة صدام كما تصور العقائد والأساطير بأن للطبيعة إلهًا يدعى «زيوس» وأنه حرم البشرية مما ينفعها، وكانت له شعلة نار فيها هذا النفع للبشرية، فكانت البشرية في إثر ذلك تعيش حالة بدائية رديئة، لأنها محرومة من هذه الشعلة، وأنَّ «بروميثيوس» أنقذ البشرية بتمرده على «زيوس»،

ثم بسرقته لشعلة النار تلك من جبال «أولموبس»[1]، ونزل بها إلىٰ البشر فأعطاهم إياها، فاستدفؤوا بها وطهوا بها طعامهم وأفادوا منها في أعمالهم ومصالحهم[2].

والأسطورة ترمز بـ«زيوس» إلىٰ أنه الآلهة الكبرىٰ المسيطرة علىٰ الطبيعة والمخلوقات، وترمز بـ«النار» إلىٰ نور العلم والمعرفة الذي تمكن «زيوس» به من السيطرة علىٰ الطبيعة والإفادة منها، وأنَّ البشر حصلوا علىٰ العلم -الذي به تُطوَّع الطبيعة- من خلال الصراع مع الآلهة العظمىٰ التي لا تريد للبشرية أنْ يتعلموا ولا أنْ تتحسن أحوالهم، فانتصرت آلهة العلم «بروميثيوس» علىٰ آلهة الطبيعة «زيوس»، فأنتجت الحضارات، وأنتجت هذه الحضارة الموجودة اليوم.

ومن ثَمَّ فإنَّ علىٰ الإنسان المتحضر اليوم -هكذا توحي هذه الأساطير- أنْ يعبد إله العلم والعقل كما زعموا، وأنْ يكفر بإله الطبيعة ويحاربه! يقصدون خالقها سبحانه.

وفي حقيقة الأمر هي تعبير عن تقديس العقل والمعارف والإنسان الذي يمتلكها، ورفض الدين والكفر برب العالمين.

وهذا ما يفسر تقديسهم العلوم الدنيوية، لأنها تقهر الطبيعة كما يقولون، وما الدمار الذي يلحق بالأرض التي تطؤُها أقدامهم إلا واحد من إفرازات هذه الفكرة الملعونة، سواء دخلوها حربًا أو سلمًا.

وسورة البقرة عالجت مسألة العلوم الغيبية، وحسمت موضوعها من البداية، ونصَّت علىٰ أنَّ الإيمان بالغيب شرطٌ في نجاة العبد وفلاحه:

---

(١) مراسم افتتاح الألعاب الأولومبية هي مراسم دينية شعائرية يونانية تشمل: المرتفع «أولومبوس» و«شعلة النار» المقدسة المأخوذة منه والشخص الذي يأتي بها «بروميثيوس» والحفل المصاحب والمكان المهيأ للحفل «الملعب».

(٢) انظر: أساطير إغريقية ٣/ ٨٤.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٢-٣].

وشرط ذلك أنْ تكون معلومات الغيبِ منصوصًا عليها في الوحي السماوي؛ القرآن، وما صحَّ من السنة، وفي المقابل أخرجت مسألة السحر من دائرة العلم النافع المقبول:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠١].

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢].

وبهذه الإيجازات، والتي هي مفصلة بينة عند من نزلت بين ظهرانيهم سورة البقرة، تكوَّن لدىٰ المؤمنين -في وجود سوقٍ للأفكار والعقائد- رصيد علمي فكري قطعي الثبوت عن مسائل طال الجدل فيها بين الأمم والحضارات.

وفي قطعة نفيسة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وأما المتأخرون [يقصد: متأخري الفلاسفة] فهم لما ظهرت الملة الحنيفية الإبراهيمية التوحيدية، تارةً بنبوة عيسىٰ لما ظهرت النصارىٰ علىٰ مملكة الصابئين بأرض الشام ومصر والروم وغيرها، ثم بنبوة خاتم المرسلين، وأظهر الله من نور النبوة شمسًا طمست ضوء الكواكب، وعاش السلف فيها برهة طويلة، ثم خفي بعض نور النبوة؛ فعرَّب بعضَ كتب الأعاجم الفلاسفةُ من الروم والفرس والهند في أثناء الدولة العباسية، ثم طُلبت كتبهم في دولة المأمون من بلاد الروم، فعربت ودرسها الناس، وظهر بسبب ذلك من البدع ما ظهر، وكان أكثر ما ظهر من علومهم:

الرياضية كالحساب والهيئة أو الطبيعة كالطب أو المنطقية، فأما الإلهية فكلامهم فيها نزر، وهو مع نزره ليس غالبه عندهم يقينًا.

وعند المسلمين من العلوم الإلهية الموروثة عن خاتم المرسلين ما ملأ العالم نورًا وهدىٰ، بل متكلموهم الذين ينسبون إلىٰ البدع عندهم من العلم الإلهي بمقاييسهم المستخرجة أضعاف أضعاف ما عند حذاق المتفلسفة)[١].

فيا رب لك الحمد علىٰ هداياتك التي تفوقنا بها علىٰ الفلاسفة والحكماء.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ٨٤.

الفصل الثاني

الأمة وتاريخية الأديان

العهد القديم

يرىٰ بعض المؤرخين[١] أنَّ منشأ وجود اليهود في الحجاز هو هجرتهم من الشام في أعقاب ثورات أحدثوها ضد الروم في القرنين الأولين الميلاديين، ذلك أنَّ الروم استولوا علىٰ الشام ومصر في القرن الأول قبل الميلاد.

والروم -كما علمتَ- كانوا حينها وثنيين يعبدون الأصنام ويؤلهون الأباطرة. واليهود أهل كتاب.

فهاجرت قبائل يهودية إلىٰ الحجاز ويثرب، وكان اختيار هذه المنطقة ناتجًا عن عدد من الاعتبارات:

- بُعد الحجاز عن سيطرة الروم، بل بعد الجزيرة العربية عن سيطرة الدول الكبرىٰ حينها، ما يتيح لهذه القبائل اليهودية أنْ تحافظ علىٰ كيانها بعيدًا عن الأخطار التي تهدد وجودهم.
- يعلم اليهود -وفقًا لما في كتبهم من البشارات- أنَّ نبيًّا بعد عيسىٰ يبعث في أرض الحجاز في آخر الزمان، ويكون خاتم النبيين، فرجوا أنْ يكون منهم.
- موقع يثرب التجاري المتفوق، حيث تقع في طريق القوافل التجارية في غرب الجزيرة العربية، فأي قافلة تُسيَّر إلىٰ شمال الجزيرة العربية أو إلىٰ جنوبها فالطريق إليها يمرُّ بجوار يثرب، إضافة إلىٰ الطريق البحرية القريبة منها.

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري ١/ ٢٢٧ وما بعدها، ودراسة في السيرة النبوية لعماد الدين خليل ص٣٢١ وما بعدها.

- أرض يثرب الصالحة للزراعة؛ حيث خصوبة الأرض ووفرة المياه، الأمر الذي استثمرته قبائل اليهود النازحة، فحولوا هذه الأرض إلىٰ بساتين نخل وحبوب وغير ذلك، واهتموا بتربية الدواجن والماشية، وبرزت صناعة النسيج والأواني المنزلية وغير ذلك من الأدوات اللازمة للمجتمع الزراعي أو الناتجة عن طبيعة العمل الزراعي.
- أرض يثرب واحة خضراء تحتضنها عدد من الجبال والحرات، أي أنها أرض حصينة إلىٰ حدٍّ كبير، وهذا الموقع يسهم طبيعيًّا في الدفاع عن يثرب إذا حلَّ عليها هجوم عسكري من أي عدوٍّ خارجي.

وعلىٰ أي حال؛ فقد هاجرت عدد من البطون والقبائل اليهودية من الشام إلىٰ أرض الحجاز، وإلىٰ يثرب خاصة، وكما أثروا في العرب فقد تأثروا أيضًا بهم، ومن ذلك نقلهم للخبرة الزراعية والاقتصادية إلىٰ الحجاز، واكتسابهم الكرم والشعر والتدرب علىٰ السلاح منها.

ويبلغ عدد البطون النازحة إلىٰ الحجاز قرابة العشرين، أهمها: بنو قريظة وبنو قينقاع وبنو النضير في يثرب، ويهود خيبر شمالًا.

وإسرائيل اسم القبيلة، واليهود اسم الديانة، والخطاب في سورة البقرة جاء لبني إسرائيل لأنَّ اليهود من غير هذه القبيلة يعدُّون تبعًا لهم[1].

وإذا سلطنا قليلًا من الضوء علىٰ السبب الثاني من أسباب هجرتهم؛ فإننا سنجد أنَّ اليهود في زمن مبعث النبي ﷺ كانوا شديدي العناية بقضية المبعث الأخير والنبوة الخاتمة، وكانوا يتحدثون به بين العرب في مجالسهم ومدارسهم ودورهم وأسواقهم، وكانوا يذكرون صفته ودعوته، وكانوا يرون قرب موعد خروجه، وكانوا

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٤٩.

يتباهون بذلك علىٰ العرب، إذ يرون أنَّ هذا النبي سيكون منهم وأنهم أولىٰ الناس به، وأنهم ينتصرون به ويغلبون علىٰ من سواهم، وهذا يتوافق مع جهودهم في السيطرة علىٰ الناس بالمال والسلاح.

وفي تلك الأثناء.. أشرقت شمس الرسول محمد ﷺ القرشي المكي العربي. وبُعث محمد ﷺ النبي الأمي. وخابت ظنون اليهود.

ومن تدبير الله تعالىٰ لنبيه ﷺ ولهذه الأمة الجديدة أنَّ تلك الأحاديث والدعايات التي بثتها اليهود صنعت مناخًا صالحًا لاستقبال هذا النبي الجديد عند العرب.

لكنهم، ومنذ تلك اللحظة، ناصبوا رسول الله ﷺ العداء، بل جعلوه الرقم الأول في قائمة الخصوم، ودسوا عليه المؤامرات والدسائس، وألَّبوا عليه القبائل، وحرضوا قريشًا علىٰ رفض دعوته.

وفي واقع الأمر لم يكُن سلوكهم هذا جديدًا عليهم، فقد فعلوا مثل ذلك مع أنبيائهم، وحاربوهم، وحاربوا عيسىٰ بن مريم ووشوا به إلىٰ ملوك الروم، والله تعالىٰ أخبرنا عن هذه العادة الشنيعة في سورة البقرة:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة:٨٧].

ولسنا بصدد التأريخ لليهود..

وإنما هي مقدمة قد يحتاج إليها القارئ في فهم التناول القرآني لموضوعهم، وإلا فإنَّ النبي ﷺ أول ما هاجر إلىٰ يثرب «المدينة» أقام معهم علاقة ذات طابع سلمي تقوم علىٰ الحقوق والواجبات؛ وذلك قبل أنْ يجاهروا بالعداء، وسلك معهم سبيل الدعوة إلىٰ الإسلام قبل أنْ ينقضوا العهد والميثاق.

وكذلك فعل القرآن..

فنزلت سورة البقرة وفيها عشرات الآيات، تخاطب اليهود وتدعوهم إلىٰ الإيمان بالقرآن «الكتاب الجديد» وبمن أُرسل به، وهو محمد ﷺ، وتخاطبهم باسم بني إسرائيل تذكيرًا بالتاريخ والأصول:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٠-٤٣].

فالله تعالىٰ يأمرهم بأنْ يوفوا بالعهد الذي عهده إليهم في التوراة وسائر الكتب التي أنزلت عليهم بعدها: الزبور وكتاب أشعياء وأرمياء وحزقيال ودانيال وغيرها.

وهذا العهد هو الإيمان بالنبي العربي الأمي: محمد ﷺ، وما جاء به من القرآن والشرائع، قال ابن كثير: (بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم)[1]، وذلك أنَّ جميع الكتب المنزلة علىٰ بني إسرائيل ذكرت صفة محمد ﷺ ومبعثه، وألزمت اليهود الإيمانَ به، ونُصرته إذا بعث بين ظهرانيهم؛ هذا هو العهد.

فواعجبًا للنبي محمد ﷺ، يسري خبره عبر القرون والأمم!

والله سبحانه يقفهم علىٰ مسألة محورية في هذه الدعوة الصريحة إلىٰ الإيمان بالقرآن، وهي أنَّ القرآن نزل مصدقًا لما جاءت به هذه الكتب، ومقررًا للمحكم منها ومثبتًا لأصول شرائعهم، لا سيما المحكمات: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا﴾.

ثم الله تعالىٰ ينهاهم عن الكفر برسالة محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾، لأنَّ موقفهم من الرسالة الجديدة محل نظر قبائل العرب وشعوب العالم؛ فهم أهل

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٥.

الكتاب وأهل المعرفة بمبعث النبي الجديد[1]، ولأنَّ يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم[2].

وإذا كان الخطاب موجَّهًا إلىٰ بني إسرائيل؛ فإنَّ أحبار اليهود وعلماءهم في مقدمة المخاطبين بهذه الآيات[3]، ذلك أنهم هم القدوة والمنظرون وأهل الفكر والمعرفة والعلم، وقد قال النبي ﷺ: (لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود كلهم)[4]، ولذلك حذَّرهم الله من أنْ يكونوا عائقًا عن الإيمان أو عقبة في طريق الناس إليه: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

وهنا عقدة لم يستطِع أحبار اليهود أنْ يتخلصوا منها!

إنَّ إيمانهم بمحمد ﷺ وبشريعته الجديدة المهيمنة تعني تخليهم عن بعض المكاسب الدنيوية التي حازوها بفضل رياستهم الدينية، فإنهم كانوا أهل رأي وزعامة، وكانوا كذلك يتكسبون المال من جراء هذه الرياسة الدينية بشكل أو بآخر.

وحقًّا.. فإنَّ من أعظم الابتلاء الذي يبتلىٰ به أهل العلم والمعرفة ومن صنع منهم العلم رموزًا وقدوات ومقدَّمين في مجتمعاتهم هو الثبات علىٰ حقيقة الإيمان؛ وإنْ كان ذلك علىٰ حساب ضياع مستقبلهم الاجتماعي المرموق، أو علىٰ حساب خسارتهم المالية الناتجة عن إقصائهم، أو علىٰ حساب تشويه اسمهم الذي طالما كان يعلو قوائم المديح والإطراء، أو علىٰ حساب تسليط الإعلام الضوء علىٰ ما يسقط قيمتهم العلمية والدينية والاجتماعية.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز ١/ ٣٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٧.

(٣) جامع البيان ١/ ٦٠١

(٤) أخرجه البخاري ٤/ ٤٠٠، ح٣٩٣٣.

ابتلاء الإيمان ليس بالسياط الكافرة فحسب! بل هناك أوجه أخرىٰ للابتلاء.

أما ابتلاء أحبار اليهود فهو في أنَّ إيمانهم بالنبي محمد ﷺ يلزم منه النزول عن ما وصلوا إليه من رياسة دينية في أقوامهم، وما يلحق بهذه الرياسة من الاستيلاء علىٰ المال والمناصب وصنع القرار ونحو ذلك مما يُمتحن فيه الناس علىٰ إيمانهم بتركه لله تعالىٰ، من قديم الزمان وإلىٰ اليوم.

لذلك تشربت نفوسهم حينئذ الكفر برسالة الإسلام، واتجهت عقولهم نحو تضليل أفكار الناس تجاهها وتسميم عقولهم بالكفر بها.

وبدأ مشروع بث الشُّبَه! المشروع الذي يتقنه اليهود منذ القدم.

هنا نهاهم الله تعالىٰ عن تضليل الناس؛ عن لبس الحق بالباطل، وذلك بإظهار الباطل في صورة الحق، وتزيينه ليروج بين الناس، ولتقبله العقول الفارغة والمعتمة، أو ربما عمدوا إلىٰ الإقرار بجزء من الحق وإنكار جزء آخر منه بغية نقض الأول، كمن يقول منهم: نحن لا ننكر رسالة محمد، فهو النبي الذي أرسله الله إلىٰ العرب؛ ولم يرسله إلينا! فيؤمن برسالته ويجحد عمومها.

وأنت تلاحظ في هذا الوصف؛ أعني لبس الحق بالباطل، صورة مجسدة، فاللبس هو الخلط كما يقول الطبري(١)، أي لا تخلطوا الحق بالباطل، وبهذا المعنىٰ فإنَّ المقابل قد يروج عليه الباطل لما يرىٰ فيه من حق! فيتبع الباطل لوجود الحق.

وهذه دعوة إلىٰ التيقظ المعرفي، وعدم الاغترار بالدعايات، ووجوب فحصها ونقدها وتمييز عناصرها ومكوناتها، وألا يغرك وجود حقٍّ ما عن رد الباطل المتلبس به.

---

(١) جامع البيان ١/ ٦٠٥.

وهذا المعنىٰ الذي ذكره الطبري لا يختلف عن المعنىٰ الذي ذكره الزجاج[1]، وهو التعمية، فإنَّ اللباس يخفي ما تحته، وهذا ما يحدث في لبس الحق بالباطل، فإنك لا تتبين حقيقة الأمر إلا بالفحص والاجتهاد والتفريق بين الاثنين.

هكذا تروج الأباطيل.

واليهود لا تعوزهم الحيل ولا خلق الأباطيل ولا صناعة المُضلِّلات، فهم أهلها ودهاقنتها، وهم أربابها منذ القدم، وإنَّ الكذب -الذي هو سمة عامة فيهم- لمن أشنع الأخلاق التي نبذها الإسلام؛ كما تعلم، لما له من تأثير في إفساد الدين وحياة الناس، قال ابن عاشور: (وهذا اللبس هو مبدأ التضليل والإلحاد في الأمور المشهورة، وأكثر أنواع الضلال الذي أُدخل في الإسلام هو من قبيل لبس الحق بالباطل)[2].

وأحبار اليهود بسلوكهم هذا المسلك الفاسد -عافاك الله- انقلبوا علىٰ التوراة. وارتدوا عن الإيمان الواجب عليهم.

وانتقلوا من مربع القيادة الدينية إلىٰ مربع الصدِّ عن دين الله!

إنه سوء المنقلب، والحور بعد الكور، والضلالة بعد الهدىٰ.. عائذين بالله.

ولقد وبخهم المولىٰ سبحانه:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣].

.

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٢٤.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٤٧١.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

ثم إنَّ الله تعالىٰ ذكَّرهم بنعمته عليهم في الحوادث الكبرىٰ والأيام العظيمة المذكورة في كتبهم والمعروفة في تاريخهم، ذكرهم بها لعدد من الأغراض والحكم، منها:

أولًا- ليكون حافزًا لليهود المجاورين للنبي محمد ﷺ ومشجعًا لهم علىٰ الإيمان برسالته، وأنْ يهتبلوا الفرصة في شكر النعمة بأنْ جعل الرسول بين ظهرانيهم، وقد جاء بما يصدق ما معهم من التوراة، ويزجرهم عن كفر هذه النعمة فيلحقهم العذاب كما لحق بأسلافهم ممن أسديت إليهم النعم فلم يرعوها حق رعايتها فسلط الله عليهم أنواع عذابه.

ثانيًا- ليحذر أهل الإيمان في أمة محمد ﷺ من سلوك أهل الكتاب في تعنتهم وكفرهم بأنبيائهم وتلبيسهم وتضليلهم وسائر أخلاقهم وأحوالهم التي أنكرها الله تعالىٰ عليهم، وهذا مقتضىٰ الإجابة عن ماهية طريق اليهود الوارد في سورة الفاتحة:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

ثالثًا- لتعليم المسلمين أخبار بني إسرائيل وأيامهم العظيمة، فيأخذوا منها الدروس والعظات والعبر، وبها يصبح المسلمون عارفين بأحوال بني إسرائيل، عالمين بتاريخهم وأيامهم؛ وهذا ما لم يدركه عموم أهل الكتاب، لأنَّ أحبارهم كانوا يخفون كثيرًا من ذلك أو يدسون الكذب فيه. فأنت تجد المسلم القارئ للقرآن لديه من علم أهل الكتاب وتاريخهم وشرائعهم ما يتفوق في معرفته علىٰ أهل الكتاب أنفسهم؛ إذا استثنينا أحبارهم.

وفي هذا مزيد فضيلة للمسلمين، من الناحية العلمية والمعرفية بالأمم وأحوالها وتاريخها، وانظر مصداقًا لذلك ما نقله أهل التفسير عن الصحابة والتابعين فيما يتعلق بأخبار بني إسرائيل وأنبيائهم وكبرائهم وقصصهم وكتبهم.

ولهذا لما وجد الصحابة جثمان (دانيال) في فتحهم (تستر) عرفوه، بل روي عن أبي موسىٰ الأشعري أنه التزمه وعانقه وقبله، أما الخليفة عمر فقد أمر بغسله ودفنه وتعمية قبره حتىٰ لا ينبش أو يكون مزارًا، وحملوا كتابه الذي وجدوه معه إلىٰ الخليفة[١].

لقد جعل القرآن من المسلمين أهل علم ومعرفة.

ومن تلك الأخبار العظيمة والوقائع الكبرىٰ وهو أهمها علىٰ الإطلاق: يوم العاشر من شهر الله المحرم. يوم نجاة بني إسرائيل من بطش فرعون وجنوده.

وذلك بعد أنْ قام موسىٰ عليه السلام بتحرير بني إسرائيل من سياط العبودية التي كان يجلدهم بها فرعون وقومه في مصر.

والذي حدث في هذا اليوم أنَّ الله سبحانه فلق البحر لموسىٰ وقومه، ليعبروه فرارًا من جيش فرعون الذي حاصرهم هناك، فيجتازه كل بني إسرائيل، ثم ينطبق علىٰ فرعون وجنوده وجيشه، فتنهزم تلك القوة الطاغية.

بل ويموت الطاغية. الطاغية الذي طالما طرق مسامع الناس عنه أنه ربهم الأعلىٰ! وينتصر المستضعفون المستعبَدون من بني إسرائيل، ثم تبدأ رحلتهم إلىٰ الأرض المقدسة التي كتب الله لهم:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٤٩-٥٠].

---

(١) البداية والنهاية ٢/ ٢٠٧.

كان يومًا تاريخيًّا عظيمًا مشهودًا، صامه بنو إسرائيل، وصامه محمد ﷺ شكرًا لله تعالىٰ علىٰ نجاة تلك الأمة التي فضلها الله تعالىٰ علىٰ غيرها من الأمم إذ ذاك.

ومن تلك الأيام التاريخية يوم المقتلة العظيمة التي جعلها الله تعالىٰ توبة لبني إسرائيل، ذلك أنَّ موسىٰ غاب عنهم أربعين يومًا استجابة لمواعدة الله تعالىٰ له، فأحدث بنو إسرائيل في تلك الأيام القليلة عبادةَ العجل، فعفا الله عنهم مع شناعة فعلهم؛ إذ كيف يصنعون صنمًا ويعبدونه من دون الله، وهم الذين رأوا -قبل قليل- قدرة الله في إنجائهم من فرعون؟!

كيف لنفوسٍ عاينت أحداث العاشر من المحرم أنْ تشك -ولو للحظة- في قوة الله وكونه المستحق للعبادة؟!

كيف لهذه العقول أنْ تؤمن بصنم يصنعه الناس بأيديهم، وهم للتو خرجوا من لجة البحر بمعجزة إلهية، سالمين منتصرين؟!

هل يحتاج الذين رأوا البحر ينفلق أمام أعينهم، ورأوه وهو يعود إلىٰ حالته الأصلية، ورأوا الملك العظيم يغرق فيه بجنوده وقوته.. هل يحتاجون إلىٰ صنم جامد يستجيب دعاءهم ويكشف حاجاتهم؟

إنها النفوس الخبيثة الملتوية.. نفوس اليهود.

فجاء عفو الله تعالىٰ مشروطًا بالاستجابة لأمره. وقد كان أمره -عقوبة لهم- في قتل بعضهم بعضًا:

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟

إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٥١-٥٤].

قال قتادة: (أُمر القوم بشديدٍ من الأمر، فقاموا يتناجزون بالشِّفار؛ يقتل بعضهم بعضًا، حتىٰ بلغ الله فيهم نقمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأُمسك عنهم القتل، فجُعل لحيهم توبة، وللمقتول شهادة)[1].

ومن تلك الأيام التاريخية أيضًا يوم الصعقة. والصعقة: صيحة عظيمة نزلت من السماء، صعقت السبعين رجلًا من بني إسرائيل، السبعين الذين اختارهم موسىٰ لميقات ربه، حيث طلبوا من موسىٰ أنْ يروا الله تعالىٰ عيانًا -وهو طلب محال أنْ يتم في الدنيا- فدلَّ ذلك علىٰ تعنتهم، فماتوا جميعًا.

ماتوا وهم ينظرون إلىٰ أنفسهم وهم يموتون! ثم بعثوا جميعًا وهم ينظرون إلىٰ بعضهم وهم يحيون!

وحقًّا.. لقد كان يومًا عظيمًا ومنظرًا مهيبًا:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

ومن تلك الأيام التاريخية أيضًا يوم الفتح العظيم.. فتح المدينة المقدسة.

حين خرجوا من التيه الأربعيني، وفتحوا بيت المقدس (إيلياء)، وكان ذلك عشية الجمعة، بقيادة نبيهم يوشع بن نون عليه السلام.

لم يكُن موسىٰ عليه السلام حيًّا حينها، فقد مات في زمن التيه والله المستعان.

وكان من عظمة ذلك اليوم أنَّ يوشع بن نون (قال للشمس: إنك مأمورة، وأنا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٩٥.

مأمور، اللهم احبسها علينا؛ فَحُبِسَتْ حتىٰ فتح الله عليه)[1]، أي أنَّ الشمس وقفت عن الحركة قبل الغروب، حتىٰ أتم الله نصرهم علىٰ عدوهم، فأمرهم الله أنْ يدخلوا باب المدينة خاضعين راكعين مستغفرين قائلين: حطة. وهي صيغة استغفار أُمروا بها.

لكنهم -تعنتًا واستكبارًا واستهزاءً- دخلوا باب المدينة يزحفون، قائلين: حبة في شعيرة، أو غيرها من الكلام الساخر.

فعاقبهم الله علىٰ ذلك بأنْ أنزل عليهم الطاعون فأهلك كثيرًا منهم[2]:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٨-٥٩].

ومن أخبارهم الجليلة أنهم حين كانوا في التيه، في الصحراء التي لا ماء فيها؛ أنبع الله تعالىٰ لهم الماء من الحجر.

هذا الحجر كانوا ينقلونه معهم حيث انتقلوا، ولم يكن ثابتًا في الأرض أو في مكان واحد، وحيث حلوا في مكان ما يضرب موسىٰ عليه السلام علىٰ هذا الحجر بعصاه، فتنفجر منه اثنتا عشرة عينًا، فيخرج منه الماء الزلال، فيسقون ويشربون وتشرب دوابهم ويدخرون كفايتهم، فإذا اكتفوا من الماء توقف النبع:

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠].

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٥٤٢، ح٣١٣٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٤١١-٤١٧.

ومن أخبارهم أيضًا أنَّ الله تعالىٰ رفع الجبل فوقهم في السماء، فرأوه فوقهم كأنه الظلة!

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة:٦٣-٦٤].

قال ابن عطية: (وقَصص هذه الآية أنَّ موسىٰ لما جاء إلىٰ بني إسرائيل من عند الله تعالىٰ بالألواح فيها التوراة، قال لهم: خذوها والتزموها. فقالوا: لا، إلا أنْ يكلمنا الله بها كما كلمك، فصُعقوا، ثم أُحيوا، فقال لهم: خذوها. فقالوا: لا، فأمر الله تعالىٰ الملائكة فاقتلعت جبلًا من جبال فلسطين، طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجُعل عليهم مثل الظلة، وأخرج الله تعالىٰ البحر من ورائهم، وأضرم نارًا بين أيديهم، فأحاط بهم غضبه، وقيل لهم: خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها، وإلا سقط عليكم الجبل، وغرقكم البحر وأحرقتكم النار، فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق)[١].

ومن أخبارهم أيضًا حادثة السبت المشهورة، في البلدة الساحلية (أيلة)، حيث ابتلي أهل هذه البلدة بتحريم الصيد يوم السبت وليلته؛ إذ لا يأتي السمك نحوهم إلا في ذلك اليوم، فاحتالوا علىٰ صيده، بأنْ ينصبوا شباكهم قبل السبت، فيدخل السمك فيها يوم السبت، فيأخذوه يوم الأحد، فعاقبهم الله تعالىٰ بأن مسخهم قردة، فتحول الذين مارسوا هذا الخداع، والذين رضوا به وسكتوا عنه كذلك، ثم ماتوا دون أنْ يكون لهم نسل من هذا المسخ:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٦٥-٦٦].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٣٥.

ومن أخبارهم أيضًا حادثة البقرة المشهورة، والتي أحيا الله بها المقتول ظلمًا، فقام وأخبر عن قاتله، بعد أنْ تعنت القوم في تعيين البقرة التي أمر الله تعالىٰ بذبحها:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٦٧-٧٣].

لقد كانت تلك الأخبار وهاتيك الأيام حافزًا للتوبة إلىٰ الله والإيمان برسله والتمسك بشريعته والتصديق بكتابه.

لكن بني إسرائيل في كل مرة ينقضون العهد، ويكذبون ويبهتون، ويخالفون ويحتالون.

في كل مرة يعطيهم الله تعالىٰ الفرصة لسلوك الصراط المستقيم، لكنهم يتأبون عليه، فيختطون خطوطًا ملتوية لا تصل بهم إلا إلىٰ دروب الكفر والشقاق.

وقد قص الله تعالىٰ أخبارهم وأيامهم، وخاطبهم ووعظهم وزجرهم، حتىٰ أعذر إليهم.

لقد كانت رسالة سورة البقرة إلىٰ أمة محمد أنْ: لا تكونوا مثل أهل الكتاب. لا تكونوا مثل بني إسرائيل. إنَّ مسالك بني إسرائيل، الذين كانوا يباهون بموقعهم

الديني ليست من الصراط المستقيم. وإنَّ غضب الله عليهم بسبب تلك المسالك سيصيب كل من يسلكها؛ منهم أو من غيرهم من الأمم. وإنكم أمة مختلفة عنهم، أو هكذا ينبغي، وإنَّ عليكم واجب التصديق والنصرة والطاعة لله ولرسوله ﷺ. وإنَّ عليكم التصدي لكل محاولاتهم في الصد عن دينكم، والتيقظ لهذا الأمر. وإنَّ تزكية النفس ومجاهدتها وأطرها علىٰ الاستقامة والطاعة، وتعويدها العبودية التامة لأمر الله، عاصم من أخلاق اليهود ومسلكياتهم التي استوجبوا بها غضب الله تعالىٰ عليهم.

العقيدة البيزنطية

التسامح الديني مع النصارىٰ كان واحدًا من الإصلاحات الاستراتيجية التي تبناها الإمبراطور الرومي «قسطنطين الأول» في القرن الرابع الميلادي في سبيل تثبيت سيادة الدولة الرومية وتجديد قوتها، بعد أنْ كان النصارىٰ مضطهدين ومطاردين من قِبل الرومان لاختلاف العقيدة المؤدي إلىٰ إقصائهم واتهامهم بشتىٰ التهم.

وإذا استطردنا قليلًا فإنَّ من التهم المتكررة عبر التاريخ والتي طالت كذلك النصارىٰ في الممالك الرومية: انعدام الولاء للدولة!

والحقيقة أنَّ كل ما في الأمر أنَّ النصارىٰ إذ ذاك لم يكونوا يركعون للأباطرة ولا يعظمونهم تعظيم العبادة خلافًا للسائد في عقائد الوثنيين من تأليه الحكام والأباطرة.

ثم إنهم انتشرت دعاتهم بين الناس تدعوهم إلىٰ الدين.

ولم يكُن في برنامجهم الدعوي شيء من التمرد علىٰ الدولة أو حمل السلاح عليها، ونحن نقرأ في كتاب الله تعالىٰ تعريفًا بدعوة عيسىٰ عليه السلام التي جاءت بتأكيد ما جاء في التوراة مع تغيير قليل في الشرائع ترفقًا بالناس. لكن هكذا ينظر أباطرة الروم إلىٰ هذه الدعوة الشابة. كما كان ينظر فرعون من قبل إلىٰ دعوة موسىٰ!

ولعلك فهمت كيف ينظر الطغاة إلىٰ دعوة الرسل: نظرة توجس وارتياب، وخوف علىٰ كرسي السلطنة وخزينة المال ووثن الحاكم وهراوة الجند؛ وخوف كذلك من توجيه الشعوب إلىٰ عبادة الله وحده، ونزع ما سواه من القلب، فإنَّ القلب

لا ينبغي له أنْ يتسع لمعبود آخر غير الله.

وقد كان الروم -من قبل- يحيكون للنصارىٰ الدسائس والمؤامرات للإيقاع بهم، ومن ذلك ما فعله «نيرون» إذ اتهمهم بالضلوع في حريق روما الكبير عام ٦٤ ميلادي[١].

وقد كانت فكرة توحيد الأديان في الإمبراطورية الرومية تظهر للنقاش مرة بعد أخرىٰ، ذلك أنَّ النصرانية الأولىٰ - وهي دين الإسلام الحق - كان لها قوة في التأثير في الناس وسرعة في انتشارها، فزاحمت بصفائها وموافقتها للفطرة الديانات الوثنية التي يعبد الناس فيها الأباطرة والحكام والمخلوقات المتنوعة كالشمس والكواكب، والسحرة والكهان. فرأت الإمبراطورية صهر الناس في دين واحد يقبله الجميع، وهو تأليه الدولة والطاعة المطلقة لها، وتعظيم كبرائها وساستها، وإلغاء الأديان الأخرىٰ التي من شأنها توليد الصراعات، وذلك يكون بشعارات مقترحة تسهل علىٰ الناس قبول الفكرة.

وفي أواخر القرن الثالث الميلادي قام «أوليان» بدوره في تثبيت أركان الدولة الرومية، وأُعيدت فكرة توحيد الأديان مرة أخرىٰ، (وكان يعزو بعض ما تعانيه روما من الفوضىٰ الأخلاقية والسياسية إلىٰ تعدد الأديان والمذاهب فيها، ويسعىٰ لأنْ يوحِّد الأديان القديمة والجديدة، ويوجهها إلىٰ عبادة إلهٍ واحد؛ هو إله الشمس، والإمبراطور نائبه في الأرض)[٢].

أما الإمبراطور «دقلديانوس» الذي حكم في مطلع القرن الرابع الميلادي؛ فقد كان متسامحًا، يغض الطرف عن انتشار المسيحية، مفضلًا السلم، لكن قائده المخلص «جاليريوس» كان كثيرًا ما يحثه علىٰ وقف انتشارهم ومنع نشاطهم،

(١) انظر: قصة الحضارة ١٠/ ١٣٥-١٣٧.

(٢) قصة الحضارة ١١/ ٣٥٧.

و(كان يرىٰ أنَّ المسيحية هي آخر العقبات القائمة في سبيل السلطة المطلقة، فأخذ يحرض رئيسه علىٰ أنْ يجعل العودة إلىٰ العهود الرومية السابقة عودة كاملة، وذلك بإرجاع الآلهة الرومية إلىٰ منزلتها القديمة.

وتردد «دقلديانوس» في الأخذ بهذه المشورة، لأنه كان عازفًا عن ركوب أخطار لا موجب لها، ولأنه كان أكثر من «جاليريوس» تقديرًا لثقل العبء.

ولم يترك «جاليريوس» فرصة إلا انتهزها للقول بأنَّ الوحدة الدينية ضرورية لتدعيم الملكية الجديدة، وما زال يلح علىٰ «دقلديانوس» حتىٰ خضع له في آخر الأمر، فأمر الحكام الأربعة تحت سلطته في عام ٣٠٣ أنْ تُهدم كل الكنائس المسيحية، وأنْ تحرق الكتب المسيحية، وتُحل المجتمعات المسيحية وتصادر أملاكها، ويُحرم المسيحيون من جميع المناصب العامة، ويعاقب بالإعدام مَن يُضبط منهم في أي اجتماع ديني.

وبدأت كتيبة من الجند هذا الاضطهاد بإحراق كنيسة «نقوميديا» وتدميرها عن آخرها.

وكان المسيحيون وقتئذ من الكثرة بحيث يستطيعون رد العدوان بمثله، فقامت حركة ثورية في سوريا، وأضرم بعضهم النار مرتين في قصر «دقلديانوس» بنقوميديا، واتهم «جاليريوس» المسيحيين بجريمة الحرق عمدًا، واتهموه هم بالتهمة نفسها، وقبض علىٰ مئات من المسيحيين وعذبوا، ولكن الجريمة لم تثبت علىٰ أحد، وأصدر «دقلديانوس» أمرًا بأنْ يطلق سراح المسجونين من المسيحيين الذين يعبدون الآلهة الرومية، أما من يرفض ذلك منهم فلتُسلَّط عليه جميع أنواع العذاب التي تعرفها روما.

فلما قاوم المسيحيون هذه الأوامر بازدراء استشاط غضبًا من هذه المقاومة، وأمر جميع كبار الحكام في الولايات بأنْ يبحثوا عن كل مسيحي، وأنْ يستخدموا معه كل وسيلة مستطاعة لإرغامه علىٰ استرضاء الآلهة.

ومع تعاقب الحكام فقد دام الاضطهاد ثمانية أعوام، وهلك بسببه نحو ألف وخمسمئة من المسيحيين، بعضهم من أتباع الدين القويم، وبعضهم من الملاحدة، وقاسىٰ عدد آخر يخطئه الحصر ألوانًا مختلفة من العذاب.

وارتد آلاف من المسيحيين عن دينهم.

ولكن معظم من نالهم الاضطهاد ثبتوا علىٰ دينهم؛ وكان منظر استبسالهم في الإخلاص لدينهم، أو كانت أخبار هذا الاستبسال؛ مع ما قاسوه من ألوان العذاب، كان هذا وذاك سببًا في شد عزيمة المترددين، وضم أنصارٍ جُدد للجماعات الدينية المضطهدة.

وأثـارت ضـروبُ الاضطهاد الوحشي الزائدة الرحمةَ في قلوب الأهلين الوثنيين؛ ووجد الصالحون في نفوسهم من الشجاعة ما دفعهم إلىٰ التصريح بمقتهم لهذا الظلم الذي لم يكُن له مثيل في التاريخ الرومي كله.

حتىٰ جاء عام ٣١١، فأصدر «جاليريوس» مرسومًا بالتسامح مع المسيحيين واعترف فيه بالمسيحية دينًا مشروعًا)[١].

نعم، اضطُهد المسيحيون، لكن فكرتهم تجذرت مع الابتلاء، وعقيدتهم انتشرت مع الاستضعاف.

وفي عهد قسطنطين الأول (٣٠٦-٣٣٧م) وبعد أنْ (شهد في حياته كيف أخفق الاضطهاد ثلاث مرات، وانطبع في نفسه بلا ريب انتصار المسيحية؛ مع كل

---

(١) بتصرف يسير: قصة الحضارة ١١/ ٣٧٨-٣٨١.

اضطهاد)[1]، رأىٰ من اللازم أنْ يعتني بخطوتين مهمتين من أجل السيادة الرومية وتثبيت أركان الإمبراطورية:

- «ضرورة» توحيد الديانات في الإمبراطورية الرومية.
- «ضرورة» احتواء النصرانية التي طالما صدَّعت البناء الروماني.

وقد سُبق إلىٰ هاتين الاستراتيجيتين، ولكن لم تؤخذا بالمحمل الرسمي المتكامل كما فعل هو؛ فقد عمل علىٰ أن تكونا دعامتين في بناء الدولة الرومية الجديدة، الجديدة في نظمها وجغرافيتها ومكوناتها.

لكن العقيدة الوثنية التي يؤمن بها لا تُوائِم احتواء النصرانية، فعزم علىٰ فعل أمرين:

- منافقة النصارىٰ بإعلانه اعتناق النصرانية، أما حقيقة الأمر فإنه كان علىٰ اعتقاد الفلاسفة[2].
- المزاوجة بين الوثنية والنصرانية، بأنْ يطعِّم النصرانية بعض الطقوس والأفكار الوثنية.

وقد ساعده في ذلك ابتداع النصارىٰ في اعتقادهم في عيسىٰ ودخول الشرك في بعض فِرقهم واختلافهم في ذلك، كما حفَّزه لتلك المزاوجة ما تضفيه الوثنية الرومية من مظاهر التقديس للحكام والأباطرة، فإنها تجعل الإمبراطور إلهًا في الأرض ونائبًا عن الإله في السماء فتجب طاعته المطلقة، فأراد «قسطنطين» إضفاء هذه الصياغة الوثنية القديمة علىٰ الديانة النصرانية الجديدة.

---

(١) قصة الحضارة ١١/ ٣٨٨.

(٢) البداية والنهاية ٢/ ٣٩٢. تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٥٢.

ومن جهة أخرىٰ أراد جمع الكنائس ذات الاتجاهات المختلفة في اعتقاداتها النصرانية علىٰ صياغة جديدة مشتركة الأصول، وهذا يتسق مع الفكرة القديمة: توحيد الأديان، واستباقًا لمنع أي اضطراب أو نشاز قد يسبب القلق للإمبراطورية.

ومن جهة ثالثة كان يأمل الاستفادة من الدين النصراني الذي يدعم بناء المجتمعات عمومًا، والنظر في المصلحة العامة، ويقلل من ألوان الفساد الإداري والمالي والأخلاقي.

علىٰ أي حال؛ فقد أقام «قسطنطين» بناء علىٰ ذلك مجمع نيقية عام ٣٢٥ ميلادي، والذي جمع فيه زهاء ألفي رجل، لكنهم لم يتوصلوا إلىٰ نتيجة إجماعية مرضية، ثم اجتمع بثلاثمئة وثمانية عشر رجلًا من الآباء (جمع أب).

وقد ناقش المجتمعون في مجمع نيقية مسألة ألوهية عيسىٰ عليه السلام وعلاقته بالله تعالىٰ نقاشًا ساخنًا ومعمقًا، وهل عيسىٰ ذو طبيعة بشرية أو ذو طبيعة إلهية، ثم اتفق المجتمعون -وبتشجيع وربما بضغط من قسطنطين ذاته- علىٰ عقيدة جديدة هي مزيج من الوثنية والمسيحية، وقد تناولها أئمة الإسلام بالعرض والنقد، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، وابن القيم في كتابه هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ.

يقول ابن القيم: (ولفظها: نؤمن بالله الأب الواحد، خالق ما يُرىٰ وما لا يُرىٰ، والربُّ الواحد اليسوع المسيح ابن الله، بِكر أبيه وليس بمصنوع، إلهٌ حق مِن إلهٍ حق، مِن جوهر أبيه، الذي بيده أتقنت العوالم وخلق كل شيء، الذي من أجلنا -معشر الناس- ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم البتول، وحَبِلتْ به مريم البتول وولدته، وأُخِذ وصُلب، وقُتل أيام «فيلاطس» الرومي، ومات ودفن، وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب، وصعد إلىٰ السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرىٰ للقضاء بين الأموات

والأحياء. ونؤمن بالرب الواحد روح القُدُس روحِ الحق الذي يخرج من أبيه روح محبته، وبمعموديةٍ واحدة لغفران الخطايا، وبجماعةٍ واحدة قديسية سليحية جاثليقية، وبقيام أبداننا وبالحياة الدائمة إلىٰ أبد الآبدين)[1].

هذه عقيدة «قسطنطين» المحدثة؛ والجاثيليقية هي الكاثوليكية.

لا مانع لدىٰ الإمبراطور من تغيير دينه؛ إذا استدعىٰ الأمر ذلك!

ولم يكُن «قسطنطين» يميل إلىٰ النصرانية تدينًا واعتقادًا وإنما الحنكة السياسية ساقته إليها؛ فاضطر إلىٰ اعتناقها ثم تحريفها، ليصبح وثنيًّا في مسلاخ نصراني.

وابن كثير يقدم موجزًا مفيدًا يؤرخ فيه لطريقة الوصول إلىٰ العقيدة الجديدة الملعونة، فيقول: (فجمعهم في مجلس واحد وهو المجمع الأول من مجامعهم الثلاثة المشهورة، وهم مختلفون اختلافًا متباينًا منتشرًا جدًّا، فمنهم الشرذمة علىٰ المقالة التي لا يوافقهم أحد من الباقين عليها؛ فهؤلاء خمسون علىٰ مقالة، وهؤلاء ثمانون علىٰ مقالة أخرىٰ، وهؤلاء عشرة علىٰ مقالة أخرىٰ، وطائفة علىٰ مقالة ابن أريوس.

فلما تفاقم أمرهم وانتشر اختلافهم حار فيهم الملك قسطنطين، مع أنه سيئ الظن بما عدا دين الصابئين من أسلافه اليونانيين، فعمد إلىٰ أكثر جماعة منهم علىٰ مقالة من مقالاتهم فوجدهم ثلاثمئة وثمانية عشر أسقفًا قد اجتمعوا علىٰ مقالة «أكصندروس»، فقال: هؤلاء أولىٰ بنصر قولهم لأنهم أكثر الفِرق! فاجتمع بهم خصوصًا، وقال: إني رأيتكم أكثر الفرق قد اجتمعتم علىٰ مقالتكم هذه فأنا أنصرها وأذهب إليها.

---

(١) هداية الحيارى ص٣٢٩.

فسجدوا له!

وطلب منهم أنْ يضعوا له كتابًا في الأحكام. وأنْ تكون الصلاة إلىٰ الشرق لأنها مطلع الكواكب النيرة! وأنْ يصوروا في كنائسهم صورًا لها جثث!

فصالحوه علىٰ أنْ تكون في الحيطان.

فلما توافقوا علىٰ ذلك أخذ في نصرهم وإظهار كلمتهم وإقامة مقالتهم وإبعاد من خالفهم وتضعيف رأيه وقوله، فظهر أصحابه بجاهه علىٰ مخالفيهم، وانتصروا عليهم.

وأمر ببناء الكنائس علىٰ دينهم، فبُني في أيام قسطنطين بالشام وغيرها في المدائن والقرىٰ أزيد من اثني عشر ألف كنيسة، واعتنىٰ الملك ببناء بيت لحم، وبنَت أمه هيلانة قمامة بيت المقدس.

وعظُم دين النصرانية، وظهر أمره جدًّا بسبب الملك قسطنطين، وقد أفسده عليهم فسادًا لا صلاح له ولا نجاح معه ولا فلاح عنده، وكثرت أعيادهم بسبب عظمائهم، وكثرت كنائسهم علىٰ أسماء عُبادهم، وتفاقم كفرهم، وغلظت مصيبتهم، وتخلد ضلالهم، وعظم وبالهم، ولم يهدِ الله قلوبهم ولا أصلح بالهم، بل صرف قلوبهم عن الحق، وأحال عن الاستقامة حالهم.

ثم اجتمعوا بعد ذلك مَجمعين في قضية النسطورية واليعقوبية، وكل فرقة من هؤلاء تكفر الأخرىٰ، وتعتقد تخليدهم في نار جهنم)[1].

هذه هي المزاوجة بين الوثنية والنصرانية. وهكذا تحول دين عيسىٰ عليه السلام من التوحيد إلىٰ الشرك باسم الدين. وعلىٰ هذه العقيدة قامت الدولة القسطنطينية الرومية الشرقية الشابة.

---

(١) بتصرف يسير: البداية والنهاية ٢/ ٣٩٢.

وبهذه العقيدة تحولت أوروبا إلىٰ النصرانية المحْدثة، النصرانية التي تشبع رغبات الوثنيين بالشرك بالله وعبادة الصور والتماثيل واستحلال أكل الخنزير وشرب الخمر والتقلل من الطهارة.

وبها أصبحت الشام ومصر والحبشة أيضًا تدين بدين النصارىٰ الجديد الذي ترعاه الكنيسة الشرقية، إلا النزر اليسير الذين يخفون توحيدهم خوفًا من البطش والتنكيل.

وهكذا تشكلت عقيدة النصارىٰ الرسمية، التي علىٰ جميع النصارىٰ أنْ يعتنقوها في أنحاء الإمبراطورية البيزنطية التي تمتد جنوبًا إلىٰ الحبشة، ثم وضعت بصمتها العقائدية والسياسية علىٰ الجنوب الغربي للجزيرة العربية: اليمن ونجران.

تلك إذًا قصة نشوء العقيدة البيزنطية، والتي يسمونها تضليلًا: النصرانية.

ولما كانت شمس الإمبراطورية البيزنطية تميل نحو الغروب، كانت لتوها شمس الرسالة الإسلامية أشرقت علىٰ العالم، انطلاقًا من الجزيرة العربية، في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي.

وحين بلغ ضوء شمس الرسالة تخوم الممالك المجاورة، وجدت هذه الإمبراطورية نفسها مضطرة إلىٰ حوار فكري حول دينين مختلفين: الإسلام والنصرانية، لأنها كانت تعرِّف نفسها بأنها حامية الديانة السماوية.

لقد قدِم وفد من نجران -المدينة المنزوية في جنوب الجزيرة العربية والتي دانت بنصرانية «قسطنطين»- إلىٰ النبي ﷺ.

قدم الوفد بعد أنْ أدركوا الأبعاد السياسية والاستراتيجية لهذا التحول الكبير في موازين القوىٰ بهجرة النبي ﷺ وتأسيس المدينة الإسلامية الجديدة.

قدموا إلىٰ النبي ﷺ في وقت مبكر من هجرته إلىٰ المدينة، ليناقشوه في مسألة محورية تعد فاصلًا بين الإسلام والنصرانية، وهي التعريف بعيسىٰ عليه السلام، فهم يعلمون أنَّ القرآن ينفي ألوهيته ويثبت بشريته ورسالته.

وهذه مسألة تحمل أبعادًا سياسية مؤثرة، فإنَّ وجود دولة تعترف بفكرٍ تحمله أقلية في دولة مجاورة أو معادية أو منافسة يعني وجود عمق استراتيجي لهذه الدولة في عقر دار الأخرىٰ، وقد يمتد أثر ذلك إلىٰ قدرة هذه الدولة علىٰ تقويض أركان الدولة الأخرىٰ.

ويمكنك فهم هذه الأبعاد إذا قارنت ذلك بواقع العلاقات الدولية اليوم.

علىٰ أي حال؛ قدم وفد نجران في بداية العهد المدني، عهد الأمة الجديد، ونشأ حوار مهم في مسألة عيسىٰ بين العبودية والتأليه، هذا الحوار سيكون له أثره في كثير من النصارىٰ في العالم، إذ ذاك وبعده.

في واقع الأمر كان لدىٰ وفد النصارىٰ من نجران حينها -أي بعد مرور قرنين ونصف علىٰ مجمع نيقية- عدد من الشُّبَه في تأليه عيسىٰ ورفع منزلته عن البشر، وقد ساق الطبري بسنده عن محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر، قال: (قدِم علىٰ رسول الله ﷺ وفدُ نجران ستون راكبًا، فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم، في الأربعة عشر ثلاثةُ نفر؛ إليهم يؤول أمرهم:

- العاقب؛ أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذي لا يصدُرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح.
- والسيد؛ ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم.
- وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل؛ أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم.

وكان أبو حارثة قد شرُف فيهم ودرَس كتبهم حتىٰ حسُن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرَّفوه وموَّلوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه.

فكلم رسولَ الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والأيهم السيد، وهم من النصرانية علىٰ دين الملك مع اختلاف من أمرهم، يقولون: هو الله. ويقولون: هو ولد الله. ويقولون: هو ثالث ثلاثة. وكذلك قول النصرانية. فهم يحتجون في قولهم: هو الله بأنه كان يحيي الموتىٰ ويبرئ الأسقام ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا، وذلك كله بإذن الله، ليجعله آية للناس. ويحتجون في قولهم: إنه ولد الله، أنهم يقولون: لم يكُن له أب يُعلَم، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من ولد آدم من قبله. ويحتجون في قولهم: إنه ثالث ثلاثة، بقول الله عز وجل: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا؛ فيقولون: لو كان واحدًا ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت، ولكنه هو وعيسىٰ ومريم.

ففي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن، وذكر الله لنبيه ﷺ فيه قولهم.

فلما كلمه الحبران؛ قال لهما رسول الله ﷺ: أسلِما. قالا: قد أسلَمنا، قال: إنكما لم تسلما، فأسلِما. قالا: بلىٰ قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله عز وجل ولدًا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير. قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلىٰ بضع وثمانين آية منها)[١].

وقد نوقشت هذه القضايا في الحوار الذي جرىٰ بين النصارىٰ ونبينا ﷺ وعلىٰ رأسها تأليه عيسىٰ، الحوار الذي استغرق أيامًا، فنزلت الآيات الأولىٰ من آل عمران

---

(١) جامع البيان ٥/ ١٧٢.

أولًا بالتعريف بالله تعالىٰ وصفاته التي لا يشاركه فيها بشر، ثم التعريف بعيسىٰ عليه السلام، فيما يزيد علىٰ (٨٠) آية من صدر السورة.

قال الله تعالىٰ:

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران:١-٢].

فأخبر سبحانه أنه المتفرد بالألوهية، ذلك بأنه حي لا يموت، وهذا خلاف ما يؤمن به النصارىٰ، فهم يعتقدون أنَّ عيسىٰ عليه السلام مات مقتولًا، فأخبر الله أنَّ من يستحق العبادة والتأليه ينبغي أنْ يكون حيًّا لا تجري عليه سُنة الموت، وأخبر الله أنَّ من يستحق العبادة والتأليه ينبغي أنْ يكون قائمًا بتدبير أمور الخلائق بكل دقة وإحكام؛ الدهر كله بلا ملل ولا تعب، وهذا ما لا يستطيعه عيسىٰ عليه السلام ولا غيره من المخلوقين، فكيف إذًا يؤله مِن دون الله، وقد أوذي وكُذب ولوحق، بل وصُلب وقُتل كما يزعمون!

فهل مَن هذه صفته يستحق أنْ تتوجه له الخلائق بالعبادة والتأليه؟!

وهل مَن هذه صفته يستحق أنْ تتوجه له بقعة شاسعة من المعمورة بعبادته؛ تاركة التوجه لله الخالق القوي الحي القيوم؟!

ثم أخبر الله تعالىٰ أنه هو الذي أنزل الكتب من السماء علىٰ الرسل في الأرض: فأنزل التوراة علىٰ موسىٰ، وأنزل الإنجيل علىٰ عيسىٰ، وأنزل القرآن علىٰ محمد عليهم الصلاة والسلام، وهذا ما لا يمكن لعيسىٰ أنْ يفعله:

﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران:٣-٤].

وقد أقرت الآيات بأنَّ الله تعالىٰ أجرىٰ علىٰ يد عيسىٰ بعض المعجزات، كإحياء الموتىٰ وخلق الطير والإخبار ببعض الغيوب؛ آية علىٰ صدق نبوته، وليست علىٰ استحقاقه للعبادة:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٤٩].

وهي محض معجزات أوتيها من الله جل وعلا، تناسب زمن عيسىٰ عليه السلام الذي اشتهر فيه الطب[1].

وهذه المعجزات لا ترتقي بالرسول إلىٰ مرتبة الألوهية، فإذا كان عيسىٰ يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيها فيكون طيرًا؛ فهو بإذن الله الذي جعل له هذه القدرة، كما أنه لا يستطيع أنْ يصل إلىٰ القدرة التي يقول الله تعالىٰ فيها:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦].

وإذا كان عيسىٰ عليه السلام ينبئ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، فإنه لن يصل إلىٰ العلم الذي يقول الله تعالىٰ فيه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٩].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٤٩.

وهكذا عالجت سورة آل عمران هذه المسألة الفكرية العالمية. بل ذهبت السورة إلىٰ ما هو أبعد من ذلك في بيان قدرة الله الباهرة وملكوته العظيم:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

وكأنَّ الآية تذكِّرهم: قد علمتم تعاقب أباطرة الروم علىٰ الملك -قبل تحول الروم إلىٰ النصرانية وبعده- وصعودهم ونزولهم، وعلمتم شأن تأليههم بتعظيمهم وتصويرهم والطاعة المطلقة لأمرهم، فإنهم جميعًا لم يكونوا أباطرة إلا بإذن الله، الذي يؤتي ملكه لأي منهم متىٰ شاء وينزعه منه متىٰ شاء.

كانت هذه الآيات العظيمة في نسقها وبيانها ومخاطبتها للعقل والوجدان تفرض علىٰ المحاورين من النصارىٰ سؤالًا مفاده:

كيف تعبدون بشرًا من دون الله؟! رسولًا! إمبراطورًا! صالحًا! عظيمًا!

كيف تعبدون من ليس له من تلك الصفات العظيمة شيء، بل هو مخلوق مفتقر محتاج؟! ينام ويصحو، يعيش فيموت، يقضي الحاجة، ويخاف علىٰ نفسه.

أما الإجابة عن سؤال وصف عيسىٰ عليه السلام وتاريخيته وقصته فقد جاءت مفصلة ودقيقة، راعت أوجه التشابه والاختلاف، وأقرت الصواب ونددت بالخطأ.

فعن أصله وأمه أخبرت سورة آل عمران أنَّ عيسىٰ هو ابن مريم بنت عمران، من ذلك البيت الذي اصطفاه الله تعالىٰ وهو بيت صالح معروف عند بني إسرائيل:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧ ﴾ [آل عمران:٣٤-٣٧].

هذا حديثٌ عن أم عيسىٰ الصديقة مريم، وحديثٌ عن جدته المباركة امرأة عمران.

وأما عن خَلقه ومولده، فقد أخبرتنا السورة بأنَّ مريم ولدته بكلمة من الله:

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٤٥-٤٧].

قال السعدي: (سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأنَّ حالته خارجة عن الأسباب) أي أسباب الإنجاب الطبيعية، الناتجة عن حمل الأنثىٰ من الذكر، (وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلىٰ مريم، فنفخ في جيب درعها)، وجيب الدرع: هو فتحة القميص من أعلاه، والذي تدخل منه رأسها، (فولجت فيها تلك النفخة الزكية من ذلك الملَك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيًّا نشأ من مادة روحانية، فلهذا سُمي روح الله)[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٤٦ - فروقات.

فهذا هو عيسىٰ عليه السلام، وهكذا خُلق.

وأما عن عبوديته فقد أخبرنا الله تعالىٰ بكلام عيسىٰ نفسه عن عبوديته لله، وهذا مما حرَّفه الرهبان وأقرهم علىٰ تحريفه «قسطنطين»:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران:٥١].

وأخبر الله تعالىٰ أنَّ أتباع عيسىٰ من الحواريين كانوا علىٰ هذا الاعتقاد أيضًا:

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٥٢-٥٣].

فهم يعتقدون أنَّ عيسىٰ عبد الله ورسوله، وأنهم أنصاره وأتباعه، وأنهم مسلمون.

لأنَّ دين عيسىٰ الحق هو الإسلام، وهو دين كل الأنبياء، كما في قوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٩].

كما أخبر الله تعالىٰ عن رفعه إليه سبحانه:

﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران:٥٤-٥٥].

(فأخبر تعالىٰ أنه رفعه إلىٰ السماء، بعدما توفاه بالنوم، علىٰ الصحيح المقطوع به، وخلَّصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلىٰ بعض الملوك الكفرة

في ذلك الزمان)[1]، وقد جاء القرآن ببيان ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨].

وأخبر الله تعالىٰ في سورة آل عمران أنَّ المعجزَ في خلق عيسىٰ أسهل -بتقدير البشر- من المعجز في خلق آدم:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٥٩ - ٦٠].

فآدم خُلق بلا أب ولا أم، وأوجده الله سبحانه من العدم، فإذْ لم تجعلوا له شيئًا من صفات الإله، فكيف تجعلون لمن خُلق من أم بلا أب شيئًا من صفات الإله!

وهذه الآيات العظيمة كما أنها أقامت تصورًا منطقيًّا عن الله تعالىٰ وعن عيسىٰ عليه السلام؛ فإنها كذلك أضافت إلىٰ المؤمنين من الصحابة الكرام في المدينة الجديدة رصيدًا فكريًّا ضخمًا عن أحد التصورات والأديان الكبرىٰ: أعني النصرانية، بل إنَّ المسلم -مهما كان مستواه المادي والاجتماعي والتعليمي- إذا قرأ سورة آل عمران فسوف تتشكل لديه هذه المعارف العميقة، في أي مكان يعيش فيه، وفي أي زمان.

ولك أنْ تتخيل حجم الثقافة الفكرية، والنقية في الوقت ذاته التي اتسم بها جيل الصحابة ﷺ في تلك البقعة الصغيرة من جزيرة العرب النائية عن الحضارات الكبرىٰ حينها.

قد يظن البعض أنَّ أصحاب محمد ﷺ إنما هم ثلة من الدراويش الذين قطعوا صلتهم بالمعارف والعلوم مشتغلين بتزكية النفس، أو أنهم جماعة فتوَّة التفت حول النبي ﷺ تنصره في مواجهة خصومه فحسب.

---

(١) البداية والنهاية ٢/ ٢٨٧.

كلا وحاشا!

لقد كانوا بفضل هذا القرآن علماء عارفين بتاريخ الأديان ومقالات الأمم وعقائد الدول.

إنهم -بفضل الرسالة الإسلامية- الذين رسموا الأصول العلمية والعقدية للحضارة الإسلامية.

ولقد نزلت سورة آل عمران لتهدم العقيدة البيزنطية علىٰ رؤوس أولئك المتنفعين باعتناقها، والذين يدَّعون اتباع عيسىٰ زورًا.

نزلت لتزلزل الأفكار الوثنية في نفوس النصارىٰ التائهين الضالين.. ليكون ذلك إيذانًا بهدم أعظم إمبراطورية كافرة تفتري علىٰ الله الكذب، وتبتز الناس في أنحائها باسم الدين وباسم المسيح وباسم الكنيسة، وتحارب وتضطهد الموحدين المسلمين حقيقة لا ادعاء؛ الذين اتبعوا عيسىٰ وعملوا بما في الإنجيل.

وما هي إلا أعوام وتسْلم الحبشة رسميًّا، وتفرض الجزية علىٰ نجران، ويصل كتاب النبي العربي إلىٰ هرقل في الشام، وإلىٰ المقوقس في مصر أنْ: أسلِم تسلَم.

ثم ما هي إلا سنوات بعد تلك الأعوام وتطأ سنابك خيل المسلمين الشام ومصر، بقيادة من أنزلت عليهم سورة آل عمران وتربوا علىٰ هداياتها.. وتفتحها باسم الله، وتكسر راية الصليب في كل أنحائها، تمهيدًا للفتح الأعظم في عقر الدولة البيزنطية: القسطنطينية.

إنه فتيل القرآن الذي ملأ الأرض وهجًا ونورًا، والذي طال أعداء الشرائع إحراقًا وتنكيلًا.

هكذا كان بدء نزول آل عمران.

دين إبراهيم

﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

إنَّ الدين الذين يدين به النصارىٰ اليوم ليس هو دين عيسىٰ الذي أرسله الله به، وإنما هو دين مختلقٌ صنعه أباطرة الروم وعلماء السوء، فإنَّ عيسىٰ إنما جاء بتوحيد الله تعالىٰ ونبذ الشرك وتحريم القتل والفواحش وأكل الربا وشرب الخمر، وهذا هو لبُّ الإسلام وجوهر الرسالة المحمدية.

هذا ما أرادت سورة آل عمران أنْ تقوله للنصارىٰ في العالم عمومًا ولوفد نجران خصوصًا، والذين يتبعون الإمبراطورية البيزنطية. ولتبين أنَّ «قسطنطين» دخل في دين النصرانية حيلةً ليفسده، تماهيًا مع حزمة الإصلاحات الكبيرة والجذرية في عهده، ومنها استقطابه للنصارىٰ الذين كانوا يمثلون شريحة واسعة في الناس، ويُعدون مشكلة لدىٰ الإمبراطورية الرومانية.

لقد جاء عيسىٰ عليه السلام بالإسلام:

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٣].

قال الطبري: (وهذا خبرٌ من الله عز وجل أنَّ الإسلامَ دينُه الذي ابتعثَ به عيسىٰ والأنبياء قبله، لا النصرانية ولا اليهودية، وتبرئةٌ من الله لعيسىٰ ممن انتحل النصرانية ودان بها، كما برأ إبراهيم من سائر الأديان غير الإسلام، وذلك احتجاجٌ من الله تعالىٰ ذِكره لنبيه ﷺ علىٰ وفد نجران)[1].

وقال ابن كثير: (فلما بعث الله محمدًا ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله علىٰ الوجه الحق؛ كانوا هم أتباع كل نبي علىٰ وجه الأرض، إذ قد صدَّقوا الرسول النبي الأمي خاتم الرسل وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلىٰ التصديق بجميع الحق، فكانوا أولىٰ بكل نبي من أمته، الذين يزعمون أنهم علىٰ ملته وطريقته مع ما قد حرفوا وبدلوا، ولهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقًّا سَلبوا النصارىٰ بلاد الشام وأجلوهم إلىٰ الروم، فلجؤوا إلىٰ مدينتهم القسطنطينية)[2].

مهلًا يا أبا الفداء! فكلامك يعني أنَّ المسلمين من أمة محمد ﷺ أولىٰ بعيسىٰ من النصارىٰ الذين حرفوا دينه وبدلوه، وأنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فلذلك مكَّن الله المسلمين من أرض الشام وألجأ النصارىٰ إلىٰ إخوانهم الروم!

نعم، هذا حق.

إذًا فصدر سورة آل عمران يجلِّي حقيقة أنَّ النصرانية التي جاء بها قسطنطين، والتي يدين بها أهل نجران تبعًا للروم البيزنطيين، ما هي إلا فرية فكرية، وما هي إلا اعتقاد ملفق.

وأنَّ الحق في أنَّ دين عيسىٰ هو نفسه دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ. وأنَّ أصحاب محمد ﷺ وأتباعه هم المؤمنون بعيسىٰ ودينه علىٰ وجه الحقيقة. وأنَّ الإسلام ليس وليد الساعة! ليس بِدعًا في الأديان. ولا يؤرخ بمبعث النبي محمد ﷺ.

---

(١) جامع البيان ٥/ ٤٤٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٥٢.

وإنما الإسلام ممتد في التاريخ. دينٌ يحمل معه الأنبياء والمرسلين.

وأنَّ أهل نجران وأساقفتهم وكل الكنائس والمعابد التي أنشأتها دولةُ الروم والتي تزيد علىٰ اثني عشر ألفًا لا تتبع دين عيسىٰ!

وإنما تتبع دين قسطنطين المحدَث والوثني.

وبتلك الآيات من سورة آل عمران أصيبت الإمبراطوريةُ البيزنطية بهزة فكرية سيكون لها كبيرُ الأثر في هزيمتها العسكرية.

وإذا كان اليهود القاطنون أرض الحجاز يزعمون أنهم أهل الكتاب وأنهم حملة الرسالة وأنهم القيِّمون علىٰ الدين والعلم لأجل الرياسة الدينية وما يتبعها من السيطرة المالية والزعامية؛ فإنَّ سورتي البقرة وآل عمران أرادت القول لكل مغتر بهم أو مصدق لهم أنَّ هؤلاء اليهود قد امتهنوا الكذب والافتراء علىٰ الله.

وأنهم قد انحرفوا عن شريعة موسىٰ. وانقلبوا علىٰ نصوص التوراة. فبدلوا ألفاظها وحرفوا معانيها، لتتماهىٰ مع مصالحهم، وليصدوا الناس بذلك عن اتباع شريعة الإسلام ورسالة محمد ﷺ:

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٧٦ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٥-٧٩].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٨].

قال ابن زيد: (التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها؛ يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالًا، والحق فيها باطلًا، والباطل فيها حقًّا، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب؛ فهو فيه محق، وإنْ جاءهم أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق)[1].

وقد ذكرت سورة البقرة عددًا من صور التحريف والتبديل الذي مارسه أحبارهم وعلماؤهم عمدًا، عدوانًا علىٰ كلام الله وافتراءً عليه، حتىٰ تشكل لليهودية دين مختلق ملفق فيه بعض الحق وبعض الوثنيات وكثير من الأهواء.

إذًا فإنَّ اليهودية ليست دين موسىٰ، وليست هي روح التوراة (العهد القديم) وإنما هي دين ملفق مصنوع بيد البشر.

وإذا كانت قريش تدعي أنها حارسة البيت الحرام وخادمة حُجاجه وزواره، وأنها وارثة إبراهيم عليه السلام في دينه وكعبته؛ لتكون لها السيادة بين القبائل والقرىٰ في الجزيرة العربية، ولتُحكم القبضة علىٰ الحركة التجارية الناتجة عن ذلك؛ فإنَّ سورة البقرة أرادت القول بأنَّ قريشًا تكذب في دعواها اتباع إبراهيم.

وأنها تسير علىٰ غير سيرته. وأنها بدلت دينه بعبادة الأصنام والأوثان. وأنَّ دينه الإسلام وعبادة الله وحده:

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٦١.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٢٧-١٣٢].

لقد كان إبراهيم مسلمًا.

ولقد كان إسماعيل -أبو العرب الذي تنتسب إليه قريش- مسلمًا.

ولقد كان إسحاق -أبو يعقوب الذي تنتسب إليه بنو إسرائيل- مسلمًا.

فلماذا لا يكون اليهود والنصارىٰ مسلمين إذًا؟

ولماذا يدَّعون اتباع إبراهيم وهم يخالفون منهجه ودينه؟

إبراهيم من أعظم شخصيات التاريخ البشري، وهو أبو الأنبياء من الفرعين: إسماعيل أبي العرب وإسحاق أبي إسرائيل، وهو مجمع علىٰ فضائله بين الأمم، فهو جدير بالتنافس في الانتساب إليه عند الجميع. يقول ابن عاشور: (وأحسب أنَّ ادعاءهم أنهم علىٰ ملة إبراهيم إنما انتحلوه لبثِّ كلٍّ من الفريقين الدعوة إلىٰ دينه بين العرب، ولا سيما النصرانية، فإنَّ دعاتها كانوا يحاولون انتشارها بين العرب، فلا يجدون شيئًا يروج عندهم سوىٰ أنْ يقولوا: إنها ملة إبراهيم. ومن أجل ذلك اتُبِعت في بعض قبائل العرب، وهنالك أخبار في أسباب النزول تثير هذه الاحتمالات)[1].

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٧١.

وقد فندت سورة البقرة هذه الادعاءات تفنيدًا صريحًا:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٥-١٣٧].

وهنا يأتي حوار وتأتي معالجات حول تاريخية الأديان.

وفي القرآن تفصيلٌ دقيق لذلك، وفي سورة آل عمران توضيح لهذا الأمر بالنسبة للنصارىٰ، كما هو الشأن في سورة البقرة بالنسبة لليهود ومشركي العرب.

لقد شاع بين الناس أنَّ محمدًا ﷺ يزعم أنه في رسالته إنما يتبع إبراهيم؛ الرجل الذي تتنافس الأمم علىٰ الانتساب إليه!

ومن المعلوم قطعًا لدىٰ هذه الأمم أنه من ذريته. وقد ولد وبعث في جوار البيت الذي بناه إبراهيم؛ أعني البيت الحرام. وقد جاء القرآن بأخبار كثيرة عن إبراهيم لم تكُن معلومة لدىٰ أولئك الذين يدعون اتِّباعه من اليهود والنصارىٰ ومشركي العرب.

وإبراهيم هو النموذج الأمثل لأنْ يقتدي به المؤمنون، خلافًا لنموذج بني إسرائيل المفترين علىٰ الله الكذب والمتعنتين المنحرفين والصادين عن الإسلام. وخلافًا للنصارىٰ الذين انصرفوا عن توحيد الله إلىٰ عبادة المسيح، وغيروا شريعته.

نموذج إبراهيم هو النموذج الذي يتحمل أمانة الرسالة؛ تحققًا في ذاتها ودعوة إليها، وستكون هذه الأمة الناشئة نموذجًا كذلك إذا هي احتذت حذوه:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]

فهو إمام هؤلاء كلهم.

لكن هذه الآية بينت أنَّ الانتساب إلىٰ إبراهيم مع الظلم لا ينفع أصحابه، فلا اليهود جديرون بإمامة الناس، ولا النصارىٰ جديرون بإمامة الناس، ولا قريش جديرة بإمامة الناس، فكل هؤلاء ظالمون. قال السعدي: (أيْ لا ينال الإمامة في الدين من ظلم نفسه وضرها وحط قدرها. والظلم يكون بالكفر أو بالمعاصي)[1].

بل جاء في سورة آل عمران صورة للظلم المُقصي عن دعوىٰ اتباع إبراهيم ونيل الإمامة في الدين:

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران:٩٣-٩٥].

فإنَّ بني إسرائيل حين افتروا الكذب علىٰ الله أصبحوا ظالمين، وغير متبعين ملة إبراهيم، فأُبعدوا من شرف الإمامة في الدين، فتأمل.

وعلىٰ أي حال؛ فإنَّ الطوائف الثلاث قد اختصمت في دعوىٰ النسبة إليه، خصامًا فكريًّا وتاريخيًّا.

لكن الله تعالىٰ -وهو يبين لنا الصراط المستقيم- قضىٰ في هذه المسألة الكبرىٰ وفصَّل في هذه القضية التاريخية الفكرية في سورتي البقرة وآل عمران، ليتبين لكل من يقرؤهما أنَّ دين إبراهيم هو دين الإسلام لله وحده وهو الحنيفية والتوحيد المحض:

---

(١) تيسر الكريم الرحمن ١/ ٩١.

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥].

قال ابن عباس: (نزلت في رؤساء يهود المدينة؛ كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وأبي ياسر بن أخطب، وفي نصارىٰ أهل نجران السيد والعاقب وأصحابهما، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين، كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله.

فقالت اليهود: نبينا موسىٰ أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بعيسىٰ والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن.

وقالت النصارىٰ: نبينا أفضل الأنبياء، وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان وكفرت بمحمد ﷺ والقرآن.

وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين: كونوا علىٰ ديننا فلا دين إلا ذلك)[١].
فرد الله أقوالهم، وأبطل دعواهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾.

قال مجاهد: الحنيفية اتِّباع إبراهيم فيما أتىٰ به من الشريعة التي صار بها إمامًا للناس. وقال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلىٰ دين الإسلام[٢].

فهو لم يكُن مسلمًا فحسب، بل ومبتعدًا عن كل طريق يؤدي إلىٰ غير الإسلام.

وفي الآية الأخرىٰ:

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧].

---

(١) معالم التنزيل ١/ ١١١.

(٢) معالم التنزيل ١/ ١١١.

فهو ليس بيهودي كما يدعي اليهود. وليس بنصراني كما يدعي النصارىٰ. وليس بوثني كما تدعي قريش. وإنما هو موحِّد مسلم.

وبأوجز عبارة تُسقِط هذه الآيات ادعاء التشريف الذي يزعُمه كلٌّ من اليهود والنصارىٰ ومشركي العرب، وتجعل من تلك الثلة المباركة في المدينة من المهاجرين والأنصار أولىٰ الناس بهذا التشريف والرفعة:

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨].

بل وتجعلهم هم أهل الحق بين كل أهل الأرض، وخيرهم وأفضلهم:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

وهكذا كل من اتبعهم بإحسان إلىٰ يوم القيامة؛ جعلني الله تعالىٰ وإياك منهم.

وكما احتفت سورة البقرة بذكر آدم، احتفت أيضًا بذكر إبراهيم عليهما السلام، ولذلك فإنَّ بعض المفسرين يرىٰ أنَّ حرف الواو في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤] هو عطفٌ علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] علىٰ ما بينهما من المسافة، والتقدير: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، واذكر أيضًا إذ ابتلىٰ إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن.

وهذا رابط بديع يؤلف بين الآيات، ويجعل القارئ لسورة البقرة أقوىٰ فهمًا وأقدر علىٰ الربط بين السياقات.

قال ابن عاشور: (والمقصود من ذكر قصة إبراهيم موعظةُ المشركين ابتداءً، وبني إسرائيل تبعًا لهم، لأنَّ العرب أشد اختصاصًا بإبراهيم، من حيث إنهم يزيدون

علىٰ نسبهم إليه بكونهم حفظة حَرمه، ومنتمين قديمًا للحنيفية، ولم يطرأ عليهم دينٌ يخالف الحنيفية؛ بخلاف أهل الكتابين)[1].

وهكذا في باكورة تنشئة الأمة المسلمة الجديدة، تؤكد السورتان أنَّ أمة محمد ﷺ هي أمة الحق وأمة التوحيد الناصع وأمة الحنيفية وأمة الإسلام.

إنهم أولىٰ الناس بإبراهيم انتسابًا واتباعًا وحجة وتشريفًا. وإنَّ من عداهم قد سفِهوا أنفسهم!

ولا يقتصر الأمر علىٰ يهود المدينة وخيبر ونصارىٰ نجران وبيزنطة.. بل يتعدىٰ الأمر كل من ادعىٰ اتباع دين إبراهيم من غير المسلمين، في كل زمان ومكان.

أولئك الذين يتشدقون بالإبراهيمية ويرفعون عقيرتهم بها كذبة ومحتالون.

كذبة لأنَّ إبراهيم لم يكُن يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولا مشركًا، ولا يرضىٰ بالاقتراب من مشرك ولا موالاته، بل هو مباعد عن اليهودية والنصرانية مجافٍ لهما، وهذا معنىٰ الحنيف.

ومحتالون لأنهم يعْبُرون بهذا الانتساب جسر الأغراض المادية والسياسية، وهو سلوك يتوارثه اللاحقون عن السابقين، مع بعض التحسينات التي يضلَّل بها الجهال إلا من رحم الله.

أيها الفاضل!

هل كان إبراهيم يعبد أصنامًا من دون الله؟

أوَليس هو الذي حمل فأسه وكسرها وأوذي في سبيل ذلك؟

وهل كان إبراهيم يضع يده في يد المشركين بالله؟

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٧٠٠.

أوَليس هو الذي نابذ قومه العداء لأنهم مشركون؟

أوَليس هو الذي تبرأ من والده -أقرب الناس له وشيجة- لأنه مشرك؟

أوَليس هو الذي تضرع إلىٰ الله أنْ يجنبه وذريته الشرك وعبادة الأصنام؟

بأي وجه يفتري هؤلاء المتشدقون الكذب علىٰ أنبياء الله؟ وعلىٰ التاريخ؟

وما حال الناس الذين يصدقونهم بكذبهم علىٰ الله تعالىٰ وعلىٰ أنبيائه وعلىٰ التاريخ؟

نحن -أعني المسلمين- أولىٰ الناس قاطبة بالانتساب إلىٰ إبراهيم ديانة واتباعًا؛ وإنْ زكمت أنوف، نحن فقط.

والسورتان تبينان أنَّ الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو دين الأنبياء جميعًا، وهو الدين الذي لا يرتضي الله سواه عبر التاريخ، منذ خلق آدم، وأنَّ الكتب إنما نزلت به:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٣].

حتىٰ الأنبياء من بني يعقوب «إسرائيل» إنما جاؤوا بدين الإسلام الذي بعث به نبينا محمد ﷺ، فهل وفىٰ أهل الكتاب بما في كتابهم؟!

كلا.

ولهذا أشهد الله أهل العلم الصحيح من الأمم علىٰ حقيقة التوحيد، وقرن شهادتهم بشهادته سبحانه وملائكته:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا

مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٨-٢٠].

وكل الأنبياء قد أخذ الله عليهم الميثاق في اتباع محمد ونُصرته إذا ظهر بينهم، ثم هم أبلغوا أممهم بهذا العهد والميثاق:

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

موسىٰ وعيسىٰ وأيوب وذو الكفل وداود وسليمان وإدريس... كلهم دعوا إلىٰ الإيمان بمحمد ﷺ ونصرة دعوته إذا ظهر بينهم. لم تقف السماء عبر التاريخ عن أخذ العهد علىٰ ذلك.

لقد قضىٰ الله تعالىٰ أنْ يكون الإسلام هو الدين الخالد والخاتم:

﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٣-٨٥].

قال البغوي: (ذلك أنَّ أهل الكتاب اختلفوا، فادعىٰ كل واحد أنه علىٰ دين إبراهيم عليه السلام، واختصموا إلىٰ رسول الله ﷺ، فقضىٰ النبي ﷺ بينهم أنَّ كلا

الفريقين بريء من دين إبراهيم عليه السلام، وأنَّ دينه الإسلام، فغضبوا وقالوا: لا نرضىٰ بقضائك ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله تعالىٰ الآية)[1].

دين إبراهيم هو الإسلام.

بل الإسلام لم يكُن دين الأنبياء فحسب، إنما هو الديانة الكونية التي أراد الله لها أنْ تشمل التاريخ والجغرافيا، والطبيعة وما وراء الطبيعة.

لذلك جاءت السورتان بالتعريف بقصة الإسلام عبر التاريخ، ولتنبه المؤمنين علىٰ أنْ يحفظوا هذا الإرث التاريخي العظيم من التبديل والتحريف كما حدث من قبل في أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، وكما غيرته أحبارهم ورؤساؤهم من أجل مطامع الدنيا، وكما حرفته العرب وعلىٰ رأسهم عمرو بن لحي الخزاعي؛ الذي جلب الفكرة الوثنية إلىٰ الجزيرة العربية.

إنَّ من أهم الواجبات علىٰ أمة الإسلام هي حراسة الإسلام من أنْ تطاله أيدي البغاة عليه؛ بغية تحريفه وتبديله. ولذلك أخبرنا الله تعالىٰ في سورة البقرة عن مقامٍ من مقامات إبراهيم التي وفاها وجعلها الله لنا قدوة؛ وهو مدافعته لشُبَه الباطل بالحجة والبرهان، ومقارعته للشرك بالبيان والدعوة:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وفي ذلك إشارة إلىٰ ما يجب علىٰ الرسول ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين الذين هم أولىٰ الناس بإبراهيم؛ من وجوب مدافعة الباطل ومقارعة الشرك بالحجة والبيان.

---

(١) معالم التنزيل ١/ ٣٧٧.

لاحِظ هذا!

ولاحظ معه جوَّ السورة المدني، لتدرك أنَّ أصحاب الرسول ﷺ وأتباعه ليس لهم أنْ يتخاذلوا عن بيان الحق ورد الباطل وكشف الشبهات.

هذه حنيفية إبراهيم التي دعت السورتان إليها نبينا ﷺ وأصحابه ونحن من بعدهم.

هذه حقيقة الإسلام الذي نشأت عليه الأمة الجديدة: توحيد، ودعوة إلىٰ التوحيد، ودفاع عن التوحيد. فاللهم اجعلنا من أنصارك وأنصار دينك ورسولك.

الأمة المسلمة

أهلًا بالأمة الجديدة.. أهلًا بالأمة المسلمة..

نحن أمام أمة جديدة ناشئة، ابتعثها الله تعالىٰ من ركام الجاهلية والوثنية والانحطاط، وفي حديث عياض بن حمار المجاشعي مرفوعًا: (وإنَّ الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب)[1].

وبعد أنْ أطبقت الظلمات ومحيت الشرائع بعث الله أمة جديدة، وبعث لها رسولها محمدًا ﷺ، ليعيد رسمها من جديد، وليصبغها الصبغة الربانية العظيمة، صبغة التوحيد والحق:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة:١٣٨].

وإذا عدنا إلىٰ إبراهيم عليه السلام، والذي صارت النبوة والكتاب من بعده في ذريته، فإنه لما بنىٰ البيت الحرام بمكة -حرسها الله- دعا بدعوات عظيمة، واستجاب الله له دعاءه، وأكرمه كرامة عظيمة، ومن تلك الدعوات المباركة أنْ يجعل من ذريته أمة مسلمة، قال إبراهيم:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩].

---

(١) أخرجه مسلم ٤/ ٢١٩٧، ح٢٨٦٥.

وفي التسمية بالإسلام يتحدث ابن عاشور عن تدبير الله تعالىٰ، والذي به آل اسم الإسلام إلىٰ دين محمد ﷺ متخطيًا الأديان التي طالها التحريف والتبديل، فيقول: (أَلهم الله إبراهيم اسم الإسلام، ثم ادخره بعده للدين المحمدي، فنسي هذا الاسم بعد إبراهيم، ولم يلقب به دين آخر، لأنَّ الله أراد أنْ يكون الدين المحمدي إتمامًا للحنيفية دين إبراهيم)[1].

فدعا إبراهيم أنْ تكون من ذريته أمة مسلمة، أيْ جماعة من الناس، من ذريته، يجتمعون علىٰ الإسلام، ويكون لهم نبي يعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم بهما.

وقد استجاب الله تعالىٰ له، فبعث محمدًا ﷺ واتبعه عدد من الناس، من قريش وبعض القبائل العربية، ثم اتبعه الأوس والخزرج، وكلهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فقريش من فرع عدنان، والأوس والخزرج من فرع قحطان، ومن هذين الفرعين أتت سائر القبائل العربية. واجتمعوا في دار الهجرة -المدينة الجديدة- حيث فتح الأنصار ديارهم للمهاجرين ولمحمد ﷺ.

وبذلك اكتملت قواعد الأمة المسلمة الناشئة.

يدلك علىٰ هذا أنَّ النبي ﷺ في أول مَقْدمه إلىٰ المدينة كتب بينه وبين اليهود والقبائل كتابًا، ينظم فيه علاقة الأمة الجديدة بمن حولها، ومن معها من غيرها، وقال عنها في أوله كلمة تحمل أعمق الدلالات لمن تأملها: إنهم أمةٌ واحدة من دون الناس[2].

فنحن متفردون..

نحن لنا رسالتنا وكتابنا وأخلاقنا ونظامنا ومنهجنا وعقيدتنا.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٧٢٠.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ٤٠٥.

نحن أمة مسلمة، حنيفيةٌ كحنيفية إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب..

نحن أمة من دون الناس. والمهاجرون والأنصار يسمعون هذا الكلام ويحفظونه، ويستوعبون مدلولاته وتبعاته واستحقاقاته.

والعالم كله يدرك أنها أمة مختلفة عن المعهود في الأمم والجماعات، يدرك أنهم متفردون.

ونحن أمةُ هداية..

اهتدت بكتاب ربها، إلىٰ الصراط المستقيم، فأفضىٰ بها إلىٰ الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:٥].

وتهدي غيرها من الأمم إلىٰ ذلك الصراط:

﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران:٢٠].

ونحن الأمة الأولىٰ بإبراهيم..

لأننا نسير في ركابه، ونقتدي به، ودينه الإسلام الصحيح والحنيفية البيضاء، فبإيماننا بمحمد ﷺ واتباعه نكون آمنا بإبراهيم واتبعناه، خلافـًا لليهود والنصارىٰ الذين يزعمون اتباعه وهم كاذبون:

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾ [آل عمران:٦٧-٦٨].

ونحن أمةٌ وسط..

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

والوسط هنا له معنيان، وكلاهما ينطبق علىٰ هذه الأمة المسلمة: المعنىٰ الأول: الأعلىٰ والأنفس والأحسن. والمعنىٰ الثاني: المتوسط بين طرفين مذمومين. والأول يقتضي الثاني.

قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ: إنما حولناكم إلىٰ قبلة إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء علىٰ الأمم؛ لأنَّ الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط ههُنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه، أي أشرفهم نسبًا)(١).

والسعدي يبين لك كيف صارت هذه الأمة وسطًا في الأمم، فيقول: (فجعل الله هذه الأمة وسطًا في كل أمور الدين: وسطًا في الأنبياء؛ بين من غلا فيهم كالنصارىٰ وبين من جفاهم كاليهود، بأنْ آمنوا بهم كلهم، علىٰ الوجه اللائق بذلك.

ووسطًا في الشريعة؛ لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارىٰ.

وفي باب الطهارة والمطاعم؛ لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بِيَعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حُرمت عليهم الطيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارىٰ الذين لا يُنجسون شيئًا، ولا يحرمون شيئًا، بل أباحوا ما دب ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات، من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٨.

فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجلُّها، ومن الأعمال أفضلها، ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا أمة وسطًا كاملين)[1].

حتىٰ وإنْ كان أفراد هذه الأمة أقل حظًّا في مكاسب الدنيا وشرف المكانة الاجتماعية والعرقية وعلوم الصنعة؛ فإنهم خيرٌ من غيرهم من الأمم الأخرىٰ:

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١].

وما قيمة «العلم الحديث» إذا لم يصلك بالله تعالىٰ؟ ما قيمة الإنتاج الصناعي والتكنولوجي إذا لم يستنِر بأنوار الوحي؟ إنها تتحول إلىٰ وسائل جهنمية:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٢١].

انظر إلىٰ حجم الدمار العالمي ومليونية الدماء المسفوكة والهدر الأممي للموارد والطاقة، ألم يكُن ذلك بسبب المشركين الذين أعجبونا؟!

القرآن يقرر أنَّ عجوزًا أميًّا فقيرًا جاهلًا في قرية نائية، لا تعرف ألوان المدينة، ولا تتزين طرقاتها بأعمدة الإنارة، ولا يرتدي أهلها أجمل الملابس، يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، خيرٌ من أستاذ في مركز مرموق، يرسم خطة الدولة ويصنع قراراتها، لكنه يركع لبقرة أو يجثو لصليب أو يعلق تمثالًا علىٰ صدره.

المؤمن له قيمة حقيقية في العالم، وله المرتبة العليا عند الله تعالىٰ.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٠٢.

ونحن أمةُ شهادة:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ [البقرة:١٤٣].

نشهد للأنبياء علىٰ أقوامهم يوم القيامة، حين تتنكر الأمم لهم، وتدَّعي أنهم لم يبلِّغوهم، فتقوم أمة محمد ﷺ فتشهد للأنبياء بأنهم بلغوا رسالة الله لأقوامهم.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك، فيُدعىٰ قومه، فيقال لهم: هل بلَّغكم هذا؟ فيقولون: لا. فيقال له: هل بلَّغت قومك؟ فيقول: نعم. فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيُدعىٰ بمحمدٍ وأمته، فيقال لهم: هل بلَّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم. فيقال: وما عِلمكم، يعني ما حجتكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا ﷺ، فأخبرنا أنَّ الرسل قد بلَّغوا. فذلك قوله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾. قال: عدلًا، ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾)[1].

ونحن أمةُ شهادة في الدنيا..

نحكم علىٰ الأمم والطوائف، ونبين ما لديهم من الاستقامة والانحراف؛ كل ذلك بالعلم والعدل، لا تأخذنا في الله لومة لائم، ولا نشتري بذلك ثمنًا قليلًا، فلا ينبغي لنا أنْ نفعل كما فعل أهل الكتاب والمشركون، الذين يتهمون من يخالفهم بالضلال والانحراف عن الحق لمجرد أنهم خالفوهم؛ وليس وفقًا لما دلت عليه نصوص الكتاب الذي معهم، بغيًا وحسدًا وحبًّا في مطامع الدنيا وخوفًا علىٰ فقد مكاسبها، لذلك يشهدون علىٰ غيرهم بغير الحق:

---

(١) أخرجه أحمد ١٨/ ١١٢، ح١١٥٥٨.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ [البقرة:١١٣].

ونحن أمة الاصطفاء والولاية..

امتن الله علينا فأخرجنا من ظلمات الجهل والانحراف والخرافة والشرك والتيه في دروب الحياة والتسول علىٰ موائد الأمم إلىٰ نور الحق والبصيرة والعلم والمكارم والشرف والتوحيد:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وهذه الولاية لها ثمنها. والابتلاء ثمن لها.

فنحن أمةٌ مبتلاة..

لا تصفو لنا دار الدنيا، بل نتجرع فيها آلام الابتلاء والمعاناة، فمنا من يطوي ليله ونهاره خائفًا يترقب، قد أرهقه الرصد، وأعياه فقد الأمن، ومنا من لا يملك قوت يومه؛ فيبيت طاويًا يتضور من الجوع، ومنا من خسرت صفقته أو ظُلم في ماله فأرهقته الديون ونهشته المكوس ولربما مرت عليه أوقات وأوقات وهو عاجز عن توفير لقمة العيش لولده وزوجه وذويه، ومنا من فقد بعض أهله ومحبيه، في وباء فاتك أو مرض مهلك أو حرب ظالمة..

ولم يسلم من هذا الابتلاء نبينا محمد ﷺ وهو الكريم علىٰ ربه، فقد مات أولاده في حياته إلا فاطمة رضي الله عنها، وقتل أصحابه بين يديه، ومكث الشهر والشهرين لا تُوقَد في بيته نار لطهي الطعام من الفقر، وهاجر من موطنه، وأوذي كثيرًا..

وكذلك الصحابة الكرام.. وهؤلاء خيار الخلق، فكيف بمن عداهم!

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥].

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٦]

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤].

لا بد من الابتلاء، ولا بد من المعاناة، ولقد حفت الجنة بالمكاره!

ونحن خير الأمم وأفضلها..

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران:١١٠].

قال ابن كثير: (يخبر تعالىٰ عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾. والمعنىٰ: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس)[1].

فلإنَّ هذه الأمة تقوم بواجباتها الإيمانية، ولأنها تحقق معنىٰ الخلافة في الأرض بإيمانها بالله وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر صارت خير الأمم وأكملها وأنفعها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٩٥.

فاستمدت خيريتها من عملها وليس من أعراقها وأنسابها.

ومما ابتلينا به حسد غيرنا من الأمم لنا علىٰ ما منَّ الله به علينا، وسعيهم جاهدين لإنزالنا عن تلك الرُتبة السنية:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥].

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩].

فهم لا يريدون أنْ ينزل علىٰ هذه الأمة من الخير شيء قليلًا كان أو كثيرًا، وهم يضمرون قتال المسلمين دائمًا، وإنما يتوقفون عنه بعض الوقت بسبب العوائق التي تعوقهم عن ذلك، والتي تجعلهم يؤجلون فكرة القضاء علىٰ المسلمين. قال ابن عاشور: (وفيه إعلام بأنَّ المشركين مضمرون غزو المسلمين ومستعدون له، وإنما تأخروا عنه بعد الهجرة، لأنهم كانوا يقاسون آثار سنيِّ جدب، فقوله «لا يزالون» وإنْ أَشعر أنَّ قتالهم موجود؛ فالمراد به أسباب القتال، وهو الأذىٰ وإضمار القتال كذلك، وأنهم إنْ شرعوا فيه لا ينقطعون عنه، علىٰ أنَّ صريح «لا يزال» الدلالة علىٰ أنَّ هذا يدوم في المستقبل، و«حتىٰ» للغاية وهي هنا غاية تعليلية. والمعنىٰ: أنَّ فتنتهم وقتالهم يدوم إلىٰ أنْ يحصل غرضهم؛ وهو أن يردوكم عن دينكم)[1].

فلا تظن يومًا أنَّ توقف المشركين عن القتال ناشئ عن مودة أو رحمة أو صداقة، إنَّ عداءهم لنا متجذر في نفوسهم ومضمر في قلوبهم.

وعلىٰ أي حال؛ فإنَّ سورتي البقرة وآل عمران نزلتا لتؤكدان تفرد هذه الأمة

---

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٣٣١.

وتميزها منذ البدء، جاءت لتقول لهم: إنكم خير الأمم وأفضلها، فلا ينبغي أنْ تنظروا إلىٰ الأمم الكافرة نظرة انهزام، ولا نظرة مغلوب، لأنكم تملكون أعظم عناصر القوة: منهج الحياة في كتاب الله، فبقدر تمسككم به تكونون الأقوىٰ والأحسن، وتكونون الأعلىٰ علىٰ الأمم.

ولكن هنا خاتمة مناسبة، وهي إخبار النبي ﷺ أنَّ من الأمة من سيتشبه بالأمم الأخرىٰ، فقال: (لتتبعن سَنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعــًا بذراع، حتىٰ لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه)، قلنا: يا رسول الله! اليهود، والنصارىٰ؟ قال: (فمن)[1]. وهذا دليل نقص الخيرية في الأمة المسلمة إذا هي تخلت عن بعض هدي نبيها ﷺ إلىٰ هدي الأمم الأخرىٰ، فإنَّ الخيرية بالعمل وليس بالانتساب فحسب، قال ابن تيمية: (ولهذا كان السلف - سفيان بن عيينة وغيره - يقولون: إنَّ مَن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومَن فسد من عُبادنا ففيه شبه من النصارىٰ. ومع أنَّ الله قد حذرنا سبيلهم، فقضاؤه نافذ بما أخبر به رسوله، مما سبق في علمه)[2]. ثم قال: (وليس هذا إخباراً عن جميع الأمة، بل قد تواتر عنه: أنه قال «لا تزال طائفة من أمته ظاهرة علىٰ الحق حتىٰ تقوم الساعة». وأخبر ﷺ أنَّ الله لا يجمع هذه الأمة علىٰ ضلالة، وأن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرسـًا يستعملهم فيه بطاعته. فعُلم بخبره الصدق أنه في أمته قوم متمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضـًا، وقوم منحرفون إلىٰ شعبة من شعب اليهود، أو إلىٰ شعبة من شعب النصارىٰ)[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٤/ ١٦٧ ح٣٤٥٥.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٨١.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٨٢.

امتحان الشكر

ولا بد من الشكر!

قانون الشكر العام هو أنَّ النعم تدوم بالشكر وتزول بفقده.

ولما خلق الله تعالىٰ آدم، وعلمه كل شيء، وجعله في الأرض خليفة، وأسجد له ملائكته، وخلق له من نفسه زوجه حواء ليسكن إليها، وأدخله جنته وأباحها له، إلا شجرة واحدة نهاه عن الأكل منها، فلما أكل منها آدم، كان هذا إيذانًا بتحويله عن النعمة التي كان فيها، إلىٰ الأرض حيث النصب والتعب.

وفي هذا التفات إلىٰ أنَّ النعمة ذات مفهوم واسع، وأنَّ شكر النعمة مثل ذلك، وأنَّ العقوبة علىٰ عدم شكرها أيضًا له مفهوم واسع.

وفي أول سياق صريح للامتنان علىٰ الناس بنعمة الله، يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤٠-٤١].

فما النعمة هنا؟ وكيف يكون شكرها؟

قال أبو العالية: (نعمته أنْ جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب)[1].

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٤.

وابن عطية يستحسن البقاء علىٰ عموم اللفظ[1]، وهذا توسيع لمفهوم النعمة، وعلىٰ كل حال فإنَّ الدين والإيمان والشريعة نعمة عظيمة؛ هذا ما تؤكده الآيات.

وأما شكرها، فقد قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ آمرًا بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهيجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب، عليه السلام، وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله! كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق)[2].

وهذا الشكر الحقيقي، وهو الذي أراده الله تعالىٰ من بني إسرائيل: الإيمان المطلق بما جاء به رسولنا ﷺ واتباع شريعته والتسليم بها.

فكما أنعم الله عليهم ببعث الأنبياء ورؤية الآيات وإنزال الكتب وإنجائهم من آل فرعون وإسكانهم الأرض المقدسة؛ وجب عليهم شكر هذه النعم، بتمحيض العبودية له وبطاعة أنبيائه ورسله واتباع الوحي الذي أنزل عليهم، وجاهزيتهم لاتباع النبي الخاتم.

وهذا التذكير بالنعم علىٰ هذا الوجه جاء في سورة البقرة ثلاث مرات، وفيه درس للمؤمنين من العرب وغيرهم، ولأصحاب النبي ﷺ خاصة، الذين كانوا في عماية الجهل والظلام، فبعث الله لهم نورًا، وأيُّ نور، وكانوا مقيدين بأغلال العبودية للأوثان، مأسورين لحكم المجتمع الجامد، ثم هداهم الله لما فيه صلاحهم، وبعثهم ليكونوا حمَلة المشاعل عالميي الرسالة.. درس لهم ليدركوا تبعة هذا التشريف ومستحقات هذا الإنعام، وهي أنْ يتمسكوا بهذا الدين، ويُعملونه في واقع حياتهم، ويحكمونه في كلِّ شؤونهم، وأنْ يكون الوحي منهجًا لهم في كل مسألة أو خلاف

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٣٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٣.

أو موقف أو توجُّه. أنْ يحملوا الرسالة بحقها، وأنْ يؤدوا أمانة العلم، وأنْ ينشروا كتاب الله في هذا العالم، وهي الأمور التي أخفقت فيها بنو إسرائيل، فعاقبهم الله تعالىٰ بأن انتزع منهم هذا الشرف وأعطاه غيرَهم، والله تعالىٰ يذكِّر بني إسرائيل بنعمه عليهم، لعلهم يشكرونها:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٤٩-٥٢].

وكثير من المفسرين علىٰ أنَّ البلاء العظيم هنا بمعنىٰ النعمة[1].

هذا هو امتحان شكر النعمة!

أما إبراهيم عليه السلام فقد شكر النعمة. هذا النبي الذي ينافسنا عليه اليهود والنصارىٰ ومشركو قريش:

﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣١].

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤].

حتىٰ ذريته ليس لهم إلا العقوبة إذا هم ظلموا بالكفر والمعاصي والإفساد. ولكن -ولله الحمد- من ذريته من شكر النعمة وأسلم:

---

(١) جامع البيان ١/ ٦٥٢.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٣].

هذا الدين الإسلامي نعمة، وهذه الرسالة المحمدية نعمة عظيمة:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة:١٤٣].

وبعد أنْ امتنَّ الله علىٰ المسلمين بكونهم الأمة الأحسن، وباختيار الكعبة لهم قبلة، وبإرسال خير الرسل إليهم وإنزال أفضل الكتب لهم، أمرهم بشكر هذه النعم العظيمة:

﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥٠-١٥٢].

قال السعدي: (أصل النعمة: الهداية لدينه، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك النعم المتممات لهذا الأصل لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلىٰ أنْ قرب رحيله من الدنيا وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطىٰ أمته ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]. فلله الحمد علىٰ فضله الذي لا نبلغ له عدًّا، فضلًا عن القيام بشكره)[1].

هل وعيت؟

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٠٩.

أصل النعمة: الهداية لدينه.

ومن إنعامه وهدايته أنْ بيَّن في هذا الفسطاط العظيم، أعني سورة البقرة: أحكام الصيام والحج والقتال والقصاص والنكاح والطلاق والإيلاء والنفقات والبيوع والدين والربا والرهن، وغيرها الكثير من الآيات وما تضمنته من أحكام وآداب وتوجيهات، بل فيها من علم بني إسرائيل وأخبارهم ما لا يعرفه إلا علماؤهم، وفيها من أخبار الأنبياء وبدء الخلق والمصير وصفات الله ما ليس في غيرها من سور القرآن، وفي أكثر هذه الآيات ينوه الله جل شأنه بمسألة شكر النعمة التي منَّ بها علىٰ المؤمنين عامة وأصحاب محمد ﷺ خاصة، لا سيما وهم في مبدأ أمرهم وباكورة انفتاحهم علىٰ الأمم والحضارات:

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨].

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢].

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقد جرىٰ امتحان الشكر لأصحاب النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار مراراً، ومن ذلك ما جرىٰ لهم في غزوة أحد؛ من انكشاف المسلمين ووقوعهم تحت سيوف قريش، قال البغوي(١): فلما رأىٰ خالد بن الوليد قِلَّةَ الرماة، واشتغال المسلمين بالغنيمة، ورأىٰ ظهورهم خالية صاح في خيله من المشركين، ثم حمل علىٰ أصحاب النبي ﷺ من خلْفهم فهزموهم وقتلوهم.. وأقبل عبد الله بن قمئة

(١) انظر: معالم التنزيل ١/ ٤٢٧.

يريد قتل النبي ﷺ فذبَّ مصعب بن عمير عن رسول الله ﷺ فقتله ابن قمئة، وهو يرىٰ أنه قَتل رسولَ الله ﷺ، فرجع إلىٰ المشركين وقال: إني قتلت محمداً. وصاح صارخ ألا إنَّ محمداً قد قُتل. فانكفأ الناس، وفشا فيهم أنَّ محمداً قد قُتل، فقال بعض المسلمين: ليت لنا رسولاً إلىٰ عبد الله بن أُبي فيأخذ لنا أمانـًا من أبي سفيان، وبعض الصحابة جلسوا وألقوا بأيديهم، وقال أناس من أهل النفاق: إنْ كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول!

ولامهم النبي ﷺ علىٰ الفرار، فقالوا: يا نبي الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا، أتانا الخبر بأنك قد قُتلت فرَعبتْ قلوبنا، فولينا مدبرين. فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

في تلك الساعة وقع إرجاف فكري مفاده أنَّ دين الإسلام الذي جاء به محمد دين باطل؛ إذ لو كان حقـًا ما قُتل الرسول ﷺ، وقد أطلق المنافقون هذه المقولة.

ووقع ارتباك عسكري، لأنَّ مقتل القائد وشيوع ذلك بين الصفوف هو إعلانٌ بانتهاء المعركة وهزيمة المسلمين، ولذلك ألقىٰ بعض الناس سلاحهم وتوقفوا.

ووقع اضطراب نفسي، حيث دب الخوف في قلوب الناس وشعروا باقتراب الحتوف والإبادة، ولذلك التمس البعض الأمان بوساطة المنافق المنسحب أصلاً: عبد الله بن سلول.

زلزال إيماني، ونفوس بشرية لا زالت تتلقىٰ التوجيه والتربية..

فنزلت الآية الكريمة تعاتب من حصل منه ذلك من المسلمين.

قال الطبري: (قال الله تعالىٰ لأصحاب محمد؛ يعاتبهم علىٰ ما كان منهم

من الهلع والجزع ومُقبِّحاً إليهم انصراف من انصرف منهم عن عدوهم وانهزامه عنهم: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ محمد، لانقضاء مدة أجله، أو قتَله عدوٌ ﴿أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ يقول: فلنْ يوهن ذلك عزةَ الله ولا سلطانه، ولا يدخل بذلك نقصٌ في ملكه، ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ يقول: وسيثيب الله مَن شكَره علىٰ توفيقه وهدايته إياه لدينه، بثبوته علىٰ ما جاء به محمد ﷺ إنْ هو مات أو قتل، واستقامته علىٰ منهاجه، وتمسكه بدينه وملَّته بعده)[1]. فتأمل هذا التقريع والعتاب علىٰ الرجوع بعد الإقدام، والقعود بعد السلوك! وتأمل وصف الله الثابتين بالشاكرين، لأنَّ التمسك بالهداية والثبات علىٰ المنهاج ضرب ضروب الشكر لله، وهذا متكرر في القرآن.

في تلك الأثناء ثبتت طائفة من المسلمين، وعزموا علىٰ الاستمرار في القتال حتىٰ النهاية، منهم: أنس بن النضر الذي قال: (يا قوم! إنْ كان قُتل محمد؛ فإنَّ ربَّ محمد لم يُقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ ، فقاتلوا علىٰ ما قاتل عليه رسول الله ﷺ، وموتوا علىٰ ما مات عليه)[2]. وصبر علىٰ بأس الحرب حتىٰ قُتل رضي الله عنه.

ومنهم: سعد بن الربيع رضي الله عنه العقبي البدري الشهيد، الذي صمد في المعركة حتىٰ مات علىٰ إثر إصابته في أحد، فقال في آخر ما قاله: (فأبلِغ رسولَ الله ﷺ عني السلام، وقل له: إنَّ سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزىٰ نبياً عن أمته. وأبلِغ قومك عني السلام، وقل لهم: إنَّ سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إنْ خلص إلىٰ نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف)[3].

---

(١) بتصرف: جامع البيان ٧/ ٢٥٢.

(٢) معالم التنزيل ١/ ٤٢٨.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٥.

أما الذين أحاطوا بالنبي ﷺ وفدوه بأرواحهم ووقوه بأجسادهم فكثير، يتقدمهم في الفضل طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص في جماعة.. إنه للصمود والصبر، وإنه للمجالدة والمصابرة، وإنه لحمل الأرواح علىٰ الأكف بذلاً في سبيل الله.

ومن أعجب صور ذلك الصمود والصبر ما وقع لأصحاب النبي ﷺ من استجابتهم لنداء النبي ﷺ بعد انتهاء المعركة -وهم مثخنون بالجراح- لملاحقة جيش المشركين في حمراء الأسد، قال البغوي: (وذلك أنَّ أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا علىٰ انصرافهم وتلاوموا، وقالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم، ارجعوا فاستأصلوهم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأراد أنْ يُرهب العدو ويريهم من نفسه وأصحابه قوة، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، مع ما بهم من الجرح والقرح الذي أصابهم يوم أحد، ونادىٰ منادي رسول الله ﷺ: ألا لا يخرجنَّ معنا أحد إلا مَن حضر يومنا بالأمس.

وإنما خرج رسول الله ﷺ مُرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم فيظنوا به قوة، وأنَّ الذي أصابهم لم يوهنهم؛ فينصرفوا. فخرج رسول الله ﷺ في أصحابه رضي الله عنهم حتىٰ بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة علىٰ ثمانية أميال)[1]. فأثنىٰ الله علىٰ هذا الموقف العظيم، وسجل القرآن هذا الصمود العجيب تخليداً وتربية للمسلمين، فقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٢]. قال ابن عطية: (وكانت بالناس جراحة وقرح عظيم، ولكنْ تجلدوا ونهض معه مائتا رجل من المؤمنين حتىٰ بلغ حمراء الأسد، فأنزل الله تعالىٰ في شأن أولئك المستجيبين هذه الآية، ومدحهم لصبرهم، وأخبرهم تعالىٰ أنَّ الأجر العظيم قد تحصل لهم بهذه الفعلة، وقال رسول الله ﷺ: إنها غزوة)[2].

(١) انظر: معالم التنزيل ١/ ٤٤٩.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٦٩٧.

ولقد آتت التربية القرآنية أكلها في صقل أصحاب النبي ﷺ فحين مات النبي ﷺ اضطربت المدينة ونجم النفاق، وحاول البعض أنْ يدخل في إرجاف الناس وإبطال الدين من هذا المدخل، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه -وهو أولىٰ الناس بمثل هذه المواقف- فقال: (من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حي لا يموت)[1]. وتلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]. قال السعدي: (وفي هذه الآية أعظم دليل علىٰ فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ لأنهم هم سادات الشاكرين)[2].

والرسالة التي ثناها الله تعالىٰ لأمة محمد ﷺ في هاتين السورتين، وهي للتو استيقظت من سباتها، وللتو تنهض بين الأمم، وللتو تعرج في مدارج العبودية:

يا أمة محمد!

اشكروا الله تعالىٰ علىٰ نعمة الإسلام.

هذا الدين الذي أنار قلوبكم، وشرح صدوركم، وأضاء حياتكم، وفصَّل عباداتكم، ونظم علاقاتكم، وجعلكم خير الأمم وأحسنها وأجملها وأوسطها.

اشكروا الله أنْ علمكم الفرق بين الكسب الحلال والكسب الحرام.

اشكروه أن ارتقىٰ بأخلاقكم وأذواقكم وعاداتكم.

اشكروه أنْ علمكم كيف تنعمون بالرابطة الزوجية علىٰ أكمل وجه ممكن.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٦٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٤٨.

اشكروه أنْ بين لكم مكانة الرجل ووظيفته ومكانة المرأة ووظيفتها في البيت والأمة.

اشكروه أنْ علمكم كيف تطلبون منه حاجاتكم التي عسر عليكم قضاؤها.

اشكروه أنْ دلكم علىٰ الصلاة؛ الساعة التي تلتقي فيها الأرض بالسماء.

اشكروه أنْ علمكم شعائر الدين وكيفيات عبادته.

اشكروه أنْ علمكم صفات أعدائكم وطرائق عدائهم.

اشكروه أنْ عرفكم تاريخ بدء الخليقة وأحوال الآخرة.

اشكروه أنْ جعلكم خير أمة أخرجت للناس.

اشكروه أنْ جعلكم أولىٰ الناس بخليله إبراهيم..

وهذا الشكر يكون بالقيام بحق الرسالة المحمدية، والطاعة لله ورسوله، والصبر عليها، وإقامة الشريعة الإسلامية وأحكامها في حياتكم والثبات علىٰ ذلك.

ولا تعجب من أعلم الناس وأتقاهم، أعني نبينا محمدًا ﷺ -فديناه بأرواحنا وما نملك- أنْ يقوم الليل صافًّا قدميه مصليًا لله تاليًا لكتاب الله يطيل القيام، فتقول له عائشة رضي الله عنها، إشفاقًا عليه: لمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فيقول: (أفلا أحب أنْ أكون عبدًا شكورًا)[1].

هذا هو الفقه!

وذلك هو الامتحان الأصعب: امتحان الشكر.

---

(١) أخرجه البخاري ٥/ ٤٠٦، ح٤٨٢٢.

الفصل الثالث

حقائق الإيمان

الإله العظيم

يحار العارف في جلال الله تعالىٰ. ويتيه في معاني ربوبيته. وحين يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم»، لربما تغشىٰ قلبه من عظمته وكبريائه وجلاله ما ترتعد له فرائصه. أما حين يهوي ساجدًا ويقول: «سبحان ربي الأعلىٰ»، فحينها يتيقن علو الله وعظمته. هذا حال العارفين.

إنَّ الشعائر التعبدية يجب أنْ تفضي بنا إلىٰ هذه المعاني، وإلا فهي خِلو من مقاصدها وأغراضها.

هذه الشعائر يجب أنْ تذكِّر الإنسان بعبوديته وتذكِّره بألوهية ربِّه ومولاه.

يا هذا! إنك عبد.

وإنه الله العلي العظيم.

اعتنت سورة البقرة بهذا المعنىٰ شديد العناية. إنها تربيك وتغرس فيك أعظم حقيقة في الوجود؛ حقيقة أنك أيها الإنسان عبد لله العلي العظيم.

كم تجرع الإنسان من الويلات حين غفل -أو تغافل- عن هذه الحقيقة. لقد استعبد الناس بعضهم بعضًا. وألَّهوا بعضهم بعضًا. وصرفوا صنوف التعظيم والتأليه لغير الله العلي العظيم، خوفًا ورجاء وحبًّا، وحطوا من قدر إنسانيتهم المجبولة علىٰ عدم الخضوع والتذلل إلا لله تعالىٰ.

سورة البقرة تعيد الأمور إلىٰ نصابها، وتزن التصورات بمعايير السماء، لا بمعايير الأرض.

جاءت هذه السورة في باكورة تنشئة الأمة المسلمة وهي تعرِّف بالله تعالىٰ، تعريفًا لا تملك بعده إلا أنْ تخضع له وتعظمه وتخشع له بقلبك وجوارحك، وتنبذ ما عداه ممن ينازعه الكبرياء في الأرض، أو ينازعه صفاته الجليلة.

الإيمان بالله العلي العظيم هو الواجب الأول علىٰ الإنسان، والوظيفة الأولىٰ للبشرية، وهو الموجه الأول للحياة الطيبة، وهو اللبنة الأولىٰ في بناء الأمة، وهو السلاح الأول في مواجهة الأعداء.

ولكن من هو الله؟

جاءت سورة البقرة وهي تحمل تعريفًا كبيرًا بالله تعالىٰ، تعريفًا يفضي إلىٰ الإيمان به وبقوته وقدرته وعلمه، وتفضي إلىٰ الإيمان بمقتضيات ذلك، كالإيمان بالقدر واليوم الآخر.

ولا أودُّ إعادة ما أشرت إليه في مبحث الأسئلة الكبرىٰ هنا، ولكن سأشير إلىٰ أمرين عظيمين في مسألة الإيمان بالله العلي العظيم.

الأمر الأول هو قوة الإحياء، والأمر الآخر هو القدرة المطلقة الباهرة.

أما قوة الإحياء فسأبينها لك..

من الظواهر التي يلفت القرآن الكريم عنايتنا إليها ظاهرة إنبات الزرع من الأرض بعد نزول المطر، ونموه إلىٰ أنْ تخرج الثمار الناضجة، ثم موته، في دورة حياتية مستمرة الحدوث والتكرار، وفي سورة البقرة إشارة إلىٰ تلك الظاهرة، ففي مقدمة السورة يبرهن الله تعالىٰ علىٰ ألوهيته بذلك:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

وهي ظاهرة تشبه البعث الأخير، فعن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: (بين النفختين أربعون، ويبلىٰ كل شيء من الإنسان إلا عَجْبَ ذنبه، فيه يركب الخلْق)[1].

ووجه الشبه واضح للغاية.

ولذلك؛ فإنَّ دورة الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية ينبغي أنْ تذكِّرنا باليوم الآخر، وأنْ تذكرنا بأنَّ الله سيبعث العباد، وأنه سيجازيهم علىٰ أعمالهم.

لكن الإنسان تصيبه الغفلة، وقد لا يسلم من الجحود، وربما أثر فيه طوفان المادة فجعله يغفل عن اليوم الآخر، أو ربما شك أو استبعد حدوث القيامة والبعث من القبور، والذي أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ عباده المتقين بأنهم يوقنون بالآخرة.. لذلك أظهر الله تعالىٰ معجزته في إحياء الموتىٰ في الدنيا، والناس يشاهدون ذلك بأم أعينهم، وينقلون أخبار تلك الحوادث الفريدة من جيل إلىٰ جيل.

حدثتنا سورة البقرة عن عدد من الوقائع التاريخية الثابتة قطعًا، والتي أعاد الله فيها الأموات إلىٰ الحياة، بمرأىٰ من الناس، وإنها -والله- علىٰ الله يسيرة.

ولذلك يستشفي المسلم بسورة البقرة لما فيها من عرض قوة الله تعالىٰ وقدرته، فالقادر علىٰ إحياء الموتىٰ متىٰ شاء أقدر علىٰ شفاء المريض، والقادر علىٰ التصرف في الكون الواسع أقدر علىٰ اقتلاع المرض والأذىٰ من جسد الإنسان ونفسه وروحه.

في الواقعة الأولىٰ اختار موسىٰ -عليه السلام- سبعين رجلًا من خيار بني إسرائيل، للتوبة والاعتذار عن عبادة العجل، وقد أمر الله تعالىٰ موسىٰ أنْ يقدم بهم إلىٰ الجبل، فكان ميقاتًا لهذه المواعدة، فلما ذهبوا طلبوا من موسىٰ أنْ يروا الله عيانًا:

---

(١) أخرجه البخاري ٥/ ٣٨٠، ح٤٧٩٨.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

قال قتادة: فصعقوا وماتوا وهم ينظرون إلىٰ بعضهم، ثم أحياهم الله تعالىٰ، لا دفعة واحدة، لينظر بعضهم إلىٰ بعض وهم يحيون بعد الموت. فكانت آية عظيمة!

قال قتادة: (أحياهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا إلىٰ يوم القيامة)[١].

أما الواقعة الثانية فهي حين أمر الله تعالىٰ بني إسرائيل بذبح البقرة:

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣].

وفعلًا ضربوا المقتول بعضوٍ منها، فأحياه الله تعالىٰ أمام أعينهم، ثم أنطقه الله تعالىٰ فأخبر بمن قتله.

وكذلك يحيي الله الموتىٰ يوم القيامة، ويستنطقهم بعد أنْ كانوا جثثًا هامدة!

وأما الواقعة الثالثة فهي ما قصه الله تعالىٰ عن القوم الذين هربوا من أرض الطاعون خوفًا من الموت، فلما نجوا منه أماتهم الله جميعًا بكلمة واحدة: موتوا. ثم أحياهم جميعًا.

وهي كذلك حدث تاريخي عظيم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٣].

---

(١) معالم التنزيل ١/ ٥٢.

عقب ابن كثير قال ابن عباس: (كانوا أربعة آلاف، خرجوا فرارًا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضًا ليس بها موت، حتىٰ إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال الله لهم: موتوا. فماتوا. فمرَّ عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أنْ يحييهم. فأحياهم).

عقب ابن كثير علىٰ ذلك، فقال: (وكان في إحيائهم عبرة، ودليل قاطع علىٰ وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أيْ فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة)[١].

وأما الواقعة الرابعة فهي حينما مرَّ النبي الكريم عزير -علىٰ المشهور من أقوال أهل العلم[٢]- علىٰ بلدة بيت المقدس، بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها، وقد أصبحت خاوية متهدمة، فمن شدة ما رأىٰ من الدمار والتخريب، وخلو البلدة من ساكنيها بسبب القتل والتشريد والسباء، استبعد أنْ ترجع كما كانت سابقًا، عامرة مأهولة تدب فيها الحياة، فقال:

أما الواقعة أنىٰ يحيي هذه الله بعد موتها!

وهذا الاستفهام الذي يقصد به الاستبعاد؛ لربما يقوله الإنسان اليوم حين يرىٰ قرىٰ ومدنًا وبلدانًا كانت عامرة بأهلها ومساكنها ومتاجرها ومساجدها ومدارسها، وكانت شوارعها تعج بأخلاط الناس، وكانت مزارعها تزدحم بأنواع المحاصيل، ثم غزتها الغوازي فلم تُبقِ حجرًا علىٰ حجر، ولا رأسًا علىٰ كتف، وخلت تلك البلدان -أو كادت- من مظاهر الحياة.

في هذه الحال يراود الإنسان سؤال الاستبعاد هذا: أنىٰ يحيي هذه الله بعد موتها!

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٢٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٥٦.

وعزير يشبه خراب بيت المقدس بالموت المتحقق، الذي لا يرجىٰ لأهله حياة.

قال ذلك وكان في معيته حمار وعنب وتين وعصير، كان معه متاعه، فأراه الله عبرة فيه وفي متاعه هذا.. لقد أماته الله تعالىٰ مئة عام. ثم بعثه سبحانه بعد المئة عام. فكانت المعجزة الدالة علىٰ قوة الإحياء: وجد العنب والتين والعصير بعد مئة عام كما هي عليه حين موته، لم تفسد ولم تتغير. ووجد الحمار ميتًا فانيًا، فأحياه الله أمام عينيه.

أما أشد ذلك آية فهو أن أول شيء شاهده بعينه إعادة نفسه وإحياؤها بعد الموت، ذلك أنَّ بعض المفسرين ذكر أنَّ أول شيء أحياه الله فيه عيناه!

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩].

قال السدي: (تفرقت عظام حماره حوله يمينًا ويسارًا، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحًا، فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم رُكِّب كل عظم في موضعه، حتىٰ صار حمارًا قائمًا من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحمًا وعصبًا وعروقًا وجلدًا، وبعث الله ملكًا، فنفخ في مِنخَري الحمار فنهق كله بإذن الله عز وجل، وذلك كله بمرأىٰ من العُزير، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أيْ: أنا عالم بهذا، وقد رأيته عيانًا، فأنا أعلم أهل زماني بذلك)[1].

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٥٧.

الجدير بالذكر أنَّ عزيرًا حين بعثه الله بعد موته، ليكمل حياته ويستوفي أجله ورزقه؛ وجد كل شيء في الحياة يسير كالعادة، وإنما حدثت المعجزة له فقط ولما معه من متاع، ولذلك فإنه وجد بيت المقدس، بعد كل هذه المدة، وبعد خرابها وخلوها من الساكنين.. وجدها مدينة عامرة.

قالوا: وعُمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها[1]. يعني أنَّ البلدة مكثت علىٰ ما هي عليه من الدمار والخراب والهجر سبعين عامًا بعد موت العزير، ثم دبت الحياة فيها ثلاثين عامًا، ثم بعثه الله ليراها بعد عشرات السنين وقد بنيت مساكنها ومتاجرها، وقد ازدحمت شوارعها ومزارعها، ويجلب إليها ومنها.

إنَّ من تطغيه المادة، ويؤمن بحواسه وعقله أكثر من إيمانه بما أنزله الله علىٰ رسوله ﷺ لا يكاد يصدق هذه القصة.

أما المؤمنون فيعلمون أنَّ الله علىٰ كل شيء قدير.

وأما الواقعة الخامسة فهي حين طلب إبراهيم الخليل من الله تعالىٰ أنْ يريه إحياء الموتىٰ عيانًا، فاستجاب الله له كرامة له:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ذلك أنَّ الله تعالىٰ أمره أنْ يأخذ أربعة من الطير مختلفة الأصناف، وأمره أنْ يذبحهن ويقطعهن، قال ابن كثير: (فذكروا أنه عمد إلىٰ أربعة من الطير فذبحهن، ثم قطعهن، ونتف ريشهن، ومزقهن وخلط بعضهن في بعض، ثم جزأهن أجزاء،

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٥٦.

وجعل علىٰ كل جبل منهن جزءًا، قيل: أربعة أجبُل. وقيل: سبعة. قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل، أنْ يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلىٰ الريش يطير إلىٰ الريش، والدم إلىٰ الدم، واللحم إلىٰ اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلىٰ بعض، حتىٰ قام كل طائر علىٰ حِدته، وأتينه يمشين سعيًا، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدَّم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جثته بحول الله وقوته؛ ولهذا قال: واعلم أنَّ الله عزيز حكيم. أي عزيزٌ لا يغلبه شيء، ولا يمتنع منه شيء، وما شاء كان بلا ممانع، لأنه العظيم القاهر لكل شيء، حكيمٌ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره)[١].

إنَّ هذه والله العظيم لعبرٌ لمن يعتبر، تدل علىٰ صحة البعث يوم القيامة، وقدرة الله علىٰ الإحياء والإماتة، وهي ركن من أركان الإيمان، إذْ لا يصح إيمان عبد حتىٰ يعلم أنَّ الله يحيي الموتىٰ، ليحاسبهم علىٰ أعمالهم ويجازيهم بها، وهذا ما ينبغي التذكير به علىٰ الدوام، لأنه الدواء الناجع لأدواء الغفلة وأمراض الشهوة والإعراض عن الله تعالىٰ.

لا عجب! فإنك تجد في أواخر سورة البقرة آية؛ قال بعضهم: إنها آخر ما نزل من القرآن[٢]:

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

ومرد الإيمان بقوة الإحياء هو الإيمان بقدرة الله علىٰ كل شيء، وهو الأمر الآخر في مسألة الإيمان بالله العلي العظيم، بعد الإيمان بقوة الإحياء.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٥٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٠٩.

فالله قادر علىٰ كل شيء، قاهر فوق كل شيء، هذا هو الأمر الآخر الذي جاء مفصلًا في سورة البقرة للتعريف بالله تعالىٰ.

ولذلك جاء في القراءة الأخرىٰ لآية عزير الأمر بالعلم بقدرة الله تعالىٰ: قال اعلمْ أنَّ الله علىٰ كل شيء قدير.

اعلمْ أيها الإنسان المتذاكي أنَّ الله قادر علىٰ أنْ يحيي العظام وهي رميم.

وأنَّ الله قادر علىٰ أنْ يحيي البلدة الخراب، وإنْ بقيت علىٰ هذا الحال عشرات السنين، وأنَّ الله قادر علىٰ أنْ يحيي كل الكائنات؛ فهو الذي خلقها أول مرة، ولا يعجزه شيء مطلقًا، ولا يعسر عليه تقليب الأحوال.

واعلمْ أيضًا أنَّ الله قادر علىٰ أنْ يحيي الأرض برسالة محمد ﷺ، بعد أنْ عمَّها التيهُ والضلال.

وحقًّا كان.

فلقد كانت هجرة أولئك الأبطال من مكة إلىٰ المدينة والتئامهم مع الأنصار بعثًا حقيقيًّا، فانبثق النور في العالم، ونُفخت الروح في الناس، وقامت الحضارات من جديد علىٰ إثر هذه الدعوة الناشئة، بعد أنْ أدركها الهرمُ في فارس وبيزنطة واليونان وروما والعراق ومصر.

لعل هذه إحدىٰ الإشارات التي بعثت التفاؤل، من قصة عزير وبيت المقدس.

لكن مسألة القُدرة -أعني قدرة الله الباهرة- والاعتناء بها في سورة البقرة واضح جدًّا، وفي ذلك تعريفٌ بشيء من صفات الله العظيمة والكاملة، حتىٰ لا يختلط مفهوم الإله الناقص لدىٰ مشركي العرب وأهل الكتاب بمفهوم الإله الصحيح الذي علمناه الله تعالىٰ، إذ يعتور مفهوم الإله لديهم القصورُ والضعف.

أما الله سبحانه فليس له مثيل ولا شبيه، هو فوق ذلك كله، ومن صفاته العظيمة ذات الدلالات والآثار الكبرىٰ: قدرته سبحانه علىٰ كل شيء.

وإضافة إلىٰ قصة عزير وبيت المقدس، فإن مسألة إحياء الموتىٰ المتكررة دليل واضح علىٰ قدرة الله تعالىٰ، التي لا يستطيع البشر أنْ يعرفوا لها منتهىٰ.

ومن ذلك قدرته تعالىٰ علىٰ الخلق والإيجاد من العدم، إذ خلق السماء والأرض والبحار والجبال والملائكة والناس والشياطين والحيوانات والطيور والنباتات والفيروسات والطفيليات والذرة ونواة الذرة، وما نعلم وما لا نعلم، وكل هذا مما لا يمكن أنْ يوجد إلا وله مُوجِد خالق قادر قوي، وهو الله تبارك وتعالىٰ.

والله تعالىٰ في سورة البقرة كرر الحديث عن خلقه للكون الكبير، بكل ما فيه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

وأنتم تعلمون!

وأنتم تعلمون أنَّ أولئك الذين تسبغون عليهم شيئًا من الألوهية أو بعضًا من صفات الله تعالىٰ إنما هم مخلوقون، وأنَّ الله هو الخالق الفاعل، فكيف تفعلون ذلك وأنتم تعلمون؟!

وهذا مقتضىٰ فهم المؤمن لمسألة الخلق، فإنها تفضي به إلىٰ الإيمان، لأنَّ الذي خلق الكون هو أعلم بما يصلحه، ولأنَّ الذي خلق الإنسان هو أعلم بما يصلحه، ولا يصلحه إلا الإيمان بالله تعالىٰ ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيد العبادة له:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩].

فكما أنه خلق كل شيء، فهو عليم بكل شيء خلقه؛ ولا بد. فافهم هذه العلاقة وما تقتضيه، لأنك إذا فهمتها؛ عرفت قدْر الله تعالىٰ، وأنَّ كل شيء في هذا الكون خلَقه الله وقدَّره، لحكمة يعلمها.

لقد حكت لنا سورة البقرة أنَّ الله تعالىٰ حين خلق آدم، وأراد أنْ يجعله في الأرض خليفة استفهمت الملائكة عن الحكمة من ذلك:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

قال ابن كثير: (وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أنَّ منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإنْ كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، ولا يصدرُ منا شيء من ذلك، وهلَّا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالىٰ مجيبًا لهم عن هذا السؤال: إني أعلم ما لا تعلمون. أيْ: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف علىٰ المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالىٰ، المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم)[1].

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٢٦.

وهذا الخلق ملك الله سبحانه الذي خلقه، فهو يتصرف فيه بما يشاء متىٰ يشاء، ويدبر أمور الخلائق كلها صغيرها وكبيرها، جليلها ودقيقها، بكل انتظام وحكمة، وسورة البقرة تذكر بهذا:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة:١٠٦-١٠٧].

فهو القادر علىٰ كل شيء خلقه، وهو المالك له، وله الحكمة في كل تدبيره.

لقد كان مُلك النمرود محفزًا له علىٰ الكفر، علىٰ ما أصاب قلبه من الجحود والنكران، فحجَّه إبراهيم عليه السلام بأنَّ الله قادر علىٰ الإحياء والإماتة، لكنه عبطًا قال: أنا أُحيي وأُميت! أُحيي بأنْ أعفو عمن استحق القتل، وأُميت بأنْ أقتل من أشاء.

وهي -كما ترىٰ- دعوىٰ باردة! ميتة لا روح فيها.

لكن النفس إذا جحدت فضل الله عليها ونسيت قدرته عليها، واستندت إلىٰ المادة فإنها تصل إلىٰ هذه الدرجة المتدنية في الجدال والمحاجة.

فقال له إبراهيم، مستدلًّا علىٰ القدرة الحقيقية لله تعالىٰ بتسيير نظام الكون، متحديًا له:

يا أيها الملك؛ اجعل الشمس تشرق من المغرب.

يا أيها الملك؛ إنْ كنت تزعم أنك تقدر علىٰ كل شيء فغيِّر شيئًا واحدًا من نظام الكون، لا أريد منك سوىٰ أنه إذا غربت الشمس من هنا؛ أنْ توقفها وتجعلها تعود من ذلك المغرب.

في واقع الأمر أنَّ الملك حين قدر علىٰ إصدار أمر القتل والعفو عمن استحق القتل؛ رأىٰ لنفسه القدرة علىٰ الإحياء والإماتة، وخالطه شعور الربوبية، هذه هي الحقيقة، لكن مسألة تحدي القدرة علىٰ إحداث شيء في نظام الكون المحكم دوَّخت رأسه.

فبهت الملك الكافر.

وبان له أنَّ ملكه وهْم، لأنه لم يخلقه أصلًا، وأنَّ الحقيقة هي أنه لا يملك الشيء حقًّا إلا مَن خلقه، وهو الله سبحانه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

والله تعالىٰ يأمر الإنسان بأنْ يتفكر في هذا الخلق، التفكر الذي يفضي به إلىٰ الانطراح في محراب العبودية والتقديس:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩٤].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

﴿مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٣-١٦٥].

تدبرها جيدًا.

قال ابن كثير: (ثم ذكر الدليل علىٰ تفرده بالإلهية بتفرده بخلق السماوات والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة علىٰ وحدانيته، فقال: إنَّ في خلق السماوات والأرض، تلك في لطافتها وارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع.

واختلاف الليل والنهار؛ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان.

وتسخير البحر لحمل السفن من جانب إلىٰ جانب لمعايش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلىٰ هؤلاء وما عند أولئك إلىٰ هؤلاء.

وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها.

وبث في الأرض من كل دابة، علىٰ اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء.

وتصريف الرياح؛ فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دبور وهي غربية تنفد من ناحية دبر الكعبة.

والسحاب السائر بين السماء والأرض، يسخر إلىٰ ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالىٰ.

إنَّ في هذه الأشياء دلالات بينة علىٰ وحدانية الله تعالىٰ)[1].

الذي لا يرىٰ هذه القدرة الباهرة كيف يعرف الله تعالىٰ، بل كيف يوحده ويعبده؟!

وحضارة اليوم لا تُري الناس إلا آيات الإنسان وقدراته في الصناعة والإنتاج والتغلب، فغابت عن الناس كثير من آيات الله تعالىٰ الكونية، واتُخذ الإنسان ندًّا لله!

وحين ادعىٰ مشركو العرب وأهل الكتاب أنَّ لله ولدًا، كان الرد عليهم بأنَّ القادر علىٰ خلق السماوات والأرض لا يمكن أنْ تكون من صفاته اتخاذُ الولد، لأنها صفة مخلوق مفتقر لا خالقٍ مالك:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٦-١١٧].

ومعالم قُدرة الله في خلقه وملكه كثيرة في سورة البقرة، غير أنها ذكرت أمارات أخرىٰ للقدرة الإلهية الباهرة، فهو سبحانه الذي فرَق البحر لموسىٰ!

وهو الذي نجىٰ المستضعفين الإسرائيليين من فرعون وجيوشه وجنوده وقوته، وهو الذي أغرق ذلك الجبار العنيد وجنوده في البحر، في مشهد عظيم وحدث تاريخي تعرفه الأمم:

﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٤٩-٥٠].

---

(١) باختصار: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٩.

والله تعالىٰ هو الذي فجَّر اثنتي عشرة عينًا لبني إسرائيل، بضربة من عصا موسىٰ عليه السلام، علىٰ حجر متنقل يحمله بنو إسرائيل معهم، في حادثة متكررة:

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠].

والله تعالىٰ هو الذي اقتلع جبل الطور، ورفعه فوق بني إسرائيل، وشاهدوه بأعينهم كأنه الظلة:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣].

والله تعالىٰ هو الذي أحال المعتدين في السبت من بني إسرائيل قردةً، بعد أن كانوا بشرًا أسوياء:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٦٥-٦٦].

والله تعالىٰ هو الذي نصر الفئة المؤمنة القليلة الضعيفة من بني إسرائيل بقيادة طالوت، علىٰ الجيش العظيم الذي يقوده جالوت، لأنها قوة الله التي لا يغالبها العدد ولا العتاد:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٤٩-٢٥١].

فهزموهم بإذن الله.

وهنا إشارة للمؤمنين بأنَّ النصر لا يكون إلا من عند الله، وإنكم ربما تواجهون من لا تملكون لهم قوة مادية كافية، ولكنكم بإيمانكم بقوة الله، وأنه قادر علىٰ كل شيء ستنتصرون، فعليكم الثباتَ والصبرَ وانتظارَ النصر من الله القوي العزيز:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤].

إنَّ الناس لا يملكون لكم ضرًّا مهما استقووا، حتىٰ الضرر الذي يلحقكم منهم؛ إنما هو بأمر الله وحكمته:

﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٠٢].

وحتىٰ علىٰ مستوىٰ الإنتاج والإنجاز؛ فإنَّ شيئًا لن يحدث ما لم يأذن الله به، وأنَّ ما حكم الله عليه بالربح أو بالخسارة فلن يكون إلا كما حكم الله به عليه:

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٧٦].

حتمٌ لازم. لأنه خالق كل شيء، فهو القادر أيضًا علىٰ كل شيء.

ألا ترىٰ أنَّ سورة البقرة، من مبتدئها إلىٰ منتهاها، تنبه علىٰ هذه الحقائق؟

ألا ترىٰ أنها في مقدمتها قالت:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [البقرة:٢٢].

وفي منتهاها قالت:

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

واليقين بقدرة الله الباهرة علىٰ كل شيء هو لبُّ الإيمان بالقدَر، الركن الكبير من أركان الإيمان، وبهذا اليقين تزول اضطرابات القدر التي تنهش نفوس البعض، قال الإمام أحمد: (القدَر قُدرة الله)[1].

جاءت سورة البقرة لتعطي تعريفًا صحيحًا بالله تعالىٰ، تعريفًا لا يتفق مع التعريف الوثني ولا التعريف اليهودي ولا التعريف النصراني لمعنىٰ الإله الحق المستحق للعبودية، والذي نقدته سورة البقرة -وآل عمران أيضًا- في الكثير من الآيات.

وتوجت هذا التعريف الصحيح بأعظم آية فيها، بل في القرآن كله، وهي آية الكرسي، التي عظمت بما فيها من تعريف بالله العلي العظيم:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

إلهٌ لا يمكن أنْ يموت أو ينام أو يعجز أو ينسىٰ أو يضعف أو يفتقر.

إلهٌ خلق السماوات والأرض، وملَكهما وحكَمهما ودبر أمرهما وأَمْرَ ما فيهما ومن فيهما، وحفظهما من الزوال والسقوط والخراب والاضطراب، بلا تعب.

إلهٌ يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكُن لو كان كيف سيكون.

إلهٌ يبعث الناس يوم القيامة فيحاسبهم ويجازيهم بأعمالهم، ويبلغ الناس من خضوعهم وذلتهم ما لا يجرؤون معه ولا يملكون أنْ يتقدموا بشفاعاتهم إلا بعد إذنه.

(١) شفاء العليل ١/ ٩٧.

إلهٌ بلغت عظمته إلىٰ أنْ يصف كرسيه بأنه وسع السماوات والأرض، فما هما فيه إلا كالحلقة الملقاة في فلاة من الأرض!

إنه الإله العلي العظيم.

أعِد قراءة سورة البقرة، واستحضر هذا المعنىٰ التوحيدي الكبير في قراءتها، وانظر هل سيختلف الحال؟ أم سيبقىٰ كما هو؟

وتعرف علىٰ الله تعالىٰ من خلال سورة البقرة.

رزقنا الله وإياك حلاوة الإيمان وبرد اليقين.

امتحان العقل والإيمان

أول صفة وصف الله بها المتقين عمومًا -والمهاجرين والأنصار خصوصًا- في كتابه هي إيمانهم بالغيب، أيْ يعترفون به أو يثقون بأنه حق[1]:

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:٢-٣].

قال ابن كثير: (وأما الغيب المراد ههُنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة، ترجع إلىٰ أنَّ الجميع مراد، قال أبو العالية: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله. وكذا قال قتادة بن دعامة.

وقال بعض الصحابة منهم ابن عباس وابن مسعود: أما الغيب فما غاب عن العِباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن)[2].

وهي أمور يتردد في تصديقها الذين يقدسون المادة ويؤلهون العقل.

هم لا يقولون إنَّ العقل إله. ولكنهم يحاكمون كل شيء إليه، فما قبله العقل قبلوه، وما لم يقبله العقل رفضوه، وهذه هو تأليه العقل، لأنه -بهذه الصورة- قد جُعل في منزلة الإله الحاكم، وفي منزلة نصوص الوحي المعصومة، وذلك اعتداء علىٰ الله تعالىٰ، لقد أنساهم الشيطان أنَّ الله تعالىٰ هو الذي أعطاهم العلم؛ بل القليل من العلم:

(١) مفاتيح الغيب ٢/ ٢٥.

(٢) بتصرف: تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٥٧.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٣١].

وهو الذي قال للملائكة:

﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

وهو الذي أجابته الملائكة بقولها:

﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢].

وعلىٰ أي حال؛ فكل ما ذكره السلف والمفسرون من تفسير معنىٰ الغيب فهو موجود في سورة البقرة، فإذا علمتَ أنها من أوائل ما نزل بالمدينة، ولا يزال الإسلام طريًّا بعد، ولا يزال الناس حديثي عهد بدينٍ جديد، ثم تحشد هذه السورة كل هذا الحشد من الغيوب التي لا تدركها الأبصار والعقول، فإنك توقن أنَّ امتحان الإيمان كان عظيمًا، وفي الوقت ذاته تدرك فضل المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ، إذْ لم ينهزموا أمام المحاكمات العقلية، ولم ينقادوا لما أنتجته أفكارهم ومعارفهم.

هل استوقفك التشابه بين فواتح سورة البقرة وخواتمها؟

أولها يخبر عن حقيقة الإيمان وأنه الإيمان بالغيب، وآخرها يثني علىٰ الذين آمنوا بهذا الغيب، فتأمل:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:٣-٤].

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥].

ومثل ذلك التشابه بين فواتح سورة آل عمران وخواتمها، فأولها يذكر إنزال الكتاب، وآخرها يحدثنا عن الذين يؤمنون بالكتاب:

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران:٣-٤].

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٩].

ومن الغيب هذا القرآن العظيم[1]، فالإيمان بأنه نزل من عند الله إيمانٌ بالغيب:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [البقرة:٤].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٦].

يضلهم امتحانًا وابتلاء:

﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾ [البقرة:٤١].

ومن الغيب بدء الخلق، وما فيه من أخبار:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٢٩-٣٠].

---

(١) جامع البيان ١/ ٢٤٢.

وما بعدها من آيات..

فقصة بدء الخليقة وتكوين السماء والأرض، وخلق آدم والشيطان والملائكة، ودخول آدم الجنة وتزويجه وخروجه منها أحداث غيبية نؤمن بصدق وقوعها، لا لأننا شهدناها، بل لأننا نؤمن بالغيب.

ومن الغيب الإخبار عن تاريخ الرسل؛ موسىٰ وعيسىٰ وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وسليمان، وسائر الكوكبة المباركة، ونبينا محمد صلىٰ وسلم الله عليهم جميعًا.

والحديث عن الرسل حديث مرتبط بما أنزل إليهم من الوحي والكتب:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦].

ومن الغيب أخبارهم التي لم نكُن نعلمها، لولا أنَّ الله علمنا إياها، فنحن لم نشهدها..

لم نشهد قصة بناء البيت الحرام علىٰ يد إبراهيم وإسماعيل.

ولم نشهد قصة إبراهيم مع الملك النمرود.

ولم نشهد قصة موت يعقوب عليه السلام.

ولم نشهد قصة البقرة التي أمر الله بذبحها.

ولم نشهد قصة الذين أحياهم الله تعالىٰ بعد ما أماتهم.

ولم نشهد قصة أصحاب السبت.

ولم نشهد قصة طالوت وجالوت.

وغيرها من القصص المنثورة في السورة، وفي سورة آل عمران مثل ذلك كقصة امرأة عمران وولادة مريم وولادة ابنها عيسىٰ والحواريين.

ومن الغيب: الملائكة، فهم عباد الله الذين لا نعلم عنهم إلا ما علمنا الله تعالىٰ ورسوله، بل إنَّ حوارات قصيرة للملائكة ذكرها الله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٢].

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧].

وأخبرنا الله بأسماء أعظم ملائكته:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

ومن الغيب اليوم الآخر وما فيه من أحداث متنوعة وجزاء للمؤمنين والكافرين:

﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٤-٢٥].

وأعظم غيب هو رب العزة سبحانه، والسورتان تحدثتا عن أسمائه وصفاته في الكثير من الآيات، وتحدثتا عن أدلة ربوبيته وألوهيته كذلك، كما سبق الحديث عنه.

ومن الغيب: الشيطان، فقد عرَّفت به السورة، وحذَّرت من سلوك سبيله واتباع إغواءاته.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٣٤].

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:١٦٨].

وأخبرتنا الآيات أنه يعلم الناس السحر وأنه يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء ويخوف المؤمنين:

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [البقرة:١٠٢].

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ ﴾ [البقرة:٢٦٨].

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥].

فهو العدو اللدود وعداوته أبدية، لذا جاءت أفعاله في الآيات السابقة بصيغة المضارع الدال علىٰ الاستمرار والتكرار في الحاضر والمستقبل. ونحن نؤمن بوجوده وبعداوته لأنَّ الله تعالىٰ أخبرنا بذلك.

قال السعدي: (وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر.

إنما الشأن في الإيمان بالغيب الذي لم نرَه ولم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذي يُميَّز به المسلمُ من الكافر، لأنه تصديق مجردٌ لله ورسله.

فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو لم يهتدِ إليه عقلُه وفهمُه، بخلاف الزنادقة المكذبين بالأمور الغيبية، لأنَّ عقولهم القاصرة المقصِّرة لم تهتدِ إليها؛ فكذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرَجت أحلامهم. وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدىٰ الله)[1].

وفي عصر المادة وتأليه الإنسان يتلكأ البعض في الإيمان بالغيب؛ لأنَّ عقله لا يستوعب إمكان وقوعه، أو لأنه يصادم ما يسمىٰ بالعلم الحديث، ولو فعل كما فعل النبي ﷺ وأصحابه وأهل الإيمان من بعدهم لنال الدرجات العليا، ولحصل له الاتزان العقلي. والعقل في وحي الله تعالىٰ له وظائف عبادية مهمة، دل الوحي عليها، وبحسب الاجتهاد فيها ترتفع البشرية أو تهبط، ومنها إعماله في فهم مراد الله من كلامه بالتدبر والاستنباط وتثوير المعاني، ومنها النظر في الوقائع والأحداث وماجريات المجتمعات بغية تقييمها والحكم عليها وفق وحي الله، ولذلك عاب الله علىٰ المشركين جمودهم علىٰ اتباع الأعراف دون تعقل ودون رجوع إلىٰ العلم الصحيح:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٥.

ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ومنها إعماله في آيات الله الكونية، في السماء والأرض، والبحر والنهر، والشمس والقمر، والليل والنهار، والإنسان والحيوان والجماد.. التفكر المفضي إلىٰ العبوديات المختلفة والتي يصبح بها الإنسان خليفة في الأرض:

﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

لكن ليس منها الاستعلاء علىٰ الوحي وتقييمه والانتقاء منه. وسيأتي مزيد بيان لذلك لاحقًا إنْ شاء الله.

إذًا فالإيمان بالغيب من المقاصد الكبرىٰ لسورة البقرة، والتربية القرآنية تمد أفق المؤمن وتوسع إدراكه فتجعل عالمه أوسع من محسوساته، وتجعل تاريخه أكبر من عمره.

الطاعة المطلقة

من أهم الموضوعات التي ثنَّتها سورة البقرة: التسليم للنص والإذعان لأمر الله تعالىٰ.

حقيقة الإيمان أنْ تُسلِم قلبك لله ولرسوله، أيْ تجعله تحت أمر الوحي ونصوص القرآن والسنة وتوجيهها وإرشادها، فلا تفعل شيئًا إلا بدليل -كما يعبِّر السلف بذلك أحيانًا- ولا تسير في حياتك إلا بإرشاد النصوص، وأنْ توقن أنها هداية مطلقة وصواب مطلق ورشاد مطلق، وأنْ تجعلها حاكمة علىٰ أفكارك وتصوراتك وسلوكك وعلاقاتك، وأنْ تكون مصدر تقويمك لكل شيء: الأفكار والمقالات والناس والكيانات والأعمال والأحداث والمواقف والتصورات، وأنْ تخضع لله ولأمره ولدينه ولكتابه ولرسوله ﷺ.

والخضوع -كما ترىٰ- معنىً يحمل في طياته الذل والاستخذاء وانحناء الجسد وتطامن الرأس لهذا الذي تخضع له، وميل الرقبة علىٰ هيئة الذليل المترقب والمسكين الذي يشعر بافتقاره وحاجته لذلك الذي يخضع له، وهو هنا كلام الله تعالىٰ وقرآنه ووحيه.

تلك حقيقة الإسلام وروح الإيمان وفرقان العبودية.

عن أبي هريرة قال: (لما نزلت علىٰ رسول الله ﷺ:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال: فاشتد ذلك علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا علىٰ الركب، فقالوا: أيْ رسول الله! كُلفنا من الأعمال ما نطيق؛ الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: أتريدون أنْ تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

فلما اقترأها القوم، ذلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالىٰ، فأنزل الله عز وجل:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ قال: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ قال: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال: نعم. ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦] قال: نعم)[(١)].

فتأمل أيها المبارك! كيف فهم أصحاب النبي ﷺ الآية الأولىٰ! وكيف اشتد عليهم ذلك!

وتخيل مشهد البروك جماعة علىٰ الركب في حضرة النبي ﷺ!

وتأمل تلك المشاعر المرعوبة من هول التكليف؛ إذ لا مناص من التسليم به!

---

(١) أخرجه مسلم ١/ ١١٥، ح ١٢٥.

وتأمل رد النبي ﷺ عليهم: (أتريدون أنْ تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير). فالنبي ﷺ يحذرهم هنا من الانصراف عن التسليم للنص كما انصرف أهل الكتاب من قبل، ويربيهم على أنَّ الواجب هو السمع والطاعة والتسليم حتى فيما لا تُعقل حكمته وما لا تطيقه النفوس، ولم يحذرهم من الخطرات والوساوس التي نزلت بشأنها الآية.

في حقيقة الأمر أنَّ ذلك هو مقتضى كون القرآن كتاب هداية، مقتضى قول الله في أول سورة البقرة:

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

فلا يهتدي به إلا من أذعن له وخضع لكلماته، كحال إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٥].

فهو النموذج الأروع للتسليم لكلمات الله وتوجيهاتها، وقد أخبر الله عنه أنه أتم ما فيها من العلم والعمل، قال الطبري: (وإتمامه إياهن إكماله إياهن بالقيام لله بما أوجب عليه فيهن)[١]، وقال ابن كثير: (قام بهن كلهن)[٢].

وأخبر الله عن مسارعته في الاستجابة فقال تعالى:

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١].

فبمجرد الأمر بأنْ يسلم أسلم، قال ابن عاشور: (بادر بالفور دون تريث)[٣]. لا يوجد وقت للنظر في حكمة التشريع، ولا توجد سعة لتتبع الأقوال في المسألة، ناهيك بتتبع الرخص ومحاولة الالتفاف على النصوص.

---

(١) جامع البيان ٢/ ٥٠٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٩٥.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٧٢٧.

إنها الطاعة المطلقة لأمر الله.

وهذا مقتضىٰ قول الله تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:١٢١].

قال ابن مسعود: (أنْ يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أُنزل، ولا يُحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئًا غير تأويله). وفي لفظ: (يتبعونه حق اتباعه). وبنحوه روي عن ابن عباس والنخعي ومجاهد وعكرمة وعطاء[1].

وكما بينت سورة البقرة -في باكورة تنشئة الأمة المسلمة الجديدة- الواجب عليها تجاه النص الإلهي والأمر الرباني، وكما ذكرت لنا نموذج إبراهيم في الطاعة له وإتمامه الكلمات، بينت أيضًا حال بني إسرائيل تجاهها، وعلمتنا كيف انحرفوا عن هذه السبيل، محذرة هذه الأمة من سلوك طريقهم الذي لا يؤدي إلىٰ الهداية والرشاد:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

في سورة البقرة بيان وافٍ لما كان عليه المغضوب عليهم، فإنهم كانوا:

﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٧٥].

تأمل!

يسمعونه! لقد عرفوه وفهموه، ولكنهم لغرض ما حرفوا المعنىٰ وأولوا النص متعمدين.

---

(١) انظر الآثار في: موسوعة التفسير المأثور ٢/ ٧١١.

وحين تحايل أهل أيلة -المحتلَّة والواقعة شمال خليج العقبة- علىٰ النهي عن الصيد يوم السبت؛ قاموا بنصب شباكهم يوم الجمعة وأخذوا ما فيها يوم الأحد، فقال تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

إنه تحذير من سلوكٍ كهذا؛ يفضي بصاحبه إلىٰ هذا التهديد والوعيد.

وحين أمرهم موسىٰ عليه السلام بذبح بقرة -هكذا: أي بقرة!- تعنتوا وسألوا في كل مرَّةٍ عن تفاصيل لم يُكلَّفوا بها:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧١].

بعد كلِّ هذا التعنُّت ترددوا في ذبحها!

هذا السلوك هو الذي حرصت سورة البقرة علىٰ أنْ تُحذِّر أصحاب النبي ﷺ منه وهم بعدُ في أول بنائهم للأمة الجديدة في المدينة، وحياتهم الإيمانية الجديدة.

وحين أمر الله تعالىٰ بني إسرائيل أنْ يدخلوا بيت المقدس فاتحين خاضعين خاشعين مستغفرين؛ لم يعجبهم ذلك فعصَوا الأمر ودخلوا ساخرين متكبرين مستهزئين، وبدلوا قولًا غير الذي أمرهم الله، وعملًا غير الذي أراده الله؛ استخفافًا بكلامه:

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٨-٥٩].

والآيات في سورة البقرة التي تتحدث عن الاتجاه السلبي لبني إسرائيل مع نصوص الكتاب كثيرة، إذا تدبرتموها يا أهل القرآن.

التسليم للنص هو مقتضىٰ قوله تعالىٰ في سورة البقرة:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣١].

أيْ لا تتلاعبوا بالأحكام التي جاءت بها النصوص الشرعية. بل التزموا ما فيها وأتموها، وإياكم وتأويلها وفق أهوائكم.

وقد كان الصحابة ﷺ في ذروة السمع والطاعة لكلام الله ورسوله، ومن الأمثلة المشهورة علىٰ ذلك صبرهم علىٰ مشقة الصيام ابتداءً من أحد الوقتين؛ إما من صلاة العشاء وإما حين النوم في الليل قبل صلاة العشاء، ويمتد الصيام إلىٰ غروب الشمس[(١)]، وذلك قبل نسخه وتغيير وقته إلىٰ الابتداء من الفجر إلىٰ غروب الشمس:

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٦٨.

وإنَّ من صوارف التسليم لكلام الله ورسوله، التي ذكرتها سورة البقرة، سلطةَ المتبوعين:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧].

هذا جزاء الذين صدتهم سلطة المتبوع عن طاعة الله المطلقة، لذلك قال السعدي عن هؤلاء التابعين الذين رضخوا لسلطة المتبوعين؛ والذين تعلقوا بهم ورجوهم وخافوهم وأحبوهم: (الذنب ذنبهم)[1]، أيْ أنَّ هؤلاء التابعين يستحقون العذاب جزاءً علىٰ عملهم، فإنَّ كل إنسان مجزي بعمله، وليس له عذر في كونه يقع تحت سلطة متبوع ما، أيًّا كان موقعه ومكانته وقوته.

إنها تربية علىٰ المسؤولية الفردية تجاه النصوص، وتجاه أمر الله تعالىٰ ورسوله ﷺ.

وإنَّ من صوارف التسليم لكلام الله ورسوله إغواءَ الشيطان وتزيينه للباطل، كما فعل مع آدم في قصة أكل الشجرة التي نهي عن أكلها، ولذلك أمر الله تعالىٰ بالحذر من السير في الطريق الذي يحدثه الشيطان:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٢٣.

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة:٢٦٨].

الشيطان يزين للإنسان مخالفة أمر الله، ويجعلها في نظره أصلح حالًا وأحسن عاقبة، ويقبح في تصوره مآل طاعة الله في هذا الأمر، فيوحي إليه أنَّ طاعة الله في ذلك ربما تسببت في فقره، أو عرضته لغضب السلطان، أو أخسرته الصفقة التجارية، أو تسببت في فقد مكانته الاجتماعية، أو نفَّرت الناس منه وصرفت الجماهير عنه، وبنحو ذلك يوحي فيقول: إنَّ الربا ضرورة معيشية، وإنَّ الاختلاط يزيد في الناتج المحلي، وإنَّ صلاة الجماعة تعثر الحركة التجارية، ونحو ذلك.

هذا ونحوه الذي حذر الله تعالىٰ منه أنْ يكون صارفًا عن الطاعة المطلقة لأمر الله، حتىٰ لو أثبتت «الدراسات الحديثة» غير ذلك.

وإنَّ من صوارف التسليم لكلام الله تعالىٰ ورسوله ﷺ التي ذكرتها سورة البقرة علىٰ سبيل التحذير منها، سلطةَ الأعراف والتقاليد والعادات الاجتماعية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٠].

فهم يجعلون للأعراف والتقاليد والقوانين سلطة مضاهية لسلطة الوحي.

ومن صوارف التسليم لكلام الله تعالىٰ ورسوله ﷺ التي حذرت منها السورة ضمنًا، الاحتجاجُ بالعقل في مقابلة النص، وذلك حين أورد البعض شبهة مفادها أنَّ البيع مماثل للربا في الحيثية، وأنَّ شريعة الإسلام تناقضت في التفريق بينهما في الحكم، فبيَّن الله تعالىٰ أنَّ البيع حلال وأنَّ الربا حرام؛ دون أنْ يذكر الفرق بين ماهية البيع وماهية الربا الموجبتين للفرق بينهما، مع كونهما يختلفان في الماهية:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥].

تربية علىٰ التزام النص، حتىٰ عند ورود الشبهات!

قال ابن عاشور: (هو إعراض عن مجادلتهم، إذ لا جدوىٰ فيها، لأنهم قالوا ذلك كفرًا ونفاقًا، فليسوا ممن تشملهم أحكام الإسلام. وهو إقناع للمسلمين بأنَّ ما قاله الكفار هو شبهة محضة، وأنَّ الله العليم قد حرَّم هذا وأباح ذاك، وليس في هذا الجواب كشف للشبهة)[1].

فلاحظ أنَّ الآية تربي المؤمن علىٰ التزام النص؛ حتىٰ وإنْ لم يدرك الحكمة منه.

وقد أشارت سورة البقرة إلىٰ أنَّ هذه المسألة -أعني التسليم لكلام الله تعالىٰ ورسوله ﷺ- تأتي علىٰ رأس مقاصد التشريع، وهذه هي حقيقة الإسلام؛ أنْ تذعن وتستسلم لحكم الله وأمره، فقال تعالىٰ في قصة تحويل القبلة:

﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٣].

قال السعدي: (أيْ شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن من يتبع الرسول ويؤمن به، فيتبعه علىٰ كل حال لأنه عبد مأمور)[2].

فكان أصحاب النبي ﷺ في أعلىٰ درجات التسليم، وقصتهم معروفة إذ جاءهم خبر التحويل في أثناء الصلاة، فتحولوا وهم يصلون!

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٨٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٠٣.

فهل تصدق؟

لم يتعللوا بإتمام الصلاة فيؤخروا التحويل.

وهي صورة مدهشة لمن تأملها، تدل علىٰ تحقق التربية القرآنية في نفوسهم.

تالله لقد صنع القرآن نفوسًا متفردة!

وسأورد لك أثرين أخرجهما البغوي في تفسيره[١] يبينان ذلك:

عن البراء ﷺ أنَّ النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل علىٰ أجداده، أو قال أخواله من الأنصار، وأنه صلىٰ قِبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أنْ تكون قبلته قِبل البيت؛ وأن أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلىٰ معه قوم، فخرج رجل ممن صلىٰ معه فمرَّ علىٰ أهل مسجد قباء وهم راكعون، فقال:

«أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبل مكة». فداروا كما هم قِبل البيت. وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبل المقدس لأنه قبلة أهل الكتاب، فلما ولَّىٰ وجهه قِبل البيت أنكروا ذلك.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينا الناس بقُباء، في صلاة الصبح، إذ جاءهم آتٍ، وقال لهم:

«إنَّ رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أُمر أنْ يستقبل الكعبة فاستقبِلوها».

وكانت وجوههم إلىٰ الشام فاستداروا إلىٰ الكعبة.

لهذا المقصد الكبير جاءت آيات من مثل قوله تعالىٰ:

---

(١) معالم التنزيل ١/ ١١٧.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦].

فالقتال مكتوب وإنْ كان مكروهًا.

ولذلك قرر الشاطبي في أول مسألة في «بيان قصد الشارع في دخول المكلف تحت أحكام الشريعة» أنَّ المقصد الشرعي من وضع الشريعة: إخراج المكلف عن داعية هواه، حتىٰ يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبد لله اضطرارًا[١].

وبعد هذا كله امتحن الله المؤمنين وابتلاهم بنزول الأحكام الشرعية ليذعنوا لما فيها ويخضعوا لتوجيهاتها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣].

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[البقرة:١٩٦].

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[البقرة:٢٢٩].

---

(١) الموافقات ٢/ ٢٨٩.

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٣٣].

والأمة اليوم تواجه امتحانًا في الوصول إلىٰ هذه القناعة، امتحانًا صعبًا للغاية، في ظل الهيمنة الأجنبية علىٰ الحضارة والانتفاش الغربي للعلوم والمعارف وتعدد المرجعيات، تواجه امتحان العبودية في القرن الخامس عشر، والذي يكمن في الإذعان للنص والتسليم لأحكامه، والرضا بتوجيهه، والاقتناع بهداياته؛ وإنْ خالف العقل و«العلم الحديث».

وإذا كانت الأمة المسلمة اليوم متخلفة في المجالات التصنيعية والاقتصادية والعسكرية، فإنها أشد تخلفًا في تمسكها بهدايات الوحي وإرشاداته، وإنها لن تستطيع منافسة الأمم وهي مُعرِضة عن حبل النجاة الممدود بين السماء والأرض، عن الوحي الذي يصلنا بالله تعالىٰ، القادر علىٰ كل شيء والقاهر فوق كل شيء.

هذا أحد أهم منطلقات النهوض: الثقة المطلقة بالوحي والإذعان غير المشروط لإرشاده وهداياته.

فتأمل هذه المسألة وأنت تتلو سورة البقرة، وقل بلسانك وبقلبك أيضًا مثلما قال أصحاب النبي ﷺ: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

هذا الوصف لحالة المؤمنين الإذعانية تجاه الوحي مسبوق في العرض القرآني بوصف الذين غضب الله عليهم من بني إسرائيل، الذين وجههم أنبياؤهم إلىٰ الاستسلام لوحي الله تعالىٰ؛ فكان لهم موقف مغاير:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣].

والبغوي -وغيره من أهل التفسير- يشيرون إلىٰ كون هذا القول تعبيرًا عن حالة مسلكية لدىٰ القوم، فيقول: (قال أهل المعاني: إنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم ولكنْ لما سمعوه وتلقوه بالعصيان، فنُسب ذلك إلىٰ القول اتساعًا)[1].

وهذه الحال أودت ببني إسرائيل في مهاوي التيه والضلال، وألقت بهم في سفوح الخسائر الحضارية، لقد أصبح اليهود بعد رفضهم القلبي للوحي واعتدادهم بذواتهم نشازًا بين الأمم، أصبحوا حواشي في متون الحضارات والدول، وقد كانوا من قبل ذلك متربعين علىٰ عرش الاصطفاء والتكريم.

وفي مستهل سورة آل عمران ينعت القرآن من ضل من النصارىٰ بزيغ القلوب لأنهم يعرفون الحق وتعلموا الكتاب لكنهم يتبعون متشابهه بغير وجه حق:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧].

(١) معالم التنزيل ١/ ٧٧.

الأماني والعمل

من كبرىٰ القضايا التي ناقشتها سورة البقرة: معنىٰ الإيمان.

ما هو؟ وما موقف الناس منه؟ وأين يوجد الصواب في هذه المواقف؟ ذلك أنَّ سورة البقرة تحدثت عن الإيمان عند المنافقين وأهل الكتاب والمشركين والملائكة وآدم والشيطان.

وبينت السورة حقيقة الإيمان الذي يريده الله تعالىٰ، وبه يدخل العبد الجنة، وبه ينجو من النار.

تأمل معي قول الله تعالىٰ في بداية السورة:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:٢-٥].

ستجد أنَّ الله تعالىٰ لم يجعل الإيمان محصورًا في تصديق القلب؛ المتمثل في الإيمان بالغيب والإيمان بالكتب واليوم الآخر، بل قرنه الله تعالىٰ بالأعمال، مثل إقامة الصلاة والإنفاق، بل ستجد أنَّ هذه الأعمال موضوعة في وسط أعمال القلب الإيمانية، بين الإيمان بالغيب والإيمان بما أُنزل، ثم عَقب الله تعالىٰ علىٰ ذلك بأنَّ الذين تتحقق فيهم الصفتان؛ أعني تصديق القلب وعمل الجوارح، هم المهتدون وهم الذين يفلحون في الدنيا والآخرة.

والتفريط في هذه الحقيقة المركبة له وجهان:

الوجه الأول: وجود العمل وغياب التصديق بالقلب. وقد جعله الله تعالىٰ استهزاء ولعبًا ومخادعة وكذبًا ورياءً.

وتحدثت الآيـات عن طائفةٍ من الناس يقولون: إنهم مؤمنون، ويصلون وينفقون وربما يجاهدون مع النبي ﷺ، لكنهم -في قرارة قلوبهم- مكذبون برسالة محمد ﷺ، لا يؤمنون به، ولا تخضع قلوبهم لشريعته، وإنما اضطرتهم الظروف للتظاهر بالإيمان؛ فهؤلاء هم المنافقون، وقد أخبر الله تعالىٰ أنهم غير مؤمنين، لأنهم غير مصدقين، فالعمل والحالة هذه ليس إيمانًا، ولا هو هدىً، ولا يكون أهله من الناجين يوم القيامة:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨].

تأمل.. ينفي عنهم الإيمان.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:٩-١٠].

وهذه الحال لا تنفي عن المنافق جريان أحكام الدنيا عليه بوصفه مسلمًا، فإنَّ قول اللسان وعمل الجوارح يُجري علىٰ العبد أحكام المسلمين في الدنيا، والعبرة بظاهر الناس، ولا يؤاخذون بما تضمره قلوبهم في أحكام الدنيا.

لكن ذلك لا ينجيه من عذاب الآخرة؛ لأنه لم يتحقق فيه معنىٰ الإيمان، فالإيمان حقيقة مركبة من اعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، كما هو معلوم مشهور من أقوال الأئمة والعلماء، وكما هو عليه حال أصحاب النبي ﷺ وسلفنا الصالح.

ومدار الجزاء يوم القيامة علىٰ ذلك.

فإنَّ الله تعالىٰ لا يدخل الجنة إلا من جمع بين التصديق والعمل:

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١٢].

الاثنان معًا.. إسلام الوجه لله وإحسان العمل، لذلك تعرض القرآن بالذم لمن يتصدق رياءً، فهو ينفق من ماله، ويقدم عملًا صالحًا، لكنه لم يصدر عن إيمان في القلب، ولم يكُن الباعث له رجاء الأجر والمثوبة في الآخرة:

﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة:٢٦٤].

قال ابن كثير: (وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله، وإنْ ظهر لهم أعمال فيما يرىٰ الناس كالتراب)[1].

والوجه الثاني للتفريط في حقيقة الإيمان يتمثل في التصديق بالقلب مع غياب العمل!

وإذا كان المنافقون والمراؤون لم ينفعهم العمل لأنهم لم يقروا ولم يصدقوا بقلوبهم، ولم يبتغوا بأعمالهم وجه الله تعالىٰ والدار الآخرة، فإنَّ الله تعالىٰ حكىٰ عن قوم يعرفون جيدًا أنَّ محمدًا رسول الله، لكنهم أبوا أنْ يتبعوه، وأبوا أنْ يعملوا بشريعته، فكانوا من أهل النار:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٦٣.

فهل المعرفة والتصديق بالقلب كافيان في الإيمان؟

تأمل هذا الحوار الذي دار بين عمر بن الخطاب وعبد الله بن سلام:

قال عمر: لقد أنزل الله علىٰ نبيه ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾. فكيف -يا عبد الله- هذه المعرفة؟

فقال عبد الله: يا عمر، لقد عرفتُه فيكم حين رأيته، كما أعرف ابني إذا رأيته مع الصبيان يلعب، وأنا أشد معرفة بمحمد مني بابني.

فقال عمر: وكيف ذاك؟

فقال عبد الله: أشهد أنه رسول حق من الله، وقد نعته الله في كتابنا، وما أدري ما تصنع النساء!

فقال له عمر: وفقك الله يا بن سلام، فقد صدقت وأصبت[1].

وهذه المعرفة تشمل صفته ونعته ونبوته وصدق ما جاء به من عند الله تعالىٰ.

فالمعرفة التامة لا تكفي في تحقق اسم الإيمان علىٰ الإنسان حتىٰ يصدقها العمل؛ والعمل يعني التزام الشريعة في الشعائر والهدي. قال ابن كثير عن أهل الكتاب: (أخبر تعالىٰ أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي ليكتمون الحق، أي: ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ وهم يعلمون)[2]. فلو كان التصديق بالقلب وحده كافيًا في مفهوم الإيمان لكان هؤلاء مؤمنين، ولمدحهم القرآن، ولكنه الكفر، ولذلك ذكر الله تعالىٰ لهم عملًا منافيًا للإيمان استحقوا به الذم، وهو كتمان الحق ورفض الشريعة المحمدية.

---

(١) موسوعة التفسير بالمأثور ٣/ ١٥٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٥.

وفي واقع الأمر فإنَّ اليهود يعتقدون أنَّ معاصيهم لن تكون سببًا في إطالة مدة مكثهم في النار، وأنها لن تكون سببًا لخلودهم فيها كخلود الكافرين فيها:

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠].

فرد الله قولهم عليهم:

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٨٠].

ثم بيَّن الرب تبارك وتعالىٰ حقيقة أَثر العمل في الإيمان وأنه جزء منه وأنه لا يُتصوَّر أنْ يكون إيمانٌ بلا عمل، فقال:

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨١-٨٢].

حضور العمل هنا إلىٰ جوار التصديق ليس به خفاء.

وبيَّن سبحانه أنهم تولوا وأعرضوا عما أمرهم الله به من العمل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣].

فالآية -كما ترىٰ- جعلت ترك العمل من التولي والإعراض.

عن أبي هريرة ﵁ قال: (لما فُتحت خيبر قال النبي ﷺ لليهود: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإنْ كذَبناك عرفتَ كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: مَن أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيرًا

ثم تخلفوننا فيها! فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا)[1].

ومنشأ هذا الاعتقاد هو تحريفهم الذي أشار إليه قول الله تعالىٰ في الآيتين اللتين قبلها:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٧٨-٨٠].

فإنَّ مما حرفوه في كتابهم أنَّ الله تعالىٰ لا يخلدهم في النار، وإنما سيقضون فيها بعض الوقت ثم يخرجون منها ويدخلون الجنة، مهما ارتكبوا من المعاصي والآثام، ما دام أنهم يقرون بالنبوات في بني إسرائيل والكتب التي أنزلت؛ وذلك قبل مبعث محمد ﷺ، وهذا الاعتقاد الفاسد الذي أشاعوه في الناس هو الذي يجعلهم لا يقيمون للعمل وزنه الصحيح، وهو الذي يجرِّئُهم علىٰ الإعراض عن الشرع، وبما أنهم أَمِنوا من المؤاخذة الأخروية إلا أيامًا معدودة؛ فإذًا لن يتوقَّوا الإقدام علىٰ المعاصي ولا ارتكاب المحرمات[2].

إنها محض أماني..

إنها الحيل النفسية التي تعبر بنا إلىٰ الموبقات والمهلكات، التفافًا علىٰ تأنيب الضمير، وإقصاء للنفس اللوامة، وتحييدًا لدور القلب في إصلاح العمل.

---

(١) أخرجه البخاري ٦/ ٣٢٣، ح٥٧٧٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٥٧٩.

إنها إشاحة الوجه عن الحقيقة..

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١١-١١٢].

قال ابن كثير: (ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته؛ وهو من وافىٰ يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار)[١].

وهذا الأمر؛ أعني أنَّ الإيمان حقيقة مركبة من التصديق والعمل، ليس مفهومًا مقصورًا علىٰ الأمة المسلمة فقط، بل هو في جميع الرسالات والأديان: شرط النجاة ومعقد السلامة وسبيل الظفر أنْ تؤمن بالله وتعمل صالحًا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢].

والعمل الصالح هنا هو ما وافق الشريعة التي جاء بها كل نبي في زمنه، فما جاء به موسىٰ في زمنه، وما جاء به عيسىٰ في زمنه، وما جاء به نبي كل قوم في زمنه، حتىٰ مبعث محمد ﷺ، فلما بعث الله محمدًا ﷺ فلا يصح عمل إلا ما وافق شريعته ﷺ. بنحو هذا روي عن السدي وسعيد بن جبير[٢].

ألا ترىٰ أنَّ سورة آل عمران فرَّقت بين مؤمني أهل الكتاب وكافريهم بأنهم أصحاب عمل، كما أنهم أصحاب تصديق ومعرفة:

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٢٧.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١١٢-١١٥].

وسورة البقرة تقرر هذه المسألة بأكثر من طريقة، وتثني مفهوم الإيمان فيها، الإيمان الذي يجمع بين الوجدان والعمل، ليعقل الناس ذلك وليستقر في نفوسهم:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة:٢٥].

وفي سورة آل عمران تأكيدٌ لهذا المعنىٰ:

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٥-١٧].

فهذا الوعد الكريم من الله تعالىٰ بالجنة ونعيمها والخلود فيها، إنما يُبَشرُ به من آمن بقلبه بكل ما جاء الإيمان به، وأتبع ذلك بالعمل الصالح الذي أحبه الله تعالىٰ وأمر به في كتابه وعلىٰ لسان رسوله ﷺ، ما استطاع العامل إلىٰ ذلك سبيلًا:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

لا وجود لإيمان بلا عمل، والذين يقولون: نحن نؤمن بالله ورسوله ﷺ ولكننا لا نعمل كاذبون في ادعائهم، وقد استجابوا لتزيين الشيطان لطريقتهم في التفكير.

بل جاءت سورة البقرة بطريقة عجيبة في تقرير حقيقة الإيمان، وذلك في قصة تحويل القبلة، حين دار حوار في حكم صلاة الذين ماتوا من أصحاب النبي ﷺ قبل تحويل القبلة، فأجابت السورة بقول الله تعالىٰ:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣].

ولم تقُل: صلاتكم. فتأمل مجيء الإيمان محل العمل!

هما شرطان لاكتساب الأجر والرفعة في الجنة والنجاة من النار: إسلام الوجه لله بتوحيده وإخلاص العمل له، وإحسان العمل بأنْ يكون له عمل يوافق فيه ما جاء به الرسول ﷺ. وما عدا ذلك فهو تصور مغلوط عن حقيقة الإيمان، وانحراف الفكر في مسألة الإيمان، لم يأتِ به الرسول ﷺ ولم نتعلَّمه من القرآن. قال أبو العالية: أماني تمنوها علىٰ الله بغير حق[1]. وهاتان سورتا البقرة وآل عمران، اقرأهما بتدبر وحضور قلب، وستجد الأمر في غاية الجلاء والبيان.

وفي تقرير حقيقة الإيمان يقول الله تعالىٰ:

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وإذا تدبرت الآية فستجدها قد جمعت بين عمل القلب وعمل الجوارح في وصف الإيمان، وأكدت ذلك بوصفهم بالصادقين لأنهم صدقوا الإيمان بالعمل، وهذه حقيقة الإيمان؛ أنه مفهوم مركب من التصديق والعمل، يؤثر أحدهما علىٰ

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٦٥.

الآخر، زيادة ونقصًا، ووجودًا وعدمًا، قال الحسن البصري في الآية: (هذا كلام الإيمان، وحقيقته العمل، فإنْ لم يكُن مع القول عمل؛ فلا شيء)[1].

ولذلك شرعت سورة البقرة بعدها في بيان الأحكام الشرعية العملية كالصلاة والصيام والحج والإنفاق والقتال والقصاص وأحكام البيوت وغير ذلك، لأنه لا يكتمل معنىٰ الإيمان -الذي يريد الله تعالىٰ أنْ يعلمنا إياه في سورة البقرة الهادية إلىٰ الصراط المستقيم- إلا ببيان تفاصيل الأعمال المنضوية تحته.

ولو كان تصديق القلب يكفي عن العمل لما حفلت السورة بعشرات الآيات المفصلة والمبينة للأحكام العملية.

ولو كان تصديق القلب يكفي نفعًا لنفع إبليس الذي أبىٰ واستكبر عن طاعة الله.

والآيات التي تقرن العمل بالتصديق في سورة البقرة متعددة، والصحابة فهموا ذلك بهذه الطريقة، لذلك جاؤوا في حديث أبي هريرة إلىٰ النبي ﷺ خائفين، وقالوا: كُلفنا من الأعمال ما نطيق، أي أننا عملنا ما كلفنا الله العمل به طاعة له، ولعلمنا أنَّ الإيمان الذي بايعناك عليه لا يتحقق معناه إلا بالعمل. فأمرهم النبي ﷺ أنْ يقولوا: سمعنا وأطعنا.

وهو ما ذهب إليه الصحابة اعتقادًا وتطبيقًا، وهو ما ذهب إليه التابعون وأئمة السنة من بعدهم تنظيرًا وتقعيدًا: أنَّ الإيمان تصديق القلب وأنَّ عمل الجوارح يصدق ذلك الإيمان أو يكذبه.

أما أواخر سورة آل عمران فقد عمدت في تقرير هذه الحقيقة إلىٰ طريقة تدعو إلىٰ التأمل، إذ نصت علىٰ أنَّ الله تعالىٰ لا يضيع ثواب العاملين في الدنيا:

---

(١) جامع البيان ٣/ ٩٣.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

قد تقول لي: إنَّ إثابة العاملين أمر بدهي!

فسأقول لك: نعم، صدقت، ولكنَّ ذِكر هذه الأعمال في استجابة الله لدعاء المؤمنين جاء عقب ذِكر دعائهم المتضمن إيمانهم وتفكرهم في الخلق:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١) رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ (١٩٢) رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٤].

ففي هذه الدعاء إقرار بالإيمان: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾، وفي استجابة الدعاء أعمال وهجرة وقتال في سبيل الله: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾.

والمراد أنَّ أواخر سورة آل عمران فسرت الإيمان الوارد في الدعاء بالعمل الوارد في الاستجابة؛ إذ لا يمكن عدُّ العمل جزءًا منفصلًا عن الإيمان، ولا شرط كمال له، وإنما هو شرط صحة للإيمان وجزء من تعريفه.

وهذا ما ينبغي للمؤمن فهمه وتصوره.

وهو التصور المستقيم لمفهوم الإيمان؛ خلافًا للمرجئة الذين يفصلون العمل عن مفهوم الإيمان، ويجعلون الإيمان مقتصرًا علىٰ ما يعمر القلب من تصديق ووجدانيات مقرونة بقول اللسان.

وإنَّ المؤمن ليجب عليه الحذر من الوقوع في هذا المزلق، فيهمل العمل ويفرط في الاستقامة ويتساهل في تعاطي المنكرات اتكالًا علىٰ وجدانياته، وشهادته بالتوحيد لله، وأدائه أقل الواجب عليه من الشعائر، فلعل هذا المزلق لا يقف به إلا وادٍ سحيق.

الرسول المطاع

مسألة (الرسول) كانت من المسائلِ المحورية، التي حملها النبي ﷺ معه إلىٰ المدينة بهمهمتها وحواراتها، وصارت الحديث الذي يشغل الناس في المدينة، كما أشغلهم في مكة.

من محمد؟

ما التعريف الذي يصح أنْ نصف به محمدًا؟

هل هذا معقول: رجلٌ نعرفه في صغره، عاش في أوساط الناس، ثم ينزل عليه مَلك من السماء ليأمره أنْ يخبر الناس بأنه رسول من الله، لا إلىٰ قومه فحسب، بل إلىٰ جميع الناس، وجميع الأمم وجميع الممالك؟

بل وإلىٰ الجن كذلك!

وإذا دخلنا المدينة الجديدة -قرية يثرب سابقًا- فهل تستحق شمسه ﷺ أنْ تخفي ضوء النجوم العالقة في سماء المدينة؛ من أسياد الأوس والخزرج والأعراب واليهود؟

وهل سيكون لهذا النبي الجديد سلطان علىٰ كل ذي سلطان؟

من هذا الرجل الذي بعثر رسوم السيادة الجاهلية وانتزع قلائد الملكيات المهترئة؟

من هذا الرجل الذي خفض رؤوس الجميع، مؤمنهم وكافرهم، أمام سيادة الوحي في المدينة؟

ثم ما مصير الزعماء الصاعدين؟ أولئك الذين مكثوا دهرًا يتلقون صنوف التدريب علىٰ سلوك الزعامة ومراسم السلطنة.. إلىٰ أين سيتجه سهمهم؟ هنا امتحان الشهوة.. شهوة الملك أمام سيادة الوحي.

هنا امتحان العبودية الحقيقي.

قال ابن إسحاق: (وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وسيدُ أهلِها عبد الله بن أبي بن سلول، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، لم يجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده علىٰ رجل من أحد الفريقين غيره حتىٰ جاء الإسلام. ومعه في الأوس رجلٌ هو في قومه من الأوس شريفٌ مطاع: أبو عامر عبدُ عمر بن صيفي بن النعمان، أحد بني ضبيعة بن زيد، وهو أبو حنظلة الغسيل يوم أحد، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح، فكان يقال له: الراهب. فشقيا بشرفهما!

أما ابن أُبي؛ فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله برسوله وهم علىٰ ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلىٰ الإسلام ضغن، ورأىٰ أنَّ رسول الله ﷺ قد سلبه ملكًا عظيمًا، فلما رأىٰ قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهًا مصرًّا علىٰ النفاق.

وأما أبو عامر؛ فأبىٰ إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا علىٰ الإسلام، فخرج منهم إلىٰ مكة ببضعة عشر رجلًا مفارقًا للإسلام)[1].

لقد خطف بريق الملك أبصارهم عن شعاع الرسالة!

ولليهود في المدينة شأن آخر..

عن ابن عباس رضي الله عنهما (أنَّ يهودًا كانوا يستفتحون علىٰ الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا

(١) عيون الأثر ١/ ٢٥٥.

ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور: يا معشر يهود! اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته. فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم. فأنزل الله في ذلك من قولهم:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩])[1].

لقد نزلت سورة البقرة في هذه الظروف لتعرِّف بالنبي ﷺ وتبين فضله وماهيته في شريعة الله تعالىٰ، وليكون واضحًا منذ بداية تأسيس الأمة المسلمة أنَّ طاعة النبي ﷺ وتوقيره وإجلاله مما لا يصح الإيمان إلا بها.

وفي سورة آل عمران نص علىٰ اشتراط اتباع الرسول ﷺ لمحبة الله تعالىٰ:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١-٣٢].

هذا هو.. لا يصح الإيمان إلا بالتزام النفس طاعة النبي ﷺ واعتقاد وجوب ذلك، وتوقيره وإجلاله.

وإذا كان إجلال قارئ القرآن والعالم وذي الشيبة المسلم محمودًا في شريعتنا، فكيف بإجلال أعظم رسول وأفضل نبي وأطهر نسمة وأصدق إنسان!

لقد أثبتت سورة البقرة رسالته من طريق الإيمان بالكتاب الذي أنزله الله:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة:٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٨٧.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٩٧].

وتجدها -أيْ سورة البقرة- بعد ذكر قصص الماضين وأخبار الأمم والأنبياء مما يستحيل أنْ يأتي بها علىٰ هذا الوجه غير نبي، تقول:

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٢].

قال ابن عاشور: (خطاب للرسول ﷺ تنويهًا بشأنه وتثبيتًا لقلبه، وتعريضًا بالمنكرين رسالته).

ثم يلتفت ابن عاشور ببراعته البلاغية إلىٰ استلال خيط من دلالات خطاب الله تعالىٰ لرسوله بأنه من المرسلين، فيقول: (وجيء بقوله «من المرسلين» دون أنْ يقول: وإنك لرسول الله، للرد علىٰ المنكرين؛ بتذكيرهم أنه ما كان بِدعًا من الرسل، وأنه أرسله كما أَرسل مَن قبله، وليس في حاله ما ينقص عن أحوالهم)[1].

وتجدها أيضًا تقول:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة:١١٩-١٢٠].

قال ابن عاشور في هذه الآية: (القصدُ منها تأنيس الرسول عليه الصلاة والسلام، من أسفه علىٰ ما لقيه من أهل الكتاب مما يماثل ما لقيه من المشركين، وقد كان يود أنْ يؤمن به أهل الكتاب فيتأيد بهم الإسلام علىٰ المشركين، فإذا هو يلقىٰ منهم ما لقي من المشركين أو أشد، وقد قال: «لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٥٠٣.

كلهم»[1]، فكان لتذكير الله إياه بأنه أرسله تهدئةٌ لخاطره الشريف، وعذرٌ له إذْ أبلغ الرسالة، وتطمينٌ لنفسه بأنه غير مسؤول عن قوم رضوا لأنفسهم بالجحيم)[2].

فتأمل.. ما أكرم هذا النبي علىٰ الله تعالىٰ!

يواسيه ويسليه ويعزيه ويهدئ خاطره ويطمئنه. ومن التنويه بشأنه ﷺ بيان عناية الله تعالىٰ بأحواله:

﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ [البقرة:١٤٤].

قد نرىٰ تقلب وجهك في السماء يا محمد.

إننا رأيناك وأنت تنظر في السماء.

رأيناك وأنت تنتظر تلبية رغبتك.

وعلمنا حنين قلبك إلىٰ الكعبة.

وعلمنا هواك في استقبالها عند الصلاة.

وعلمنا نظرتك في ارتباط أمة الإسلام بالمسجد الحرام.

وإننا لنحبك يا محمد.

نحب كرامتك، ونحب رضاك. وإنك لكريم لدينا. وإنك لبأعيننا. فلنولينك قبلة الكعبة التي تحبها وترضاها.

فهل رضيت يا محمد؟

---

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٤٠٠، ح٣٩٣٣.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٦٩١.

ووالله الـذي لا إله إلا هو؛ إنَّ هذه الآيـة وحدها لتكفي في التنويه بشأن نبينا الكريم ﷺ، وتربية الناس علىٰ توقيره وحبه واتباعه؛ لو تأمل الناس كل هذا الاسترضاء الإلهي له وكل هذا الحب لجنابه.

وإنه واللهِ لهو الرسول الكريم والعظيم، الذي يكون من شأنه أنَّ الله تعالىٰ -من فوق سبع سماوات- يقول له: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾!

كل النياشين المعلقة علىٰ صدور العظماء صارت بلا معنىٰ.

وكل الألقاب العلمية التي تزاحم الأسماء تلاشت.

وكل الثناءات التي سُودت بها الصحف والدفاتر لا شيء.. عند قول الله ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾.

فهل رضيت يا محمد؟

هل أسعدك أننا نحول القبلة لهواك؟

هذا هو كرم الله تعالىٰ إذا أحب عبده.

ألم يقُل في الحديث القدسي: (وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن؛ يكره الموت وأنا أكره مساءته)[1].

واللهِ إنَّ هذا لخبرٌ صِدق، وإنَّ الله إذا أحب عبدًا فليس لإكرامه له وحفظه ومعيته منتهىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري ٧/ ٤٧، ح٦٥١١.

فواأسفىٰ إنْ حُرمنا محبة الله!

ويا لوعة الأكباد إنْ خسرنا معية الله وقربه.

وأي خسارة تعدل خسارة الحب الإلهي!

فاللهم أصلح أحوالنا، وأسبغ علينا من جودك وكرمك ما يقربنا منك.

ومرة أخرىٰ يبين الله تعالىٰ لنا عنايته بأحوال النبي ﷺ فيقول في آل عمران:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٢١].

فلقد رأيناك في صبيحة يوم السبت في النصف الثاني من شهر شوال للعام الثالث من هجرتك..

رأيناك وأنت تنزل المؤمنين منازلهم في القتال، وتقسمهم جماعات، فمنهم الميمنة ومنهم الميسرة ومنهم القلب ومنهم الرماة علىٰ الجبل..

رأيناك، وسمعنا تلاوتك عليهم تعاليم المعركة، وسمعنا ما قاله الناس حينها.

وعلمنا ما أخفته نفوسهم من أفكار ومخايل ومن أشجان أيضًا.

والله سميع عليم.

والله سبحانه -في سورة البقرة- يذكر مشركي العرب وأهل الكتاب بأنَّ محمدًا هذا إنما هو دعوة إبراهيم عليه السلام، إبراهيم الذين طالما تفاخروا علىٰ الناس بأنهم أتباعه، ألم يقل إبراهيم في دعائه:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

واستجاب الله تعالىٰ لخليله إبراهيم هذه الدعوة المباركة، فعمَّ نفعها ودام فضلها، وبعث الله محمدًا الصادق الأمين، فكان من شأنه أنْ يكون هو وأصحابه وأتباعه أحق الناس بالانتساب إلىٰ إبراهيم ودعوته ودينه، وأصدق الناس في اتباعه:

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨].

ويذكِّر الله تعالىٰ المؤمنين بأنَّ رسوله ﷺ نعمة تستحق دوام الشكر:

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢].

اذكروني واشكروني إذْ أنعمت عليكم برسالة محمد ﷺ.

محمد الذي -منذ أنْ جاءه الأمر بالتبليغ- وهب حياته وماله ووقته في تلاوة القرآن علىٰ الناس، وتعليمهم معانيه وأحكامه وآدابه، وتزكية نفوسهم بهداياته، ومنهجة حياتهم بتعاليمه.

قال ابن إسحاق: (لقد منَّ الله عليكم يا أهل الإيمان، إذ بعث فيكم رسولًا من أنفسكم، يتلو عليكم آياته، ويزكيكم فيما أحدثتم وفيما عملتم، ويعلمكم الخير والشر لتعرفوا الخير فتعملوا به والشر فتتقوه، لتستكثروا من طاعته، وتجتنبوا ما سخط منكم من معصيته، فتتخلصوا بذلك من نقمته، وتدركوا بذلك ثوابه من جنته، وإنْ كنتم من قبل في عمياء من الجاهلية، لا تعرفون حسنة ولا تستغفرون من سيئة، صم عن الحق، عمي عن الهدىٰ)[1].

---

(١) جامع البيان ٦/ ٢١٣ و«تستغفرون» في طبعة شاكر، أما في طبعة هجر فهي «تستغيثون».

وقال الزجاج: (بعث الله محمدًا ﷺ رسولًا وهو رجل من الأميين لا يتلو كتابًا ولا يخطه بيمينه، وبعثه بين قوم يَخبُرونه، ويعرفونه بالصدق والأمانة، وأنه لم يقرأ كتابًا ولا لقِنه، فتلا عليهم أقاصيص الأمم السالفة، والأنبياء الماضية، لا يدفع أخبارَه كتابٌ من كتب مخالفيه، فأعلم الله أنه منَّ علىٰ المؤمنين برسالة من قد عُرف أمره، فكان تناول الحجة والبرهان وقبول الأخبار والأقاصيص سهلًا من قِبله، وفي ذلك أعظم المنة)[1].

واطرح علىٰ نفسك ومن حولك هذا السؤال:

ماذا لو لم يُبعث محمد ﷺ؟

ماذا لو بقيت البشرية علىٰ ما هي عليه قبل أنْ يُبعث؟ أيُّ تيهٍ ستقبع فيه؟ أيُّ قاعٍ سيبتلعها؟ أيُّ ضياع سيلفها؟

لكن الرحمة الإلهية أوقفت الضياع البشري، وأعلنت انبعاث النور في وسط الظلمات.. كان ذلك ببعث الرسول محمد ﷺ.

وسوف يكون هذا الرسول شهيدًا علىٰ إبلاغ أمته وتعليمهم يوم القيامة:

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة:١٤٣].

والله تعالىٰ ينهىٰ الصحابة عن سلوك مسلك أهل الكتاب مع أنبيائهم من الاقتراح عليهم، والتعنت بطلب المعجزات والآيات وامتحان صِدقه:

﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة:١٠٨].

أيْ أنَّ الواجب هو اتباعه وطاعته المطلقة.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٨٧.

وفعلًا.. سار الصحابة علىٰ هذا الأمر الصالح من حسن الاتباع والطاعة له ﷺ:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وهكذا ثنت سورة البقرة الحديث عن رسولنا الكريم ﷺ، لتقول لأهل الإيمان: إنه يجب عليكم توقيره وإجلاله وتعظيم أمره ونهيه وطاعته الطاعة المطلقة.

وكذلك فعلت سورة آل عمران، فهي تجعل اتباع النبي ﷺ دليلًا علىٰ حب الله:

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١-٣٢].

وأشادت بالمستوىٰ الأخلاقي الذي وفق الله تعالىٰ نبيه للوصول إليه في قيادته لأصحابه وترؤسه علىٰ المدينة:

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

أي: برحمة الله لك ولأصحابك، منَّ الله عليك أنْ ألَنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك[١].

ومن الواجبات التي رسمتها سورة آل عمران تجاه نبينا ﷺ: نصرته ونصرة دينه ومنهجه، وقد حظيت آل عمران بجزء كبير منها في الحض علىٰ الجهاد في سبيل نصرة دين الرسول، وأثنت علىٰ الصحابة الذين نصروه ووقفوا معه في صف القتال

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٥٥.

وجاهدوا معه، علىٰ الرغم مما وقع من أخطاء، وأعلت من شأن الذين قُتلوا في تلك المعركة وتساقطوا بين يدي الرسول ﷺ دفاعًا عنه:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٤].

الشهادة في سبيل الله شهادةٌ علىٰ صدق الاتباع والتزام الطاعة.

الشهادة في سبيل الله دليل علىٰ الحب الصادق، الذي يفدي فيه المحب محبوبه بروحه.

الشهادة في سبيل الله صفقة لا تعرف الخسارة، بل ولا ترضىٰ إلا بأجلِّ المكاسب.

إنها التذكرة المباشرة لصعود درجات الجنة.

وهي الممحاة التي تمحو ذنوب العبد مع ربه.

وهي القربان البشري لنيل الرضوان الأكبر.

حتىٰ وإنْ مات الرسول ﷺ في المعركة، فإنَّ آل عمران حثت المؤمنين علىٰ الثبات، وعلىٰ الاستمرار في طريق الجهاد والمجاهدة، وهذا من تمام شكر الله تعالىٰ علىٰ نعمة الرسول الذي أنقذهم الله به من حفرة النار:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

وقد ظهر سمو أصحاب النبي ﷺ، وظهر صدق إيمانهم وحبهم حين استجابوا للرسول ﷺ وخرجوا معه لملاحقة المشركين في حمراء الأسد، فورًا عقب وقعة أحد، ولما يتعافوا بعد من جراحهم، وكيف توجع الجراح مَن كانت روحه في كفه! يبذلها لمحبوبه متىٰ شاء وأنىٰ شاء:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٢].

هذه حقيقة التقوىٰ والإحسان..

فلله تلك النسمات الطاهرة المحبة، التي أصابها القرح والجرح، ثم استجابت غير عابئة بحديث النفس ولا بنزغات الشيطان ولا بصراخ الجسد المجروح.

والإيمان بالرسول ﷺ ونصرته ليس أمرًا حادثًا ولا شرعًا جديدًا، بل هو منصوص عليه في كل الشرائع وعليه أُخذ الميثاق علىٰ جميع الأنبياء:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:٨١-٨٢].

فاللهم أوزعنا شكر نعمة الرسول ﷺ وأعنا علىٰ الوفاء بحقه علينا.

سفهاء المدينة

مما عجبت منه في كتاب الله تعالىٰ أنْ يكون الحديث عن المنافقين مما افتُتح به القرآن الكريم عمومًا، ومما افتُتحت به سورة البقرة خصوصًا، فإنَّ المولىٰ تبارك وتعالىٰ لما ذكر صفات المؤمنين المتقين في أولها في ثلاث آيات، عطف عليها ذكر الكافرين بإيجاز في آيتين فقط، ثم ذكر المنافقين وأحوالهم وصفاتهم، حتىٰ لكأنك تراهم رأي العين في ثلاث عشرة آية متتابعة، كلها عبارة عن إعلان حرب عليهم بفضحهم وكشف خباياهم وبيان ضلالتهم:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨].

من الناس.. هكذا.

أيْ من الناس الذين هم بجوارك في مدينتك يا محمد.

بل هم من الأوس والخزرج، القبيلتين اللتين آمنتا بك، ومن كان علىٰ هذا الأمر من غيرهم.

قال أهل التفسير قاطبة: المنافقون. وقال ابن جريج: (هذا المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه)[١].

ثم زال عجبي من هذا الاستفتاح حين قرأت كلامًا لأبي الفداء ابن كثير يقول في حكمة ذلك: (لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فسادٌ عريض من عدم

---

(١) جامع البيان ١/ ٢٧٧.

الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار: أنْ يُظنَّ بأهل الفجور خير)[1].

وهو كلام خير مهم لابن كثير يحسن تأمله.

وهذا يعني أنَّ علىٰ المؤمنين -حتىٰ وهم في مبدأ أمرهم- أنْ يكونوا علىٰ حذر من المنافقين، علىٰ حذر من الذين لجؤوا إلىٰ التظاهر بالإيمان أمام الناس، خوفًا من سطوة الأحكام الشرعية المتعلقة بالكفر، لأنَّ هذا التظاهر يخفي سلوكًا عمليًّا في الصد عن الدين وكراهية الإسلام والإيقاع بأهله، فوجب علىٰ المؤمنين أنْ يكونوا علىٰ بينة من أمرهم وألا يكونوا محلًّا قابلًا لخديعتهم ومكرهم.

وهل ظهر النفاق في أول مهاجر رسول الله ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة؟

نعم، هو كذلك، وهذا أمر طبيعي في نشأة الأمة المسلمة وتكوين المجتمع المسلم، أنْ تتشكل فيه جيوب خبيثة وخلايا سرطانية، تحارب الإسلام خفية وتعادي أهله في الظلام.

وقد امتنع الطبري من التعريف بأسمائهم وسرد تفاصيلهم خشية التطويل، لكن ذكرهم بأسمائهم غير واحد، مثل ابن إسحاق في السيرة، إذ ذكر أسماء المنافقين في كل بيت من بيوت الأوس والخزرج.

قال الطبري: (إنَّ الله لما جمع لرسوله محمد ﷺ أمْره في دار هجرته، واستقر بها قراره، وأظهر الله بها كلمته، وفشا في دور أهلها الإسلام، وقهر بها المسلمون من فيها من أهل الشرك، وذل بها من فيها من أهل الكتاب.. أظهرَ أحبارُ يهودِها لرسول الله ﷺ الضغائن، وأبدوا له العداوة والشنآن حسدًا وبغيًا، إلا نفرًا منهم هداهم الله للإسلام، وطابقهم -سرًّا- علىٰ معاداة النبي ﷺ وأصحابه وبغيهم الغوائلَ قومٌ

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٧٤.

من أراهط الأنصار، قد سُموا لنا بأسمائهم، كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم وأنسابهم، وظاهَرُوهم علىٰ ذلك في خفاء، حِذارَ القتل والسِباء من رسول الله ﷺ وأصحابه، وركونًا إلىٰ اليهود، لما هم عليه من الشرك وسوء البصيرة بالإسلام)[1].

لقد كان مَقْدم الصحابة المهاجرين إلىٰ المدينة ومعهم الرسول الكريم ﷺ إيذانًا بوجود عدوٍّ جديد، أخبرت عنه سورة البقرة.

ليس العدو الجديد كالعدو الذي كان بمكة من المشركين الواضحين والأقوياء أيضًا. بل هو عدو من داخل بيوت المسلمين، يجلس علىٰ موائدهم وينام علىٰ فرشهم. عدو يقترب منك، يراك في كثير من يوميات حياتك، يعرف نمط معيشتك، يرصد سير أفكارك. عدو رافض لسلطة الوحي وحكم الشريعة علىٰ شؤون حياته، لا سيما والأمة المسلمة الجديدة تتهيأ لتطبيق حزمة من التشريعات والتنظيمات التي ستأتي بها سورة البقرة لاحقًا، كتلك التشريعات المتعلقة بالمال والبيوت والعلاقات والشعائر.

ثم إنَّ سورة البقرة ذكرت من صفات المنافقين: أنهم يفسدون في الأرض، بكفرهم ومعاصيهم وكراهيتهم للدين، فيرىٰ ذلك مَن حولهم من أهل بيوتهم وقرابتهم، فينصحونهم بترك ذلك والإقبال علىٰ ما جاء به النبي ﷺ فيصرون ويقولون:

إننا مصلحون!

وطريقنا هو الطريق الصحيح! وما نفعله هو الأفضل لمجتمعنا!

إننا نريد أنْ ننتشل المجتمع من سكة التيه ودروب الخراب! وأنتم واهمون بأنَّ هذا الدين سيصلح حالكم في الدنيا!

---

(١) جامع البيان ١/ ٢٧٧.

قال الطبري: (فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يُقبَل من أحدٍ عملٌ إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والرَّيب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله علىٰ أولياء الله، إذا وجدوا إلىٰ ذلك سبيلًا. فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها)[1]. وحسبانهم هذا لعله ما يفسر دأبهم في الصد عن دين الله:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

وهنا إشكال نفاقي عميق، أعني الحبل السري الذي يصل المنافقين من الأمة بأعداء هذه الأمة من خارجها! فمن طبيعة النفاق أنْ يمد صاحبه يده لليهود والنصارىٰ في مواجهة العدو المشترك، وهو الإسلام وأهله:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

فثمة شياطين إنسية يخلو بها المنافقون، قال قتادة وبنحوه أبو مالك وأبو العالية والسدي والربيع بن أنس: (رؤوسهم وقادتهم في الشرك والشر). وعن ابن عباس: (اليهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول ﷺ)[2]. وقد علق ابن كثير علىٰ كلام الطبري السابق فقال: (وهذا الذي قاله حسن، فإنَّ من الفساد في الأرض اتخاذُ المؤمنين الكافرين أولياء)[3].

---

(١) جامع البيان ١/ ٢٩٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٨٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٨٠.

المنافقون لا يسرهم إقصاء الكافرين، لا يـودون رؤيـة أهل الشرك والشر منبوذين في المجتمعات الإسلامية، ومحبتهم لهم وقربهم منهم يجعلهم ينسجون الحيل للتقريب بين الفريقين، أهل الإيمان وأهل الشرك والشر، فلذلك يرفعون شعار الإصلاح:

إنما نحن مصلحون!

أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء[1].

والآيات تجلي رؤيتهم للإيمان وأهله:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٣].

فالإيمان -من وجهة نظرهم- خفة في العقل، وقرار التحول من الشرك إلىٰ الإسلام ضعف في الرأي، والالتحاق بركب الإيمان انضمام إلىٰ قائمة السفهاء الذين ضل تفكيرهم.

أتريدوننا أنْ نكون مثل سفهاء القوم؟!

وهم يقصدون بذلك أصحاب النبي ﷺ من قريش والأوس والخزرج وغيرهم ممن آمن حقيقة.. لكن هذا القول إنما يقال خفية، في الغرف المظلمة، وفي منأىٰ عن المسلمين. قال ابن عاشور: (قصدوا منه التبري من الإيمان علىٰ أبلغ وجه! وجعلوا الإيمان المتبَرأ منه شبيهًا بإيمان السفهاء؛ تشنيعًا له وتعريضًا بالمسلمين بأنهم حملهم علىٰ الإيمان سفاهة عقولهم)[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٨٠.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٢٨٧.

لكن إفسادًا آخر للمنافقين، ذكرته سورة البقرة عقب الحديث عن الصيام والحج:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦].

وقد ذكر بعض المفسرين أنها نزلت في معينين من المنافقين، إلا أنَّ قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغيرهم قالوا: هي عامة في المنافقين كلهم. قال ابن كثير: وهو الصحيح[1].

وقد أضافت الآيات السعي في الأرض بالإفساد وإهلاك الحرث والنسل والغضب من الإرشاد ورد الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وهذا الإفساد أراد الله قدرًا وشرعًا أنْ يكون في أهل الإيمان مَن يتصدون له ويدافعونه ولو أُهدرت أنفسهم في سبيل ذلك:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِى نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ﴾ [البقرة:٢٠٧].

وحين مرَّ علىٰ هذه الآيات حبر الأمة ابن عباس قال: اقتتل الرجلان[2]. أيْ ذلك المنافق وهذا المؤمن.

إنَّ المؤمنين الصادقين لا يتركون وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنَّ تركها يُعبِّد الطريق لأهل النفاق.. طريق الإفساد وإهلاك الحرث والنسل.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٢٦.

(٢) جامع البيان ٣/ ٥٨٨.

وهؤلاء السفهاء من الذين نافقوا سجلت عليهم سورة البقرة موقفًا سيئًا، حين نزل تحويل القبلة من بيت المقدس إلىٰ الكعبة، وقد أذعن الصحابة في موقف عظيم خالد لهذا التوجيه الرباني، أما المنافقون فقال الله تعالىٰ عنهم:

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:١٤٢].

يقولون: ما بال هؤلاء غيروا اتجاه القبلة؟!

يقولون: ما هذه الشريعة التي تتغير وتتناقض وتلغي بعض نصوصها حكم البعض الآخر؟!

وشارك المنافقين في هذا القول كلُّ سفيه من مشركي العرب ومن اليهود أيضًا.

وعلىٰ الرغم من أنَّ الله وسمهم بالسفه وضعف الرأي هنا ومن قبل؛ فإنه نقض مقولاتهم وردَّ كلامهم وناقش شبههم التي يوردونها كل مرة، وهذا يدل علىٰ أنَّ مدافعة أقوالهم في الأمة المسلمة ذات أهمية، وإنْ كانوا سفهاء، أو كانت مقولاتهم ضعيفة الاحتجاج، لأنَّ العبرة بنفاذ الكلمة وتأثير الشبهة، وليست العبرة بمكانة من يوردها. ولذلك اعتادت أمة الإسلام التصدي للمقالات والشُّبه والأفكار المخالفة، عبر العصور والقرون.. وهذا الواجب المعهود.

وفي سورة البقرة ذِكرٌ لبعض صفاتهم، منها المشاركة في أعمال المسلمين رياء:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤].

وفي سورة آل عمران ذكرت الآيات دور المنافقين الكبير في تخذيل المؤمنين عن القتال في سبيل الله والدفاع عن بيضة الإسلام في غزوة أحد:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٨].

قال الطبري: (يعني بذلك عبد الله بن أبي بن سلول المنافق وأصحابه، الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، حين سار نبي الله ﷺ إلىٰ المشركين بأحد لقتالهم، فقال لهم المسلمون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم، ولكُنا معكم عليهم، ولكن لا نرىٰ أنه يكون بينكم وبين القوم قتال. فأبدوا من نفاق أنفسهم ما كانوا يكتمونه، وأبدوا بألسنتهم بقولهم: «لو نعلم قتالًا لاتبعناكم» غير ما كانوا يكتمونه ويخفونه من عداوة رسول الله ﷺ وأهل الإيمان به)[١].

فهم -كما ترىٰ- يحاولون إيهام الناس أنَّ المشركين الذين أعدوا العدة وجهزوا الجيش واستنفروا الناس وخرجوا إلىٰ المدينة لن يقاتلوا المسلمين، ويوردون في ذلك الحجج المنطقية كما يزعمون، ثم لا يكتفون بذلك، فينسحبون من جيش المسلمين، ويقفلون راجعين إلىٰ بيوتهم، قال القرطبي: (أيْ بيَّنوا حالهم، وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون، فصاروا أقرب إلىٰ الكفر في ظاهر الحال، وإنْ كانوا كافرين علىٰ التحقيق)[٢].

---

(١) جامع البيان ٦/ ٢٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٧١.

وهكذا تجد سورتي البقرة وآل عمران تثني الحديث عن المنافقين، لتبصر المؤمنين بحالهم، وليكونوا علىٰ يقظة من أقوالهم وأفعالهم.

حتمية الابتلاء

بعد ما يزيد علىٰ عشر سنوات علىٰ مبعث الرسول ﷺ في مكة..

وبعد تلك الليالي المتجهمة، والأقبية الموحشة، والأغلال الموثقة..

وبعد كل الذكريات الأليمة، والعذابات الطويلة..

بعد سنواتٍ من الجوع والخوف والضرب والسجن والقتل والتهجير والحصار؛ كل ذلك بسبب الإيمان، والثبات علىٰ هذا الإيمان..

بعد ذلك كله اكتمل عِقدُ المهاجرين المكيين الذين قدموا إلىٰ مدينة الأنصار، بقدوم سيدهم محمد ﷺ، وعندها استطاعوا أنْ يبنوا مسجدًا، وأنْ يظهروا دينهم، وأنْ يناجزوا عدوهم، وأنْ يفرضوا حكمهم علىٰ أهل الكتاب في المدينة.

فهل انتهىٰ زمن الآلام والأنين؟ وهل انتهىٰ عصر الأقبية والحديد؟ وهل انقضت فترة التعذيب والإيذاء والتخويف؟ هل حقًّا لن ترجع تلك المعاناة وذلك الابتلاء؟ هل كانت الهجرة إلىٰ المدينة إعلانًا لنهاية الابتلاءات؟

كلا.. لم تنتهِ المعاناة.

قال عطاء: (لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة اشتدَّ عليهم الضر، لأنهم خرجوا بلا مال، وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ، وأسرَّ قومٌ النفاق، فأنزل الله تعالىٰ تطييبًا لقلوبهم: أم حسبتم)[1]. وهي قوله تعالىٰ:

(١) معالم التنزيل ١/ ٢٠١.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤].

فهذه الآية الكريمة إعلام بحتمية الابتلاء.

والبأساء آفات المال، والضراء آفات البدن، والزلزلة شدة الخوف. قال ابن كثير: (وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة ﷺ في يوم الأحزاب؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب:١٠-١٢])[1].

ولا يعني كون يوم الأحزاب مثالًا كبيرًا لهذا الابتلاء انتفاءً له في غيره، فإنَّ الصحابة ﷺ ابتلوا في بدر وأحد كذلك، وفي غيرها من المواطن.

وعلىٰ أي حال فإنَّ سورة البقرة أجابت عن ذلك السؤال صراحةً هنا، ومن قبل قالت:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٣-١٥٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٣٧.

قال البغوي: (أيْ ولنختبرنكم يا أمة محمد، واللام لجواب القسم، تقديره: والله لنبلونكم)[1]. فهذا قسم من الله جلَّ شأنه علىٰ حتمية وقوع الابتلاء لهذه الأمة، فلتكُن الأمة متهيِّئة له، مستعدة لصنوف المعاناة.

وقال السعدي: (أخبر تعالىٰ أنه لا بد أنْ يبتلي عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالىٰ في عباده؛ لأنَّ السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها محنة لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر؛ هذه فائدة المحن)[2].

والشهادة في سبيل الله مسألة حسمت كل الحسابات، وجعلت المؤمن الذي يبتلىٰ بالأذىٰ والتعذيب والقتل في حلٍّ من أسباب الخسران والهلاك، وهذا هو الفارق بين ابتلاء المؤمن وابتلاء الكافر، وهو الفارق بين قتل المؤمنين وقتل الكافرين، وقد ظن المشركون والذين لا يوقنون أنَّ الحسابات المادية تسري علىٰ هذه المسألة، ولكن القرآن يقول: كلا. والنبي ﷺ علم أصحابه عقب هزيمة أحد أن يقولوا للمشركين: لا سواء. قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

حسابات المؤمنين تختلف عن حسابات المشركين والمنافقين، لذلك يقدم المؤمن روحه في سبيل الله رخيصة، يشتري بها حب الله تعالىٰ وجنته ورضوانه:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٢].

---

(١) معالم التنزيل ١/ ١٢٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١١٤.

يا لجمال المصير، ويا لعظمة المآل!

وقد ضربت سورة البقرة مثالين للابتلاءِ في بني إسرائيل:

أحدهما مجمل، وهو ابتلاء أمة بمجموعها، وهم بنو إسرائيل في مصر، إذ يسلَّطُ عليهم القبط بحكامهم الفراعنة، حتىٰ انقضىٰ أجل البلاء العظيم بغرق فرعون وجنوده في البحر، ونجاة بني إسرائيل من شرهم، وذلك في العاشر من شهر المحرم:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٤٩].

قال ابن كثير: (وذلك أنَّ فرعون -لعنه الله- كان قد رأىٰ رؤيا هالته، رأىٰ نارًا خرجت من بيت المقدس، فدخلتْ دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أنَّ زوال ملكه يكون علىٰ يدي رجل من بني إسرائيل. ويقال: بل تحدث سُمَّاره عنده بأنَّ بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم؛ يكون لهم به دولة ورفعة، فعند ذلك أمر فرعون -لعنه الله- بقتل كل ذي ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأنْ تُترك البنات، وأمَر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأراذلها)[(١)].

والابتلاء الآخر الذي ذكرته سورة البقرة كان مفصلًا، وهو ما حدث للملأ من بني إسرائيل من بعد موسىٰ عليه السلام بدهر طويل، في زمن داود عليه السلام كما نصت الآية، قال ابن كثير: وكان بين داود وموسىٰ ما ينيف عن ألف سنة والله أعلم[(٢)]:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٩٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٣٢.

وخلاصة القصة أنَّ بني إسرائيل كانوا في حالٍ مغلوبين مقهورين فيها، ومكثوا علىٰ ذلك دهرًا، بلا ملك يقود جيوشهم ضد عدوهم، فطلبوا من أحد أنبيائهم أنْ يقيم لهم مَلكًا يقاتلون معه أعداءهم، فقال لهم نبيهم: هل عسيتم إنْ أقام الله لكم ملكًا، ألا تفوا بما التزمتموه من القتال معه؟ فأكَّدوا له عزيمتهم.

فكان الامتحان الأول أنَّ الله عيَّن لهم ملكًا هو طالوت.

وطالوت لم يكُن من بيوت الملوك ولا الوجهاء ولا الأغنياء، بل كان فقيرًا، فاعترض بنو إسرائيل علىٰ تعيينه ملكًا، فكان ذلك أول إخفاق في هذا الامتحان.

قال نبيهم: إنَّ الله هو الذي اختاره لكم ولست أنا! والله يعلم أنه أفضل منكم في العلم والمعرفة والقوة البدنية وبهاء المنظر، وأنَّ هذا حكم الله، فسلموا له وارضوا به واعملوا به.

فأصبح طالوت ملكًا عليهم، وأيده الله بالآيات، فلما عبَّأ الجيش لمناجزة العدو لم يخرجْ معه إلا القليل، إذ لم يوفِ الجميع بما وعدوا به ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

وكان عِداد جيش طالوت الذي خرج معه ثمانين ألفًا كما ذكر السدي[1]، فلما مروا علىٰ نهر الشريعة بين الأردن وفلسطين؛ قال لهم طالوت مختبرًا عزائمهم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وهذا ابتلاء السراء الذي تتزلزل عنده العزائم، وترتخي له المشاعر.

إنَّ من أشد ما يبتلىٰ به أهل الإيمان إقبال الدنيا عليهم وفتح أبوابها لهم، فأما الذين يشربون من نهرها فلا يرتوون فإنَّ قلوبهم تنسىٰ اليوم الآخر، وإنَّ نفوسهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٣٦.

تتلهىٰ عن الإقدام والمخاطرة، وإنَّ عزائمهم لترتخي عن الصبر والجلد، أما الذين يأخذون منها ما يبلغهم إلىٰ الآخرة ويتقون الله فيها ويراقبون قلوبهم فيحبسونها عن الشغف بها فهم القادرون علىٰ الإقدام المخاطرة، وهم القادرون علىٰ حمل الرسالة ومواصلة العمل.

ونبينا ﷺ أخبرنا عن هذا الملمح المهم فقال لأصحابه: (أظنكم سمعتم أنَّ أبا عبيدة قدِم بشيء! فأبشروا وأمِّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشىٰ عليكم، ولكني أخشىٰ أنْ تُبسط عليكم الدنيا كما بسطت علىٰ من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم)[1].

وقد روىٰ البخاري عن البراء قال: (كنا أصحاب محمد ﷺ، نتحدث أنَّ عدة أصحاب بدر علىٰ عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، ولم يجاوزْ معه النهر إلا مؤمن؛ بضعة عشر وثلاثمئة)[2]. وقال السدي وابن عباس: بل جاز معه أربعة آلاف، فلما نظروا إلىٰ جالوت وجنوده، قالوا:

﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة:٢٤٩].

ورجع منهم ثلاثةُ آلاف، وستمئة وبضعةٌ وثمانون، فلم يقاتلوا مع طالوت[3].

ولجأ طالوت ومن معه من القلة الصابرة الثابتة إلىٰ التضرع إلىٰ الله بأنْ ينصرهم، وأنْ يرزقهم الصبر والثبات، ذلك أنَّ القلوب تتزلزل أمام طوفان القوة المادية، ولا يحميها إلا أنْ تلجأ إلىٰ الله موقنة بقوته ونصره، فنصر الله هذه الفئة القليلة التي نجحت في كل الامتحانات، وثبتت في المعركة ولم تنهزم، ولم تجزع من سطوة الابتلاء، وقتل داود جالوت زعيم عدوهم، وكان دواد حينها جنديًّا في جيش طالوت:

---

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٤٣٥ ح٤٠٠٧

(٢) أخرجه البخاري ٤/ ٤٠٩، ح٣٩٥٠.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ٢/ ١٤٧.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة:٢٥٠-٢٥١].

وفي هذا التفصيل لما حدث من ابتلاء في بني إسرائيل درسٌ لأصحاب محمد ﷺ، ولأمته من بعده، بأنَّ التمحيص لا يقف عند زمانٍ معين، بل هي سنةٌ ماضية جارية، وفي كل مرة يتمحص المؤمنون، وتظهر معادنهم للعيان، ويظهر المنافقون والكاذبون والمدَّعون، ويظهر الضعفاء والعاجزون والمنهزمون؛ الذين يلهيهم النهر حيث كان، وفي أي قالب يتشكل، والذين يخيفهم لمعان السيوف وصلصلة الأغلال..

لا بد من ذلك!

وأصحابُ محمد ﷺ يستوعبون الدرس، فيقارنون هذه القصة بما جرىٰ في بدر.

وفي تعقيب الآية إشارة عظيمة، إذ يقول الله تعالىٰ:

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [البقرة:٢٥٢].

قال ابن عطية: (وفي هذه القصة بجملتها مثالٌ عظيم للمؤمنين ومعتبَر، وقد كان أصحاب محمد ﷺ معدِّين لحرب الكفار، فلهم في هذه النازلة معتبر؛ يقتضي تقوية النفوس والثقة بالله، وغير ذلك من وجوه العبرة)[1].

لا بد لأهل الإسلام -في كل مراحل دعوتهم- من ابتلاءٍ يرفع الله به درجات الصابرين الثابتين منهم، وينقي صفهم من الدخلاء والعاجزين والمنافقين، وتظهر فيه معادن كلا الفريقين.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ١٥٠.

لا بد من الزلزلة!

ولا بد من المواجهة مع أعداء الله الذين يصدون عن سبيله ويعادون أولياءه:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤٢].

وإذا كانت قصة طالوت وجالوت دليلاً علىٰ سنة المدافعة بين الحق والباطل؛ فإنَّ قصة أحد دليل علىٰ سنة المداولة بين أهل الحق وأهل الباطل:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فهما سنتان في ابتلاء أمة الإسلام لا بد منهما، وإنما علينا فهمهما ومعرفة الواجب علينا تجاههما.

فواهًا لمن ثبت الله أقدامهم ونوَّر بصائرهم.

ويا رب ارزقنا الصبر عند المدلهمات.

ووفقنا للثبات حين تطيش العقول، وتبلغ القلوب الحناجر.

الفصل الرابع

رعاية العلم

أمة علم

العلم هو الذي يحول الإنسان من سفاك للدماء مفسد في الأرض إلىٰ باني حضارة وعابد لله تعالىٰ.

في بداية تنشئة الأمة المسلمة احتاج الناس إلىٰ إدراك أثر العلم في التشييد الحضاري والبناء الإنساني، لأنَّ الجهل مؤذن بانتشار الرذيلة والطغيان وسفك الدماء، ولأنَّ الجهل نافذة تفتح علىٰ فضاء من العدمية والعبثية والسخافة.

هكذا يعلمنا الله تعالىٰ في سورة البقرة، من خلال قصة خلق آدم، وتعليمه الأسماء كلها، ما أعقبه سجود الملائكة لهذا المخلوق المكرَّم «آدم» وحسد الشيطان له، فإنَّ الله تعالىٰ في مبدأ خلق السماوات والأرض وخلق آدم؛ أراد أنْ ينوه بشأن العلم في قيام حياة الخليقة، فاقترن خلقه لآدم بتعليمه، إذ لا تصلح حياة بني آدم من دون العلم، وكأنَّ تعليم آدم أمر اقتضاه عدل الله وفضله في جعله في الأرض خليفة، ولاحظ معي الآيات:

﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (٢٩) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٩-٣٥].

فتأمل مجيء العلم في سياق الخلافة في الأرض في مقابل الإفساد وسفك الدماء فيها!

وتأمل مجيء التعليم عقب الخلق.

وتأمل مجيء السجود لآدم تكريمًا عقب التعليم.

وتأمل إسكان آدم الجنة عقب التعليم.

فمن هو آدم إذًا لو لم يعلمه الله تعالىٰ! وكيف ستعيش ذريته لو لم يتعلموا!

إما العلم النافع، وإما الفساد والإفساد وسفك الدماء.

إما العلم النافع، وإما التردي في ظلمات الجهل والجريمة والبعد عن الله تعالىٰ.

وحين استدلت الملائكة علىٰ عدم صلوحية هذا المخلوق لأنْ يكون في الأرض خليفة بإفساده وسفكه للدماء؛ استدل المولىٰ الكريم علىٰ صلوحيته بتعليمه. قال ابن عاشور: (وفي هذه الآية منزع بديع لتعظيم شأن العلم، وجدارة العلماء بالتعظيم والتبجيل، لأنَّ الله لما علم آدم علمًا لم يؤهل له الملائكة؛ كان قد جعل آدم نموذجًا للمبدَعات والمخترَعات والعلوم التي ظهرت في البشر من بعد، والتي ستظهر، إلىٰ فناء هذا العالم)[1].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤٢٢.

ولقد استقر تعظيم العلم وأهله في المخلوقات، علىٰ تعاقب العصور والقرون، هذا هو مقتضىٰ الإرادة الإلهية، يدل علىٰ ذلك ما رواه قيس بن كثير، قال: قدم رجل من المدينة علىٰ أبي الدرداء وهو بدمشق فقال: ما أَقدمك يا أخي؟

فقال: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ. قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا. قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلىٰ الجنة. وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم. وإنَّ العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتىٰ الحيتان في الماء. وفضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب. وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء! وإنَّ الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم؛ فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»(١).

فالنبي ﷺ يحدثنا عن تعظيم الملائكة للعلم وأهله، وعن تعظيم المخلوقات جميعًا -في البر والبحر، وفي الأرض والسماء، بما فيها من الحيوانات والطيور والحشرات والزواحف وكل شيء- للعلم وأهله، حتىٰ إنهم ليستغفرون لأهل العلم.

ويبين ﷺ أنَّ العلماء هم أقمار الدنيا المنيرة، وهم ورثة الأنبياء وخلفاؤهم وأشباههم.

وهي رسالةٌ إلىٰ المؤمنين بأنَّ العلم طريقٌ للعبودية لله تعالىٰ، وسبيلٌ للرقي في الحياة وعمارة الأرض. وعلىٰ العلم قامت الحضارات وتنشأت الأمم، وبه شقَّت طريقها، علىٰ اختلافٍ في مشاربها وألوانها.

---

(١) أخرجه أحمد ٣٦/ ٤٦، ح٢١٧١٥.

وأكثر وجهتين علميتين احتكاكًا بأمة الإسلام الجديدة آنذاك كانتا: الروم النصرانية، ويهود الحجاز.

ففي أوروبا ازدوجت العلوم اليونانية بالإمبراطورية الرومية، إذ تفوق الرومان في السلاح والعسكرية، وفي التنظيمات الإدارية والسياسية، وتفوقت اليونان في العلوم: الفلسفة والهندسة، فتشكل منهما مزيج حضاري ذو طابع خاص.

وفي يثرب كان أحبار اليهود يعلمون أبناءهم وينشرون علمهم في الأوساط المحيطة، وكان لهم مدارس معروفة.

وكانت العرب تنظر إلىٰ الدول المجاورة نظرة تعظيم من عدد من الزوايا، وكانت العلوم واحدة من تلك الزوايا التي ينظر العرب فيها إلىٰ غيرهم نظرة التعظيم تلك، وهكذا كان الحال مع يهود الحجاز.

وعلىٰ سبيل المثال؛ فقد أورد ابن إسحاق خبر النضر بن الحارث، الدال علىٰ وقوع العرب تحت وطأة الإعجاب العلمي، فيقول: (كان النضْر من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك فارس وأحاديث رستم وأسفندباذ، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلسًا يذكِّر فيه بالله، ويحذِّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله؛ خلَفه في مجلسه إذا قام، ثم يقول: أنا -والله- يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلمُّوا، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفندباذ، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟ فلما قال النضر ذلك بعثوه، وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلىٰ أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهما: سَلاهم عن محمد، وَصِفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا؛ من علم الأنبياء، فخرجا حتىٰ قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصَفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، فقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقالت لهم أحبار يهود: سلُوه عن ثلاثٍ يأمركم بهن، فإنْ أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإنْ لم يفعل فالرجل مُتقوِّل، فرُوا فيه رأيكم، سلوه عن فِتية ذهبوا في الدهر الأول؛ ما كان من أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجب. وسلوه عن رجلٍ طوَّاف، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ ما كان بناؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإنْ أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإنْ لم يخبركم فهو رجل متقوِّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتىٰ قدما مكة علىٰ قريش، فقالا: يا معشر قريش! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرَنا أحبارُ يهود أنْ نسأله عن أمور، فأخبروهم بها،...)[١].

فتأمَّل انهزام النفسية القرشية أمام العلوم الأجنبية!

علىٰ الرغم مما تملكه من إرث إبراهيمي فإنها ترىٰ لنفسها الدونية في موقعها الثقافي والفكري أمام الآخرين.

ولا يعني أنَّ العرب كانوا أمة لا تعتني بالعلم، فقد قرر الشاطبي وغيره أنَّ العرب كان لهم اعتناء بعلم النجوم وعلوم الأنواء، وعلم الطب وغيرها من العلوم[٢]. كانت العرب تعتني بشيء منها، لكنها لم تهتدِ إلىٰ العلم الذي يصلح حال الإنسان ويعرفه بربه وينظم حياته ويبني أمته.

وكذلك ما وصلت إليه تلك الأمم والممالك من علوم وفنون؛ لم تُنر لها طريقها إلىٰ الله تعالىٰ، ولم تكُن سببًا في الفوز برضاه والنجاة من عقابه، لأنَّ العلم الذي لا يوصل إلىٰ توحيد الله هو علم تدميري يعود علىٰ الأمم والممالك بالوبال والضياع والتمزق والشتات، والعلم الذي يرفع من منزلة الناس إلىٰ مصاف الآلهة علم ناقص مشوه.

---

(١) السير والمغازي ص٢٠٢.

(٢) الموافقات ٢/ ١١٢.

ثم إنَّ أمة العرب -بعد الإسلام- أصبحت مركزًا علميًّا عالميًّا، مؤثرًا في كل مجالات الحياة وفي كل أمم الأرض. فكيف كان ذلك؟

بالقرآن الكريم!

فإذا كان الأمر بالقراءة هو أول ما نزل في العهد المكي، وأول ما نزل في مبدأ الدعوة الإسلامية فإنَّ سورة البقرة التي تنزلت في الصدر الأول من الهجرة المباركة كانت ترسخ في المؤمنين تعظيم شأن العلم، وتُنشئ في المؤمنين عقل المفكر، وتشيد فيهم بناء الفقه.

كانت تسرد لهم حزمة من الأحكام الشرعية المهمة، بل حِزمًا من الأحكام، ليتفقهوا في دينهم قبل أنْ يتوسع الكيان الإسلامي وتتراكم المهام الفردية والجماعية، حزمة من أحكام الصيام، ومثلها من أحكام الحج، وقل مثل ذلك في الصلاة والصدقة، وأحكام النكاح والطلاق والرضاع والخطبة والعدة، وأحكام البيوع والدين والرهن، وأحكام القصاص والجهاد وغيرها.

وفي سورتي البقرة وآل عمران بيان بتاريخ اليهود والنصارىٰ وأحوالهم وأيامهم، وكشف لمقولاتهم ومعتقدهم، ونقد لشبهاتهم وتأويلاتهم وطرق استدلالهم.

أيضًا حذرت السورتان من الانحرافات العلمية التي أودت بأهل الكتاب من قبلنا، فأصبحوا شُذاذًا في الأرض؛ يتسولون الاستقرار والأوطان والأمان.

واستمر الحديث عن هذه القضايا العلمية من بدايات سورة البقرة إلىٰ الآيات الأخيرة في سورة آل عمران، لتكون هاتان السورتان قد رسمتا لنا الخطة المنهجية للعلم والفقه؛ التي تبنىٰ بها الأمة المسلمة، سواء كان من باب الوجود والطلب أو من باب العدم والترك.

فالحمد لله الذي لم يتركنا هملًا.

الجناية العلمية

مرة أخرىٰ؛ عجبت من البداية المبكرة لكشف فضائح الانحرافات العلمية التي تصف بها سورة البقرة أولئك الذين منَّ الله عليهم بالعلم من أهل الكتاب.

نحن نجد القرآن يبتدئ الحديث عن المنافقين، ثم نجده بالقرب من ذلك يتحدث عن انحرافات أهل العلم من بني إسرائيل، وهذه دروس ينبغي أنْ تعيها أمة الإسلام منذ البداية، منذ بداية النهوض، ومنذ بداية الاستيقاظ من السبات العميق.

علىٰ الأمة أنْ تعي أنَّ هذا المسلك لا يؤدي بها إلا إلىٰ الأودية السحيقة والدروب المظلمة.

في تلك الأزمنة التي فضل الله فيها بني إسرائيل علىٰ من سواهم من الأمم، إذ بُعث فيهم الأنبياء والمرسلون، وأُنزلت معهم الكتب الإلهية تدلهم وترشدهم وتمنهج حياتهم، فتعلم بنو إسرائيل كيف يعبدون الله تعالىٰ، وتعلموا الأخلاق والصلة، وتعلموا كيف يبنون أمتهم بطريقة مستقيمة، وعرفوا طريق الحق وطرق الضلالة والانحراف والهمجية، وبقي غيرهم من الأمم يتخبط في التيه والضلال؛ يستعبدون بعضهم وينهشون البعض الآخر، ويتسافدون كتسافد البهائم، وتقتلهم الحيرة والشكوك وتمزقهم العدمية والإلحاد؛ في أمور يطول ذكرها وسرد تفاصيلها.. في تلك الدهور كان بنو إسرائيل يتربعون علىٰ عرش التفضيل الرباني:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧].

فأيُّ نعمة أعظم من هذه؟ وأيُّ تفضيل يداني هذا؟

لكن بني إسرائيل أخطؤوا الطريق! لقد تنكب كثير من المتعلمين منهم الاستقامة العلمية. وجنوا علىٰ النصوص.

والجناية علىٰ النصوص وصف اقتبسته من كلام ابن القيم رحمه الله حين ناقش أهل الأهواء من الفرق الضالة في انحرافهم العلمي، وهو وصف بديع يقرب لك حجم الجريمة التي ارتكبها هؤلاء في حق العلم.

وكذلك كانت بنو إسرائيل.

ولقد أخبرنا النبي ﷺ أنَّ أمتنا ستتبعهم في أخطائهم: عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتىٰ تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبرًا بشبر وذراعًا بذراع). فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ فقال: (ومن الناس إلا أولئك).

وعن أبي سعيد الخدري ﵁ عن النبي ﷺ قال: (لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرًا شبرًا وذراعًا بذراع، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم). قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارىٰ؟ قال: (فمن)[1]. وصدق ﷺ.

فما الانحرافات التي وقع فيها المشتغلون بالعلم من بني إسرائيل، أو الذين سماهم الله تبارك وتعالىٰ: أهل الكتاب؟

ما هذه الآفات التي شرخت صروح العلم في الأمم من قبلنا؟

ما هذه المسلكيات التي من شأنها أنْ تكون سببًا في فساد الأمم والجماعات، والتي لا ترتبط بزمان ولا بمكان، وإنما ترتبط بقدرة الأفراد علىٰ الحفاظ علىٰ بنائهم العلمي، أو ضعفهم وعجزهم عن ذلك؟

---

(١) أخرجهما البخاري ٧/ ٤١٩، ح٧٣١٦،٧٣١٥.

والحق أنَّ التنبيه علىٰ هذه المسألة أخذ حيزًا كبيرًا في القرآن المدني بوجه عام، وفي سورتي البقرة وآل عمران بوجه خاص، لأنَّ المعارف والعلوم في حد ذاتها لا تبني الأمة المسلمة.

وهذا درس في حد ذاته.

وانظر إلىٰ ما وصل إليه العالم الغربي اليوم من الفنون والعلوم، ولكنها لا تصلح لبناء أمة مسلمة.

وإنما يبني الأمة المسلمة العلم ذو المنهجية القرآنية، العلم الذي تحفه الرقابة الأخلاقية، هذا هو الحد الفاصل بين العلم الباني والعلم التدميري، بين العلم الذي انتهجه أصحاب النبي ﷺ والتابعون لهم بإحسان والعلم الذي انتهجته بنو إسرائيل من قبل، وعلىٰ طريقهم تسير الأمم الكافرة اليوم.

ألا ترىٰ في سورة البقرة -مثلًا- أنَّ القرآن يقرر أنَّ السحر علم! لكنَّ هذا العلم كفر بالله تعالىٰ:

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢].

ومثل هذا التوجيه في القرآن يحمل معلومة ما، ويحمل أيضًا معه منهجًا أخلاقيًّا في تلقي العلم ونشره.. هكذا نودي علىٰ أصحاب النبي ﷺ في صبيحة تكوين الأمة المسلمة، وهكذا عودَنا الوحي.

ومن هذه الجنايات والانحرافات العلمية ما يأتي:

- **بذل العلم ثمنًا لنيل المكاسب الدنيوية:**

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١].

وهذا مسلك خطِر من مسالك من آتاهم الله علمًا من أهل الكتاب، وهو استخدام العلم في قضاء المصالح الشخصية، سواء كانت مالية كالرِّشىٰ والنقود والمتاع، أو معنوية كالترقي في الرتب الوظيفية والمناصب الوظيفية والفوز برضا المسؤول والسلامة من غضب السلطان ونحو ذلك.

لقد امتهن علماء بني إسرائيل العلم، حتىٰ صاروا يساومون به، ولكثرة وقوعهم فيه ضاعت حقيقة العلم، وأصبح للمفتي رأيان: حق وباطل، وأصبح للعالم قولان: صدق وافتراء، وكلاهما يُبذل حسب الدفع!

فحقيقة الصفقة أنها تتضمن أمرين: أولهما التخلي عن واجبات الإيمان وتكاليف الشريعة خوف فوات حظ الدنيا. وثانيهما بذل العلم في الطريق الجالبة لحظ الدنيا، ولو كان باطلًا أو بهتانًا أو افتراء علىٰ الله. فما أخسر هذه الصفقة! ولقد سماها الله: ثمنًا قليلًا.

قال البيضاوي: (ولا تستبدلوا بالإيمان بها والاتباع لها حظوظ الدنيا، فإنها وإنْ جلَّتْ قليلةٌ مسترذَلة، بالإضافة إلىٰ ما يفوت عنكم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان، قيل: كان لهم رئاسةٌ في قومهم ورسومٌ وهدايا منهم، فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله ﷺ فاختاروها عليه، وقيل: كانوا يأخذون الرشىٰ فيحرفون الحق ويكتمونه)[1].

وقال محمد رشيد رضا: (تستبدلون بهدايته هذا الثمن القليل، وهو ما يستفيده رؤساؤكم من المرؤوسين من مال وجاه أوقعاهم في الكبر، وما يتوقعه المرؤوسون

(١) أنوار التنزيل ١/ ٧٦.

من الزلفىٰ والحظوة بتقليد الرؤساء واتِّباعهم، وما يخشونه إذا خالفوهم من المهانة والذلة، وإنما سمي هذا الجزاء قليلًا؛ لأنَّ كل ما عدا الحق قليلٌ وحقيرٌ بالنسبة إليه، وكيف لا يكون قليلًا وصاحبُه يخسر عقلَه وروحه قبل كل شيء؛ لإعراضه عن الآيات البينات والبراهين الواضحات؟ ثم إنه يخسر عزَّ الحق وما يكون له من الشأن العظيم وحسن العاقبة، ثم إنه يخسر مرضاة الله تعالىٰ، وتحل به نقمه في الدنيا وعقوبته في الآخرة)[1].

وما ذكره محمد رشيد رضا جدير بالتأمل. وأنا -أيها القارئ الكريم- ألجأ إلىٰ الله بالدعاء لي ولك بأنْ يثبتنا الله علىٰ دينه القويم، وألا يجعلنا مطية لأهل الدنيا، وألا يفتننا في ديننا فنهلك كما هلك الذين أوتوا الكتاب من قبلنا.

ولقد اعتنىٰ سلفنا الصالح بهذه الآية وأورثتهم خوفًا وخشية علىٰ أنفسهم مما تضمنته، وأسهبوا في بيان معناها، وألحقوا -في الحديث عنها- فروعًا فقهية تدل علىٰ عنايتهم بمضمونها، ثم إنهم عمدوا إلىٰ دنياهم فقطعوا حبال التعلق بها، واعتزل كثير منهم أهل الدنيا من الرؤساء والكبراء خشية علىٰ دينهم من الزيغ، وانظر -بعين التأمل- إلىٰ ما قاله الشوكاني: (فمن أخذ من المسلمين رشوة علىٰ إبطال حقٍّ أمر الله به، أو إثبات باطلٍ نهىٰ الله عنه، أو امتنع من تعليم ما علمه الله، وكتم البيان الذي أخذ الله عليه ميثاقه به، فقد اشترىٰ بآيات الله ثمنًا قليلًا)[2].

وإنَّ الخشية من الله والخوف من سوء الحساب والتيقظ الوجداني لتمنع بإذن الله من الوقوع في موبقةٍ كهذه الموبقة، ألا ترىٰ أنَّ الله تعالىٰ ختم الآية بقوله:

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة:٤١].

---

(١) المنار ١/ ٢٤٣.

(٢) فتح القدير ١/ ٨٨.

وختم سورة آل عمران بقوله:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٩].

فجمع في الأولىٰ بين التقوىٰ والامتناع من هذه الموبقة. وجمع في الأخرىٰ بين الخشوع القلبي والامتناع من هذه الموبقة! ومعنىٰ ذلك أنَّ الذين قدموا حظوظ الدنيا وكسب الأموال ورضا الرؤساء علىٰ حق العلم والصدع به قلَّ حظهم من التقوىٰ وقل حظهم من الخشوع؛ ولو لبسوا عباءة المتقين واعتمروا عمامة الخاشعين، إذ لا يمكن اجتماع الخشوع الحقيقي مع بذل العلم في كسب دنيا أو رضا رئيس أو تجميع أتباع أو تولي مناصب.

ذلك قانون الخشوع الحقيقي..

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾.

وفي هذا الملحظ التربوي يقول السعدي: (وهؤلاء أهل الكتاب والعلم علىٰ الحقيقة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، ومن تمام خشيتهم لله أنهم لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا، فلا يقدِّمون الدنيا علىٰ الدين، كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمنًا قليلًا، وأما هؤلاء فعرفوا الأمر علىٰ الحقيقة، وعلِموا أنَّ من أعظم الخسران الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذي هو أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فآثروا الحق وبينوه ودعوا إليه، وحذروا من الباطل، فأثابهم الله علىٰ ذلك بأنْ وعدهم الأجر الجزيل والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه وأنه سريع الحساب، فلا يستبطِئون ما وعدهم الله، لأنَّ ما هو آتٍ محقق حصوله فهو قريب)[١].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٧٢.

- **تخليط المعاني بقصد التلبيس:**

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة:٤٢].

ولبس الحق بالباطل تخليطهما ببعض؛ فيغتر الناظر بوجود الحق فيقبله كله، بما فيه من باطل مدسوس، أو يكون بإلباس الباطل ثوبًا من الحق، فيظن الناظر أنَّ كل ما تحته حق، ولا يرىٰ الباطل المستتر تحته، قال البيضاوي: (والمعنىٰ لا تخلطوا الحق المنزل عليكم بالباطل الذي تخترعونه وتكتمونه حتىٰ لا يميز بينهما، أو ولا تجعلوا الحقَّ ملتبسًا بسبب خلط الباطل الذي تكتبونه في خلاله، أو تذكرونه في تأويله)[1].

والحق: التوراة التي أنزل الله علىٰ موسىٰ، والباطل: الذي كتبوه بأيديهم، كما ذكر ذلك ابن زيد[2]، فإنَّ التوراة نزلت من عند الله، ولكن طالتها أيدي العابثين من العلماء والرؤساء، فأَدرجت فيها ما ليس منها.

ومما جاءت به: الإخبار عن مبعث نبينا محمد ﷺ ووجوب الإيمان به علىٰ صفات ونعوت ذكرتها، ومحمد رشيد رضا يقرب لك هذا المسلك التضليلي، فيقول: (قد جاء في كتبهم التحذير من أنبياء كذَبة، يُبعثون فيهم ويعملون العجائب، وجاء فيها أيضًا أنه تعالىٰ يبعث فيهم نبيًّا من ولد إسماعيل يقيم به أمة، وأنه يكون من ولد الجارية هاجر، وبيَّن علاماته بما لا لبس فيه ولا اشتباه، ولكن الأحبار والرؤساء كانوا يَلْبسون علىٰ العامة الحق بالباطل؛ فيوهمونهم أنَّ النبي ﷺ من الأنبياء الذين نعتتهم الكتب بالكذَبة -حاشاه- ويكتمون ما يعرفون من نعوته التي لا تنطبق علىٰ سواه، وما يعلمون من صفات الأنبياء الصادقين، وما يدعون إليه، وكله ظاهر فيه بأكمل المظاهر).

---

(١) أنوار التنزيل ١/ ٧٦.

(٢) جامع البيان ١/ ٦٠٧.

وبهذا الصنيع أضلَّ علماء بني إسرائيل الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ.

ولم يكن لبس الحق بالباطل مقصورًا علىٰ مسألة الإيمان بمحمد ﷺ، بل قد تعدىٰ إلىٰ أمور كثيرة؛ حتىٰ أصبحت التوراة لا تصلح للاهتداء ولا الاستهداء مما لحقها من التخليط، يقول رشيد رضا: (ومن اللبس أيضًا ما يفتريه الرؤساء والأحبار، وهو لبس أصول الدين بالمحدثات والتقاليد التي زادوها علىٰ الكتب المنزلة، بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض المتقدمين وأفعالهم، فكانوا يُحكِّمون هذه الزيادات في الدين؛ حتىٰ في كتب الأنبياء، ويعتذرون بأنَّ الأقدمين أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعًا لهم، فهم الواسطة بينهم وبين الأنبياء، وعلىٰ من بعدهم الأخذ بما يقولون دون ما يقول الأنبياء الذين يصعب عليهم فهم كلامهم بزعمهم)[1].

فحقيقة الأمر أنَّ الشرائع التي جاءت بها رسل بني إسرائيل تخضع لعمليات التحريف المموِّه، والذي يختلط فيه الحق بالباطل، ويُخدع به الناس فيضلون.

وكل هذا التلبيس وتخليط المعاني وتخريب الشرائع قام به علماء بني إسرائيل واجتهدوا له تنظيرًا وتقعيدًا وتأليفًا وتنسيقًا، ليتكون من ذلك دين مختلق، مختلف عن دين الله الذي أنزله وارتضاه، فأصبحوا بذلك جيشًا علميًّا يحارب الله ورسوله من خلال العلم المزيف.

والسرد التاريخي للمذاهب الباطلة والفرق الضالة المحدثة، يثبت أنَّ فكرة (لبس الحق بالباطل) ذات مفعول قوي في ترويج العقائد الباطلة والابتداع في الدين والصد عن سبيل الله، وابن عاشور يخلص إلىٰ أنَّ اللبس هو مبدأ التضليل والإلحاد في الأمور المشهورة، وأنَّ أكثر أنواع الضلال الذي أُدخل في الإسلام هو

---

(١) المنار ١/ ٢٤٣.

من قبيل لبس الحق بالباطل، واستشهد علىٰ ذلك بشُبَه الذين ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة نبينا ﷺ، وشبه الناقمين علىٰ عثمان بن عفان ﷺ، وشُبَه الخارجين علىٰ علي بن أبي طالب ﷺ، وشُبَه الباطنيين والمتفلسفين والمرجئة وغيرهم[١].

• **كتمان الحق وإخفاء المعلومات:**

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٤٢].

وكتمان الحق بإخفائه وصرف الناس عنه إلىٰ غيره، قال الرازي: (واعلم أنَّ إضلال الغير لا يحصل إلا بطريقين؛ وذلك لأنَّ ذلك الغير إنْ كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه، وإنْ كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول إليها.

فقوله: «ولا تلبسوا الحق» بالباطل إشارة إلىٰ القسم الأول، وهو تشويش الدلائل عليه، وقوله: «وتكتموا الحق» إشارة إلىٰ القسم الثاني، وهو منعه من الوصول إلىٰ الدلائل)[٢].

والحق الذي كان يكتمه علماء بني إسرائيل يتمثل في عدد من العقائد والشرائع، وعلىٰ رأسها الإيمان بنبوة محمد ﷺ وشريعته، لا سيما من عاصر منهم زمن النبوة المحمدية، قال قتادة والربيع: (كتموا شأن محمد، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل؛ يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر)[٣]:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٤٦].

(١) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٤٧١.
(٢) مفاتيح الغيب ٣/ ٤٣.
(٣) جامع البيان ٥/ ٤٩٤.

وإذا كان المقدمون في الأمم -كالعلماء- يخفون الحق ولا يظهرونه للناس؛ فبماذا سيؤمن عامة الناس إذًا؟ وعلىٰ ماذا ستبنىٰ عقائدهم؟ وما الشريعة التي سيتكلفون بها تحملًا وأداءً؟ وما حال المجتمعات التي لا تعرف الحق، وإنما تعرف قليلًا منه وكثيرًا من الباطل؟ فيا لغربة المتمسكين حينها.

وهكذا يكون كتمان الحق وعدم إظهاره -لأي سببٍ كان- جريمة في حق الله تعالىٰ، وجريمة في حق الأمة، ويكون العلماء والمتعلمون الذين يتعمدون كتمان الحق قد صفوا أقدامهم ورصوا صفوفهم في كتيبة المضلين من أعداء الأمة، لذلك استحقوا غضب الله ومقته، سواء كان كتمانهم للحق رغبة أو رهبة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٧٤-١٧٥].

قال ابن كثير: (هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة علىٰ المقاصد الصحيحة والهدىٰ النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله تعالىٰ لعباده في كتبه التي أنزلها علىٰ رسله، قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد ﷺ، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء علىٰ صنيعهم ذلك، فكما أنَّ العالم يستغفر له كل شيء، حتىٰ الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء الذين يكتمون، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. وقد ورد في الحديث المسند[1] من طرق يشد بعضها بعضًا، عن أبي هريرة وغيره: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من سُئل عن علم

(١) المسند ١٦/ ٢٦٤، ح١٠٤٢٠.

فكتمه أُلجِم يوم القيامة بلجامٍ من نار»)[1].

وابن العربي المالكي ومثله القرطبي يضعان قيدًا لاستحقاق الوعيد، وهو أنَّ العالم إذا قصد الكتمان عصىٰ. وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ؛ إذا عرف أنَّ معه غيره من أهل العلم الذين يبلِّغون. وأما من سُئل فقد وجب عليه التبليغ، لهذه الآية. ومن تعيَّن عليه البلاغ لعدم الاكتفاء لزمه[2].

والسورة كررت مسألة كتمان الحق، لأنه في وقت الحاجة إلىٰ بيانه يعدُ جريمة علمية وسقوطًا أخلاقيًّا؛ نأىٰ القرآن الكريم بالمؤمنين أنْ يقربوه:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

• التملص من واجبات الشرع:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

كيف تجعلون من الدعوة إلىٰ الله وتعليم الناس أمور دينهم مجرد صنعة احترافية ومهنة مادية خالية من الروح والوهج؟ وذلك بأنهم لا يعملون بما يعلِّمون، وهذا المسلك يردي بهم ولا شك.

وانتفاء القدوة في أهل العلم يبعث تصورات خاطئة عن التزام الشريعة، فيقول قائل: لو كان هذا الذي يقوله أهل العلم حقًّا لكانوا أولىٰ الناس بتطبيقه، ولكانوا أقدر الناس علىٰ فعله، لكنه ليس كذلك، فالحق قابل للتطبيق والتنفيذ، وما دام أنَّ أهل العلم عجزوا عن تطبيقه فعامة الناس من باب أولىٰ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٦.

(٢) أحكام القرآن ١/ ٧٢، الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٢٤.

وهكذا حتىٰ تضيع الشريعة والإيمان.

وسيجيء الوقت الذي يعاقب فيه هذا الجاني علىٰ نفسه وعلىٰ الشريعة بعقوبة مخصوصة، قال رسول الله ﷺ: «يُجاءُ بالرجل يوم القيامة، فيُلقىٰ في النار، فتندلق به أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكُن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[1].

فاللهم رحمتك نرجو، فاغفر لنا وارحمنا.

وقد يجد طالب العلم فرصة في الترخص المستمر وفي تمييع الدين، وذلك بتطويعه للعلم الذي منَّ الله به عليه، ثم لا يلبث أنْ يجد نفسه في منأىٰ عن التزام الشريعة! وهذا ما حذر منه أهل العلم والمحققون، فقالوا: «من تتبع الرخص فقد تزندق»، لأنَّ الحركة العلمية الهائلة التي شهدتها القرون الأولىٰ لم تخلُ من أخطاء؛ كان لها أسبابها التي حررها العلماء المحققون، ومن أبرز ما دُوِّن في ذلك كتاب: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فلا يصح أنْ تكون تلك الأخطاء دينًا متبعًا.

قال إسماعيل بن إسحاق القاضي: دخلت علىٰ المعتضد، فدفع إليَّ كتابًا، فنظرت فيه، فإذا قد جُمع له فيه الرخص من زلل العلماء، فقلت: مصنِّف هذا زنديق. فقال: ألم تصح هذه الأحاديث؟ قلت: بلىٰ، ولكن من أباح المسكر لم يُبِح المتعة، ومن أباح المتعة لم يُبِح الغناء، وما من عالم إلا وله زلة، ومن أخذ بكل زلل العلماء ذهب دينه. فأمر بالكتاب فأحرق[2].

---

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٦١، ح٣٢٧٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٦٥.

• **الاحتيال على النصوص:**

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٦٥-٦٦].

قال ابن كثير: (ولقد علمتم -يا معشر اليهود- ما حلَّ من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعًا لهم، فتحيلوا علىٰ اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت علىٰ عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلىٰ صورة القردة)[1].

حين لم يتمكنوا من تأويل النصوص أو ردها عمدوا إلىٰ التحايل عليها، فصنعوا حيلة تخفف عنهم الحِمل، وتحمل عنهم التبعة صوريًّا، فإذا قيل لهم: ارتكبتم خطأً قالوا: انظر إلينا! أين الخطأ؟ وما وجه اللوم؟ فنحن لم نفعل محذورًا يوم السبت!

فاستحقوا يوم السبت ! العقوبة العاجلة في الدنيا.

• **التردد في قبول النص:**

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥].

فلم يكفِهم ما أنزل الله علىٰ رسوله، فطلبوا رؤية الله عيانًا بأبصارهم لكي يصدقوا أنَّ ما جاء به موسىٰ حق!

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٣٢.

ضعف الثقة بنصوص الوحي مؤذن بغضب الله تعالىٰ ومقته، ومنه التردد في التسليم لها والإيمان بمضمونها والعمل بما فيها من الشريعة، وكيف يزعم العلم والإيمان من يرىٰ قصور النصوص الشرعية عن الوفاء بمتطلبات الحياة؟

وكيف يزعم العلم والإيمان من يرىٰ سنة الرسول ﷺ غير صالحة للعمل بها في هذا الزمان؟

وكيف يزعم العلم والإيمان من يقدس المحسوسات والماديات علىٰ الغيبيات؟

كيف يزعم العلم والإيمان من يظن أننا بحاجة إلىٰ معالجات أجنبية لقضايانا المعيشية؟

قال الطبري: (واذكروا أيضًا إذ قلتم: يا موسىٰ لن نصدقك ولن نقر بما جئتنا به حتىٰ نرىٰ الله جهرة عيانًا، برفع الساتر بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودونه حتىٰ ننظر إليه بأبصارنا)[1].

وهذه معضلة الذين يعظمون المحسوسات، وينبهرون بالماديات، فيثقون بها أكثر من إيمانهم بالغيب الذي جاءت به الرسل، ويقِيمونها مقام القطعيات من الأدلة، فإذا قيل لهم: قال الله وقال رسول الله، قالوا: أثبت «العلم الحديث»، وأثبتت الدراسات، والواقع يقول، وهلُمَّ جرًّا، وبعضهم تجاوز الحد فقال: الناس وصلوا إلىٰ القمر واكتشفوا الذرة وصنعوا التكنولوجيا وتريدوننا أنْ نتبع الشرع القديم!

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣].

(١) جامع البيان ١/ ٦٨٧.

بعد أخذ الميثاق ورفع الطور وإيتائهم الكتاب، اتخذوا عجلًا يؤلهونه!

أليس ذلك هو الضلال؟

تالله إنَّ شريعة الله جاءت بما يكفينا عن ما أنتجته عقول البشر.

وتالله إنَّ كتاب الله أغنانا عن كل عجل ذهبي!

- **تحريف المعنى والتأويل الفاسد:**

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥].

قال ابن زيد: (التوراة التي أنزلها عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حرامًا والحرام فيها حلالًا، والحق فيها باطلًا والباطل فيها حقًّا، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق، وإنْ جاء أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق)[١].

ومن تحريف كلام الله تعالىٰ تأويله بالباطل، أي إيجاد معنىٰ له غير المعنىٰ الصحيح، وهو صرف المعنىٰ الظاهر والصحيح إلىٰ معنىٰ آخر، للوصول إلىٰ ما تمليه الأهواء والعقول، قال ابن عطية: (وتحريف الشيء إحالته من حال إلىٰ حال، وذهب ابن عباس رضي الله عنه إلىٰ أنَّ تحريفهم وتبديلهم إنما هو بالتأويل ولفظ التوراة باقٍ)[٢]:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨].

---

(١) جامع البيان ٢/ ١٤١.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٤٥٩.

قال ابن عطية: (معناه يحرفون ويتحيلون بتبديل المعاني من جهة اشتباه الألفاظ واشتراكها وتشعب التأويلات فيها)[1].

وابن القيم يقرر أنَّ خراب العالم وفساد الدنيا والدين كان بسبب فتح باب التأويل، ويذكر ملاحظة مهمة للغاية، تكشف لك خطر هذا الباب في التحريف، فيقول: (فالأهواء المتولدة من قِبل التأويلات الباطلة غير محصورة ولا متناهية، بل هي زائدة نامية، بحسب سوانح المتأولين وخواطرهم، وما تخرجه إليه ظنونهم وأوهامهم، ولذلك لا يزال المستقصي عناء نفسه في البحث عن المقالات وتتبعها يهجم علىٰ أقوالٍ مِن مذاهب أهل التأويل؛ لم تكُن تخطر له علىٰ بال، ولا تدور له في خيال، ويرىٰ أمواجًا من زبد الصدور تتلاطم، ليس لها ضابط؛ إلا سوانح وخواطر وهوس تقذف به النفوس التي لم يؤيدها الله بروح الحق، ولا أشرقت عليها شمس الهداية، ولا باشرت حقيقة الإيمان، فخواطرها وهوسها لا غاية له يقف عندها)[2].

وهي ملاحظة تفسر لنا ظهور التأويلات الفاسدة الجديدة، زمنًا بعد زمن، إلىٰ يومنا هذا، لأنه من غير تعب يستطيع الجاني علىٰ النصوص أنْ يتلاعب في معانيها، وهؤلاء الجناة هم أحق بالحبس من الزعار وقطاع الطريق، ولا قوة إلا بالله.

والآيات في سورة البقرة -في آفات العلم وإشكالاته- نزلت لتحذِّر الأمة المسلمة من أنْ تسلك مسلكَ أهل الكتاب من قبلنا، حيال هذه الآفات.

وعلىٰ هذه الآيات تربىٰ أصحاب نبينا ﷺ، ليكونوا فقهاء علماء ربانيين، متجردين من حظوظ النفس، مدركين لخطر الانزلاق في مهاوي الآفات، معظِّمين للعلم ولأدلته.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٦.

(٢) انظر: الصواعق المرسلة ١/ ٣٤٨ وما بعدها.

فرضي الله عنهم وأرضاهم، وعصمني وإياكم من زيغ القلوب والآراء، وجعلنا من الذين يتلون الكتاب حق تلاوته.

البواعث الخفية

منذ البدايات الأولىٰ لسورة البقرة يطلعك القرآن علىٰ مركزية عمل القلب في تلقي الأدلة والنصوص؛ قبولًا ورفضًا، فيخبرك أنه لا ينتفع من نصوص الوحي إلا من فتح لها نوافذ قلبه وأشرع لها أبواب وجدانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٦-٧].

قال البغوي في معنىٰ ختم: (طبع الله علىٰ قلوبهم، فلا تعي خيرًا ولا تفهمه)[١]. أيْ أنَّ الانتفاع بكلام الله وحدوث التغيير بالتأثر بآيات القرآن لا يتحصلان والقلب غير مهيَّأ لذلك، بل ويذهب الرازي إلىٰ أبعد من ذلك فيستدل بالآية السابقة علىٰ أنَّ محل العلم هو القلب[٢].

ولقد كررت سورة البقرة الالتفات إلىٰ القلب في التعامل مع الأحكام الشرعية، انظر إلىٰ قوله تعالىٰ:

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة:٢٢٨].

---

(١) معالم التنزيل ١/ ١٨.

(٢) مفاتيح الغيب ٢/ ٥٥.

قال البغوي: (إنْ أرادوا بالرجعة الصلاحَ وحسنَ العشرة لا الإضرار؛ كما كانوا يفعلونه في الجاهلية: كان الرجل يطلق امرأته، فإذا قرب انقضاء عدتها راجعها، ثم تركها مدة ثم طلقها، يقصد بذلك تطويل العدة عليها)[1]. ولأن إرادة الخير والشر محلها القلب، ولا تظهر للعيان؛ فإنَّ الله تعالىٰ يذكر الناس -في ثنايا تقرير الأحكام- بالاعتناء بها وعدم إغفالها:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ﴾ [البقرة:٢٣١].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾ [البقرة:٢٣٥].

الإرداة القلبية هي الموجِّه الحقيقي في تتبع مسائل العلم، وعليها مدار السعادة بالعلم أو الشقاء به، لذلك يخشىٰ المؤمنون من غائلة الأهواء الدفينة فيبتهلون إلىٰ الله متضرعين خائفين، معترفين بضعف قلوبهم ملتجئين إلىٰ مولاهم:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

لا تجعلنا ممن زاغت قلوبهم عن الحق فانعكس ذلك علىٰ طريقتهم في تتبع مسائل العلم.. نعوذ بك يا رب من ذلك.

زيغ القلوب يستنهض المرء فيجعله يتتبع المتشابهات لأغراض فاسدة:

---

(١) معالم التنزيل ١/ ٢٢٥.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران:٧].

قال الطبري: (فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق وحيف عنه فيتبعون من آي الكتاب ما تشابهت ألفاظه واحتمل صرفه في وجوه التأويلات، باحتماله المعاني المختلفة إرادة اللبس علىٰ نفسه وعلىٰ غيره، احتجاجًا به علىٰ باطله الذي مال إليه قلبه). ثم قال: (وهذه الآية وإنْ كانت نزلت فيمن ذكرنا أنها نزلت فيه من أهل الشرك، فإنه معني بها كل مبتدع في دين الله بدعة، فمال قلبه إليها تأويلًا منه لبعض متشابه آي القرآن، ثم حاج به وجادل به أهل الحق، وعدل عن الواضح من أدلة آيه المحكمات، إرادة منه بذلك اللبس علىٰ أهل الحق من المؤمنين، وطلبًا لعلم تأويل ما تشابه عليه من ذلك كائنًا من كان، وأيَّ أصناف البدعة كان؛ من أهل النصرانية كان أو اليهودية أو المجوسية، أو كان سبئيًّا أو حروريًّا أو قدريًّا أو جهميًّا)[1].

وهنا مسألتان في غاية الاهتمام القرآني: اتباع الهوىٰ والبغي بغير الحق.

فاتباع الهوىٰ يؤدي إلىٰ الانتقاء من الأحكام وأدلتها ما يتماهىٰ مع المصلحة الشخصية، لا مع الحق، فيصبح طالب العلم بلا منهج يسير عليه، وتصبح مواقفه سائلة، لا يُعرف لها ثبات ولا شكل محدد، مضطربةً لا يُعرف لها انسجام:

﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [البقرة:٨٥].

وإضافة إلىٰ ما يؤدي إليه اتباع الهوىٰ من الانتقائية في الاستدلال؛ فهو يؤدي أيضًا إلىٰ الإعراض عن الاحتكام إلىٰ النصوص التي لا تؤيد ما يذهب إليه المتبع هواه:

---

(١) جامع البيان ٥/ ٢١٣-٢١٤.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:٢٣-٢٤].

ويُذكر في سبب نزولها أنَّ نبينا ﷺ أراد أنْ يحاكم اليهود في قضية إلىٰ التوراة التي بين أيديهم فأبَوْا[1]. ولاحظ أنَّ القرآن يكشف عن نواتج هذا الإعراض واتباع الهوىٰ من افتراء علىٰ الله وتبديل للأحكام، فهم الذين:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران:١٨٣].

﴿قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٥].

فاتباع الهوىٰ إذًا يؤدي إلىٰ الأمرين: الانتقاء والإعراض.

والبغي إحدىٰ علامات زيغ القلوب، وهو اعتداء تولد عن الحسد والتنافس، وهو ليس حسدًا وتنافسًا علىٰ شريف الأمور من الديانة والعمل الصالح ونفع الناس، وإنما هو حسد وتنافس علىٰ ما ينثره أصحاب الرياسات علىٰ البعض من لعاعة الدنيا، وما يتحصلونه بالتقرب إليهم من المناصب التي يتفوقون بها علىٰ الناس:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:٢١٣].

---

(١) انظر: جامع البيان ٥/ ٢٩٣.

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٩].

قال أبو العالية: (بغيًا علىٰ الدنيا، وطلبَ ملكها وسلطانها، فقتل بعضهم بعضًا علىٰ الدنيا، من بعد ما كانوا علماءَ الناس)[١]. وقال ابن كثير: (بغىٰ بعضهم علىٰ بعض، فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضَهم بغضُ البعض الآخر علىٰ مخالفته في جميع أقواله وأفعاله، وإنْ كانت حقًّا)[٢].

وهذه النفسية الحسودة لا تقف عند حدٍّ حتىٰ تتيقن من جرِّ أهل الإسلام إلىٰ حظيرة الكفر، وعند ذلك فقط سيتم لها الرضا والارتياح:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة:١٢٠]

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [آل عمران:٦٩].

(١) جامع البيان ٥/ ٢٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٢٩.

عقل الفقيه

(الإيمان يزيد الفطنة، لأنَّ أصول اعتقاده مبنية علىٰ نبذ كل ما من شأنه تضليل الرأي وطمس البصيرة)[(١)].

هذه درة فريدة من كلام الطاهر ابن عاشور رحمه الله.

لم تكن التربية القرآنية لتنشئ أمة مغفلة لا تعرف كيف تستضيء بكتاب الله الذي أنعم عليها به، بل كانت تصنع عقولًا متفكرة ناقدة، عقولًا فقهية، لديها القدرة علىٰ التعامل مع الأدلة وتكييف الواقع.

إضافةً إلىٰ مسارد الأحكام الفقهية الشرعية العملية وبيان الانحرافات العلمية؛ اعتنت سورة البقرة ببيان قواعد النظر في الأحكام والأدلة، لتصوغ بذلك عقل المسلم وتجعل منه عقلًا فقهيًّا يجيد النظر في أدلة الأحكام.

فمن ذلك: بينت سورة البقرة المنزلة العليا للنصوص في الاستدلال؛ فالنص معصوم، وهو واجبُ الاتباع، ومتأكد الثقة به، ولا مجال للعقل في الحكم علىٰ قبوله:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:٢٦].

قال السعدي: (فيفهمونها، ويتفكرون فيها، فإنْ علموا ما اشتملت عليه علىٰ وجه التفصيل ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٧٥.

حق وإنْ خفي عليهم وجه الحق فيها، لعلمهم بأنَّ الله لم يضربها عبثًا، بل لحكمة بالغة ونعمة سابغة)[1].

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة:١٧٦].

وإنْ كان دأب بني إسرائيل إسقاط العصمة النصية، كما في قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣].

فإنَّ دأب أصحاب النبي ﷺ هو السمع والطاعة والتسليم:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

ومن ذلك: ما أشارت إليه سورة البقرة من أثر التقوىٰ والإيمان في معرفة الدليل وإصابة الحق وصحة الاستدلال، أيْ أنَّ طلاب العلم المتقين هم أسعد الناس بالاستفادة من هدي القرآن وأدلته:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٥٠.

قال القرطبي: (وعدٌ من الله تعالىٰ بأنَّ من اتقاه علَّمه، أيْ يجعل في قلبه نورًا يفهم به ما يلقىٰ إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانًا، أيْ فيصلًا يفصل به بين الحق والباطل)[1]. ولذلك؛ فإنَّ الذين في قلوبهم مرض وريب وانحراف لا يوفقون إلىٰ الاستهداء بالقرآن:

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة:١٠].

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٦].

ومن ذلك: ما أشارت إليه السورة من أنَّ التفكير الصحيح الخالي من الأهواء والمؤثرات الفاسدة يوصل إلىٰ النتائج الصحيحة، وأنَّ آيات الكون وتقلبات الحياة يستفيد منها هذا المتفكر العاقل.

ولذلك ينبغي أنْ يكون للإنسان حصة من أوقاته للنظر في ملكوت السماوات والأرض، لينظر في دورة الحيوات وفيزياء الأجسام وكيمياء المواد، فهي -إذا صاحبها قلب مؤمن- أورثت تعظيم الله وعبادته:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٦٢.

كما أشارت إلىٰ أنَّ أخطاء التفكير توصل إلىٰ نتائجَ خاطئة:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٦-١١٧].

أيْ مَنْ خلَق السماوات والأرض، وهو يملكها بما فيها ومن فيها، لا يحتاج لأنْ يكون له ولد، فإذا كنتم تؤمنون بأنه الخالق المالك وجب عليكم عقلًا أنْ تنْفوا عنه الولد. وهذا يقودنا إلىٰ دليل الحس والمشاهدة، فهو دليل قوي إذا صحت طريقة الاستدلال به، وهو بهذا الوصف لا يمكن له بحال من الأحوال أنْ يعارض دليل الوحي، وهذا يلزم منه ألَّا يستقل بالاستدلال، لأنَّ العقل يعتوره القصور أحيانًا أو تؤثر في طريقة عمله المؤثرات، ألا ترىٰ أنَّ الذي مرَّ علىٰ القرية توصل إلىٰ نتيجة خاطئة باستدلال عقلي خاطئ:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة:٢٥٩].

وحين كان الناس يتوهمون فائدة الخمر والميسر لما تعود عليهم به من المكاسب المالية وانتشاء الروح ولذة الفؤاد وطرد الهموم وإطعام الفقراء وإكرام الضيوف؛ أجاب الله عن ذلك بأنَّ ما فيهما من الضرر أكثر مما فيهما من النفع، وأشد خسارة في المآل؛ لما يفضيان إليه من العداوة والبغضاء، والغفلة عن الواجبات الشرعية، واعتياد الكسل عن النشاط المطلوب في الأرض وكسب الرزق، وذهاب العقل المفضي إلىٰ صدع المروءات وامتهان الدعارة، وأكل المال بغير وجه حق، وإيلاج الأمراض إلىٰ الجسد، وغير ذلك من الآفات التي تتطلب تفكيرًا صحيحًا:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].

فلا بدَّ من تصور مكتمل واستقراء تام لموضوع المسألة المبحوثة، لكي يبنىٰ الحكم علىٰ العدل ويتوج بالصواب. وهذا ما يقودنا إلىٰ قاعدة النظر التالية.

وهي ما أشارت إليه السورة من أهمية النظر في حقائق الأمور وكنهها، وترك الانسياق الأعمىٰ لمجرد الظواهر دون تمحيص:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٨-٩].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٥].

ونحوها من الآيات، التي تشير إلىٰ أنَّ للأمور أحيانًا وجهًا آخرَ مختلفًا عن ظاهرها.

ومن ذلك: ما أشارت إليه السورة من أهمية استحضار القواعد الكلية في الدين، فهي موجهات للحكم علىٰ المسائل الجزئية، ومؤثرة فيها، وذلك من خلال ذكرها في ثنايا آيات الأحكام:

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣٣].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة:٢٨٢].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة:١٧٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة:١٦٨].

قال السعدي: (في هذه الآية دليل على أنَّ الأصل في الأعيان الإباحة؛ أكلًا وانتفاعًا، وأنَّ المحرمَ نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب. وإما محرم لما عرَض له، وهو المحرم لتعلق حق الله أو حق عباده به، وهو ضد الحلال)[1].

وهكذا لو استعرضنا هذه الآيات وما تضمنته من قواعد وضوابط للنظر الفقهي لوجدنا الكثير. وإنها -بهذه القواعد الكلية- تنشئ لدى المؤمن تصورًا بشمولية الإسلام، وانسجام أحكامه، وتنظيم تحريراته.

ومن ذلك: ما أشارت إليه السورة كثيرًا من إعمال الموازنة بين المتزاحمات، توضيحًا للحكم الشرعي، وتعويدًا للمؤمنين على إعمالها عند تزاحم الأعمال والأسباب والنتائج، وهذا ما يسمى بفقه الموازنة بين المصالح والمفاسد وفقه مراتب الأعمال:

﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗى﴾ [البقرة:٢٦٣].

﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة:٢٧١].

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ﴾ [البقرة:٢٢١].

﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞ﴾ [البقرة:٢٢٨].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٤.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة:٢١٧].

والعديد من الآيات التي تبني فقه الموازنات، وتعوِّد الصحابة إياه، لأنَّ به تتحصل أعلىٰ المصالح وتُدرأُ أشد المفاسد، وبه يكون العدل في الأحكام والمواقف، وهذا نوع من الابتلاء، لأنَّ الموازنة تتطلب اجتهادًا وعلمًا وتجردًا عن الأهواء وحظوظ النفس.

وبهذه الموازنة يتمكن الذين آتاهم الله فهم القرآن من الحكم علىٰ كل مستجد في الحياة، ويستطيعون بناء الحياة الإسلامية في واقعهم؛ علىٰ مستوىٰ الأفراد والأمة.

ومن ذلك: ما أشارت إليه السورة من دقائق في المعالجات الفقهية والنظر في الأمور؛ كبيان المطلوب في حدِّه الأدنىٰ، والأكملِ منه الذي تتحقق به المروءة والتذمم ومحاسن الأخلاق:

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨٠].

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة:٢٣٧].

قال البغوي: (إفضالُ بعضهم علىٰ بعض بإعطاء الرجل تمام الصداق أو ترك المرأة نصيبها، حثهما جميعًا علىٰ الإحسان، لأنه من شيم الأخلاق)[١].

---

(١) معالم التنزيل ١/ ٢٢٤.

وقال السعدي: (ثم رغب في العفو، وأنَّ من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحسانًا موجبًا لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أنْ يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسىٰ الفضل الذي هو أعلىٰ درجات المعاملة، لأنَّ معاملة الناس فيما بينهم علىٰ درجتين:

إما عدل وإنصاف واجب، وهو: أخذ الواجب، وإعطاء الواجب.

وإما فضل وإحسان، وهو: إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسىٰ هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات، وخصوصًا لمن بينك وبينه معاملة، أو مخالطة، فإن الله مجازٍ المحسنين بالفضل والكرم)[1]. فيتعلم القارئ لسورة البقرة أهمية مكارم الأخلاق وتأثيرها في الأحكام الشرعية، وتصير الفقه نموذجًا أخلاقيًّا يقتدىٰ به.

ومن ذلك: ما أشارت إليه السورة من النظر إلىٰ الحكمة والسبب والعلة، فتجعل منها مؤثرات في النظر الفقهي والمعرفي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣].

﴿ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [البقرة:٥٢].

﴿قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:٦١].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٧٨.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة:٢١٩].

قال ابن عاشور: (فإنْ قلتَ: ما الوجه في ذكر منافع الخمر والميسر مع أنَّ سياق التحريم والتمهيد إليه يقتضي تناسي المنافع؟ قلتُ: إنْ كانت الآية نازلة لتحريم الخمر والميسر؛ فالفائدة في ذكر المنافع هي بيان حكمة التشريع، ليعتاد المسلمون مراعاةَ علل الأشياء، لأنَّ الله جعل هذا الدين دينًا دائمًا، وأودعه أُمَّة أراد أنْ يكون منها مشرعون لمختلف ومتجدد الحوادث، فلذلك أشار لعلل الأحكام في غير موضع)[1].

ومن ذلك: ما استفاضت بذكره السورة من الحوارات ومناقشة الشُّبَه والمقولات، بعدِّها أسلوبًا مفيدًا في الاحتجاج والتدليل والمناظرة، ونقض الأدلة الخاطئة ومعالجة الشبهات الواردة، كما في قصة إبراهيم مع النمرود بن كنعان، وكما في النقاشِ الحاصل علىٰ إثر تحويل القبلة، وغيرِهما:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة:١٤٢].

إنها تعلم المؤمن والمتفقه طريقة الحجاج والجدال، وبأي المسائل يبتدئ وبأيها ينتهي.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٣٥٠.

ومن ذلك: اقتران العلم بالتزكية صريحًا في موضعين من سورة البقرة:

﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٥١].

لأنَّ العلم من دون تزكية يتحول إلىٰ وسيلة من وسائل الانحراف، وفي حكاية القرآن عن بني إسرائيل معتبَر.

ومن ذلك: الإشارة إلىٰ أنَّ إبراهيم عليه السلام هو نموذج العلماء الباذلين، الذين جعلهم الله قدوة للناس، فلا يُقتدىٰ إلا بمن كان كذلك:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤].

فهي تربية لطلبة العلم علىٰ إتمام كلمات الله فهمًا وعملًا، وبذلك يجعلهم الله قدوة للناس ودعاة إلىٰ الخير.

وهكذا شيدت سورة البقرة -في وقت مبكر- بناء الفقه والعلم في مجتمع المؤمنين، المجتمع الجديد ذي الخصائص الجديدة والمتفردة، لأنه لا يمكن بناء الأمة إلا ببناء العلم وتشييد الفقه في أفرادها ونظامها ومعيشتها.

وهي دعوة لأهل القرآن أنْ يأخذوا من العلم الشرعي بنصيب وافر، وأنْ يكتسبوا الملكة الصحيحة للتفقه والمنهجية المحمودة للتعلم.

وبتربية الله تعالىٰ لأصحاب نبيه ﷺ علىٰ طريقة النظر في الأدلة والنصوص وترتيبها والاستنباط منها، قامت الأمة الناشئة ونهضت، وتعلمت وغيرت الحياة.. إنها ليست مسألة نظر الآحاد من الناس، وإنما هي منهجية ينبغي أنْ تكون هي السائدة علىٰ مستوىٰ الأفراد والدول والكيانات.

المسؤولية العلمية

يظل أهل العلم في الموقع المركزي للأمم والجماعات، ويظل دورهم في البناء والهدم محل عناية القرآن المدني، ومنذ بدايته. إنها مسألة مفصلية يجب علىٰ الأمة أنْ تعيها وتوجه من نشاطاتها ما يحفظ وصف البناء في دور العلماء.

وبناء الأمة ليس بالأمر اليسير، والعلم شرط البناء وأول طريق النهوض، وهو علامة صحة الطريق، ويتحمل الذين سلكوا طريق العلم أمانة البناء والنهوض، وعليهم تجنب الطرق العلمية المنحرفة، لأنها هي ذاتها التي أودت بأهل الكتاب من قبل.

وإذا كان قد غلب علىٰ المعالجة العلمية في سورة البقرة الحديث عن الانحرافات والمسلكيات الخاطئة التي تلبس بها أهل العلم والمعرفة في أهل الكتاب، فإنَّ سورة آل عمران غلب علىٰ المعالجة العلمية فيها الحديث عن الواجبات والمسؤوليات العلمية.

وسورة آل عمران ثنت الحديث عن أهل العلم من أولها وحتىٰ منتهاها، علىٰ الرغم من اختلاف الموضوعات التي تناولتها السورة، لتشكل بذلك مفهومًا متكاملًا عن دور أهل العلم وطلابه. ويمكن أنْ ننظر -وفقًا للسورة- إلىٰ هذا الدور من خلال عدة أمور:

منها: بيان المحكمات، وتوضيحها وكشف الخفاء عنها، واتباعها والمحافظة عليها، والدعوة إليها[1]:

---

(١) سبق التفصيل في مفهوم المحكمات في مبحث «أم الكتاب».

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧].

وفي هذه الآية إشارة إلىٰ أنَّ اتباع المتشابه دون المحكم وعدم رده إلىٰ المحكم كان سببًا في ضلال النصارىٰ حين أَلَّهوا عيسىٰ عليه السلام، وأصبغوا عليه وعلىٰ أحبارهم ورهبانهم ورؤسائهم بعض صفات الألوهية، وصرفوا لهم بعض أنواع العبودية، وإلا فلو ردوا ما اشتبه عليهم من كونه وُلد بغير أب إلىٰ ما هو محكم عندهم من أنَّ الله خلق آدم بلا أب ولا أم، وأنَّ عيسىٰ عبد الله ورسوله، وأنَّ الله علىٰ كل شيء قدير، وأنه نفىٰ عن نفسه العلية الزوجة والولد، لاتضح لهم وجه الحق، ولما تحرف دين عيسىٰ عليه السلام، الذي هو التوحيد والإسلام.

وعلىٰ رأس المحكمات التي يجب المحافظة عليها والدعوة إليها: أصول دين الإسلام العَشرة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت الحرام.

ويأتي في أولها الدعوة إلىٰ توحيد الله؛ فما دور العلماء في ذلك؟

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

قال السعدي: (وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية، خصوصًا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلىٰ آخرهم قد اتفقوا علىٰ ذلك، ودعوا إليه، وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه)[(١)].

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٣٧ – فروقات.

إنَّ أول واجب علمي علىٰ أهل العلم وطلبته هو حماية التوحيد علمياً من التصاق الشوائب به أو دخول ما ليس منه إليه، وحمايته عملياً وقوع الأنواع المختلفة من الشركيات في الأمة، صغيرها وكبيرها، وبيان حكمها وإنكارها، وتعليم الناس التوحيد النقي والدعوة إليه.

فيا للهلكة إذا نام أهل العلم عن حراسة التوحيد، ويا للهلكة إذا فرطت الأمة في تعلم الإيمان.

ومن حماية المحكمات سعي أهل العلم وطلبته إلىٰ إبطال الدعوات المؤدية إلىٰ التفريط في المحكمات وفضح الفعاليات العالمية الساعية لنشر تلك الدعوات المبطلة، كالجندر والنسوية والمثلية الجنسية والتي تتضمن هدم البيوت وترجل النساء وتخنث الرجال، وكالفوائد المصرفية المتضمنة للربا، ونحو ذلك من الدعوات التي تؤدي إلىٰ نبذ الدين وتدمير الحياة السوية.

ومنها: ردُّ المتشابه إلىٰ المحكم:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾ [آل عمران:٧].

قال ابن كثير: (ومنه آيات أُخر فيها اشتباه في الدلالة علىٰ كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه عليه إلىٰ الواضح منه، وحكَّم محكمه علىٰ متشابهه عنده، فقد اهتدىٰ، ومن عكس انعكس)[١].

وابن كثير في هذه العبارة يذكر الواجب في التعامل مع المتشابهات، وهو ردها إلىٰ المحكم، وذلك يكون بجعل المحكم قاعدة للنظر، وجعل المتشابه فرعًا عنه لا يحيد عن طريقه، وليس العكس، فلا يُرَد المحكم إلىٰ المتشابه كما فعل فريق من أهل الكتاب.

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣١٠.

ورد المتشابهات إلىٰ المحكمات عملٌ علمي عظيم، ينبري له الراسخون في العلم ليحاجوا أهل الباطل والزيغ الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب فيضلون الناس، لذلك سطر التاريخ الإسلامي جهود أئمة السنة وأهل الإصلاح في الردود والمناظرات.

ومنها: المحافظة علىٰ أدب العلم وأخلاق أهله، فإنها عنوان صحة العلم في نفس العالم وطالب العلم، ولذلك وصف الراسخون في العلم في بعض الآثار الـواردة في تفسير الآية بأخلاقهم، كالتجرد عن الأهـواء وحظوظ النفس وقبول الحق والتواضع له، وهذا ما يقيك من البغي الذي ذمه الله تعالىٰ وذم أهله، وقد نقل البغوي قول بعضهم: (الراسخ في العلم من وجد في علمه أربعة أشياء: التقوىٰ بينه وبين الله، والتواضع بينه وبين الخلق، والزهد بينه وبين الدنيا، والمجاهدة بينه وبين نفسه)[1].

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن أبي الدرداء ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ سُئل عن الراسخين في العلم، فقال: (من برَّت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن أعف بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم)[2].

ألا يحدثك قلبك عن القيمة الأخلاقية الواجبة علىٰ طالب العلم؟!

هكذا يربينا القرآن.

ومنها: الاجتهاد في الحكم علىٰ نوازل العصر ومستجدات الحياة وتوليد الحلول للمشكلات المعاصرة، لأنَّ القرآن جاء ليصلح حياة الناس كلهم، في كل الأزمان، قال ابن عاشور: (علىٰ أنَّ من مقاصد القرآن أمرين آخرين: أحدهما كونه

---

(١) معالم التنزيل ١/ ٣٢٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣١٧.

شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين، حتىٰ تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين. وثانيهما تعويد حملة هذه الشريعة، وعلماء هذه الأمة، التنقيبَ، والبحث، واستخراج المقاصد من عويصات الأدلـة، حتىٰ تكونَ طبقات علماء الأمة صالحة -في كل زمان- لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين علىٰ استنباط الأحكام التشريعية)[1].

ومنها: جمع الناس علىٰ أصول الدين ومحكماته، وذلك بدوام اتباع الحق ودوام الدعوة إليه، والتحذير من الاختلاف المذموم والتفرق المقيت:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩].

يقول الشيخ عابد السفياني حفظه الله: (وقد حرص الكفار والمشركون علىٰ أنْ يفرقوا المسلمين عنها لأنهم يعلمون أنَّ المسلمين إذا تفرقوا في المحكمات فإنهم يضلون، ويضيعون مجتمعاتهم، لأنه لا يمكن حفظ المجتمع إلا بحفظ الضروريات الخمس المعروفة، ولا يمكن أنْ يكون المسلمون أمة واحدة إلا باتباع المحكمات، ولم ينحرف الكفار والمشركون إلا بسبب تفرقهم عنها من بعد ما جاءهم العلم، ولما جدد الله سبحانه لهم البلاغ علىٰ لسان الرسول ﷺ كبُر عليهم أنْ يُدعَوا إلىٰ تلك المحكمات)[2].

ومنها: دفع الشبهات ومعالجة الأفكار والصبر علىٰ ذلك، وقد مكث وفد نجران في المدينة أيامًا يناقش الرسول ﷺ في مسائل العقيدة، والرسول ﷺ يجيب عنها ويحاور ويستدل، والقرآن يتنزل كذلك بالإجابات والتبيين، وهو دور العلماء

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٥٨.

(٢) المحكمات في الشريعة الإسلامية ص٨٠.

وطلبة العلم المتيقظين، حراسة للدين وحفظًا لكيان الأمة من الانزلاق في مهاوي الأفكار المنحرفة وتبيينًا للحق الذي خفي:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٤-٦٨].

وقد ذكر أهل التفسير -وأهل التفسير بالمأثور خصوصًا- وأهل السير تلك الحوارات التي أشار إليها القرآن عن وفد نجران، مما تغني الإشارة إليه عن تفصيله في هذا المبحث.

ومنها: الصدع بالحق علىٰ الرغم من المخاطر، وإظهار العلم ولو كانت الحال عُسرة، وبيان حكم الله ولو علىٰ حساب فوات المكتسبات ونقص حظوظ الدنيا:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

ذلك أنَّ الصدع بالحق من أثقل الأشياء علىٰ العلماء وطلبة العلم، إذ تنتظر منهم الأمة كلمة الحق، وينتظر منهم أهل الدنيا كتمان الحق، فيقعون في منطقة حرجة، ويمتحَنون حينها امتحان الأمانة العلمية..

هل يصدعون بالحق؟ ويتحملون تبعات ذلك من الإبعاد والتضييق عليهم في معاشهم والسخرية منهم وتلفيق الاتهامات الباطلة بشأنهم وترويجها بين الناس،

وربما عرَّضوا أرواحهم للقتل والتعذيب وربما آثروا السجن والتغريب لأجل تلك الكلمة: كلمة الحق.

أم يرضخون للأمر الواقع؟ فيكتمون الحق أو يحرفونه أو يتأولونه؛ فتسلم لهم دنياهم، وتسلم لهم معايشهم، وتُغدق عليهم الأموال والمناصب الدنيوية، وتوهب لهم حياة!

لقد أخذ الله عليهم الميثاق ألا يكتموا الحق.

قال السعدي: (الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالىٰ علىٰ كل من أعطاه الله الكتاب وعلمه العلم: أنْ يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علَّمه الله، ولا يكتمهم ذلك ويبخل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه أو وقع ما يوجب ذلك، فإنَّ كل من عنده علم يجب عليه -في تلك الحال- أنْ يبينه، ويوضح الحق من الباطل)[1].

وهذا الميثاق يؤكد لك أنَّ بيان العالم وصدعه بالحق في وقت الحاجة إليه يمثل مفترق طريقين في الأمة: الاستقامة العامة أو الانحراف العام.

ومنها: نزع الربوبية عن الأنبياء والأولياء والصالحين، ونزع الألوهية عن الحكام والرؤساء والمسؤولين، بل محاربة أي شرك بالله مهما كان صغيرًا ودقيقًا، ودفع كل وسيلة توصل إليه مهما كانت الحاجة إليها، ذلك أنَّ فيمن قبلنا مِن الأمم مَن ضلت في هاتيك المسائل:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٧٩-٨٠].

---

(١) تفسير تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٦٨.

إما الدعوة إلىٰ الأرباب، وإما الدعوة إلىٰ الربانية.

وحين يتخلىٰ العالم عن مسؤوليته في حراسة التوحيد، فإنه لا يكون ربانيًّا ولا شاهدًا علىٰ وحدانية الله علىٰ وجه الحقيقة، وسيكون معولًا في تمزيق الأمة وتفرقها وتناحر أبنائها.

وكيف يسكت العالم عن مظاهر الشرك -ولو خفت ودقت- وقد أشهده الله علىٰ وحدانيته؟

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

ألا إنَّ مسؤولية العلم عظيمة!

قال ابن كثير: (فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما أمر الله به وبلَّغتهم إياه رسله الكرام، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام. فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم قيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق)[(١)].

وأول ما يبدأ العالم -في هذا الطريق- بنفسه، فلا يرضىٰ لها أنْ يكال لها المديح والثناء، ولا يحب أنْ يصرف لها التعظيم والألقاب، ولا يقبل أنْ يُمنح العطايا والهبات، لأنه لا يدعو إلىٰ نفسه، إنما يدعو إلىٰ الله العظيم، ولأنه يمقت نفسه في جنب الله، كما قال العالم الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه:

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٦٩.

(لا يفقه الرجل كل الفقه حتىٰ يمقت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلىٰ نفسه فيكون لها أشد مقتًا)[١].

ومنها: الربانية في التعليم:

﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩].

أي: كونوا (علماء حكماء حلماء، معلمين للناس ومربيهم بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرون بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، وبفوات شيء منها يحصل النقص والخلل)[٢].

الربانيون يربون الناس علىٰ حقائق العلم وروحه، وعلىٰ أخلاقه وسمته، إنهم يعكفون الدهر علىٰ غرس الإيمان والتوحيد في نفوس المتعلمين، ولا يرضيهم إلا أنْ يتخرج طلابهم وقد عرفوا حقيقة الإيمان وتعودوا القيام بمسؤولياته وواجباته.

الربانيون حريصون علىٰ تحقيق العلم فيمن يعلِّمون، لأنَّ مرادهم أنْ يكون الرب المعبود هو الله وحده، لا كما فعل -ويفعل- كثيرٌ من الأحبار والرهبان؛ من الوصول بالناس إلىٰ أنْ يتخذوهم أربابًا من دون الله، هذا هو الفرق بين العلماء الأرباب والعلماء الربانيين.

ويكفي في جعل العالم نفسه ربًّا أنْ يغرس في نفوس الناس أنهم لا يستطيعون الوصول إلىٰ الله في طريقهم إلا من خلاله، فيصبح وسيطًا بينهم وبين الله، بشكل خفي. وطرائق هذا الباب كثيرة وملتوية، عافانا الله وإياكم.

أما العالم الرباني فهو الذي استطاع -بتوفيق الله له ثم بحرصه- أنْ يعبِّد الناس لله وحده:

---

(١) جامع البيان ١/ ٦١٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٥٥ - فروقات.

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩-٨٠].

هذه واجبات العلم، وهذه مسؤوليته وأمانته، وعليها انقسم الناس إلىٰ فريقين، (فأما الموفقون فقاموا بهذا أتم القيام، وعلَّموا الناس مما علمهم الله، ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة علىٰ الخلق، وخوفًا من إثم الكتمان.

وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارىٰ ومن شابههم من هذه الأمة، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبؤوا بها، فكتموا الحق وأظهروا الباطل، تجرؤًا علىٰ محارم الله، وتهاونًا بحقوق الله تعالىٰ وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمنًا قليلًا، وهو ما يحصل لهم من بعض الرياسات، والأموال الحقيرة، من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم علىٰ الحق)(١).

إنَّ سورة آل عمران لهي مفتاح مهم في فهم الواجبات المنوطة بأهل العلم وطلابه، إعلاء لحق الله تعالىٰ وتوحيده، وحفاظًا علىٰ جناب العلم الصحيح، وحراسة للأمة من التمزق والانهيار.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٦٨.

الفصل الخامس

البناء الاجتماعي

لما أراد الله تعالىٰ لآدم وذريته أنْ يخلف بعضهم بعضًا في الأرض، وتكون لهم مستقرًّا ومتاعًا إلىٰ قيام الساعة؛ يعملون فيها بطاعته ويقيمون دينه. أعلمَ ملائكته المسبحة بقدسه بهذه الإرادة، فعجبت الملائكة لذلك، لما تعلمه من طبيعة خلق آدم التي تجمع بين الشهوة والغضب والعقل، لأن الطبيعة التي تجتمع فيها هذه الثلاثة من شأنها أنْ ينتج عنها بعض الشرور، فاستفهمت الملائكة من الله تعالىٰ عن الحكمة من هذا الأمر، في الحوار الذي أثبته القرآن:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣٠-٣١].

فإذا كانت الطبيعة الآدمية بهذا الوصف فإنها أحوج ما تكون إلىٰ علم ينير لها طريق الحياة الاجتماعية، وأحوج ما تكون إلىٰ هداية سماوية ربانية تعصمها من الانزلاق في الأخطاء، وتحفظ بها كيانها الاجتماعي.

العقدة المباركة

كل الشرائع السماوية عنيت ببناء نظام الزواج، لأنَّ الزواج الفطري أصل العلاقات والوظائف الاجتماعية، وهو اللبنة التي تبنىٰ منها الأمة، والقرآن يسميه النكاح، بل ويسميه بما يدل علىٰ أنَّ له تبعة تدل علىٰ أهميته، فيقول تعالىٰ:

﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٥].

وهو تعبير جليل القدر، ولا يمكن تسميته بخير من ذلك، ولذلك بوب الفقهاء والمحدثون المسائل الزوجية بالنكاح، وكانوا أكثر دقة علمية وأعمق فهمًا بالمدلولات.

يقول الراغب الأصفهاني: (العقْدُ: الجمعُ بين أطراف الشيء، ويُستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعَقْدِ الحبل وعقد البناء، ثم يستعار ذلك للمعاني نحو: عقْد البيع، والعهد، وغيرهما، والعُقْدة: اسم لما يُعقَد من نكاح أو يمين أو غيرهما)[١].

ويقول كذلك: (أصل النكاح للعقد، ثم استعير للجماع، ومحال أن يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد)[٢]، يشير إلىٰ القول الذي يرىٰ خلاف ذلك.

وقال الزجاج: (والعقود: العهود، يقال: وفيت بالعهد وأوفيت. والعقود واحدها عقد، وهي أوكد العهود، يقال: عهِدت إلىٰ فلان في كذا وكذا، تأويله ألزمته

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص٥٧٧.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص٨٢٣.

ذلك. فإذا قلت: عاقدته أو عقدت عليه، فتأويله أنك ألزمته ذلك باستيثاق)[١].

وعقدة النكاح عقد بين الزوج وزوجه ووليها، يترتب عليه الكثير من المتطلبات والالتزامات من الطرفين، وينبني عليه مسائل السكن والوالدية والبنوة والإرث والعصبة والعاقلة والنسب والمصاهرة، وغير ذلك.

لذلك اعتنت كل التشريعات الأممية والدولية اليوم بموضوع الزواج بما يتوافق مع رؤيتها الاجتماعية والاستراتيجية.

ويرىٰ ول ديورانت أنَّ التشريعات التي سنها «أغسطس» ١٨ ق.م هي أهم التشريعات الاجتماعية في التاريخ القديم[٢]، وذلك ضمن خطة الإصلاح الاستراتيجية لإنقاذ الإمبراطورية الرومية من الانحلال والتهالك.

وهي خطة تتفق في كثير منها -أو في جوهرها- مع الفطرة ومع جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عبر العصور، من تشييد البناء الأسري والحد من التشرذم والانحلال وتضييق الخناق علىٰ العهر والفجور. يقول ديورانت:

(كان ضعف العقيدة الدينية القديمة بين الطبقات العليا سببًا في القضاء علىٰ ما كان للزواج والوفاء والأبوة من حرمة وقداسة، وكانت هجرة الناس من الأرياف إلىٰ المدن قد جعلت الأطفال عبئًا ثقيلًا علىٰ آبائهم، أو لُعبًا يتسلون بها علىٰ أحسن تقدير، بعد أنْ كانوا مصدر ربح لهم، واشتدت رغبة النساء في التجمل واجتذاب الأموال بعد أنْ كن يرين أنَّ خير زينة لهن هي إنجاب الأبناء. وقصارىٰ القول أنَّ

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ١٣٩.

(٢) في الرؤية الإسلامية تحفظ على هذا التصنيف للتاريخ، وإنما أنقل روايته، فنحن نعتقد أنَّ التاريخ يبدأ من خلق آدم كما علمنا القرآن، أما هم فيرون أنَّ التاريخ يبدأ من ظهور الكتابة، في تفصيل ليس هذا محله.

الرغبة في الحرية الفردية بدت في ذلك الوقت مجانية لحاجات العنصر الروماني الأصيل.

ومما زاد الطين بلة أنَّ السعي وراء الهبات والوصايا أضحىٰ وقتئذ أكثر الأعمال ربحًا في إيطاليا، فقد كان الرجال الذين لا أبناء لهم إذا بلغوا مرحلة العمر الأخيرة يجدون أحسن الترحيب في بيوتِ من لهم أبناء، يُستقبلون فيها ويُطعمون، وكان كثير من الرومان يحبون هذه المتعة وهذا النوع من الحياة اللينة، حتىٰ أصبحت سببًا آخر من أسباب العقم! يضاف إلىٰ هذا أنَّ طول سني الخدمة العسكرية حال بين كثيرين من الشبان وبين الزواج في أكثر سني العمر صلاحية له.

وامتنع كثيرون من الرومان الأصليين عن الزواج بتاتًا، وفضلوا الاتصال بالعاهرات أو اتخاذ السراري والعشيقات؛ حتىٰ علىٰ تعدد الزوجات متفرقات. ويلوح أنَّ الكثرة العظمىٰ من المتزوجين عمدت إلىٰ تحديد عدد أفراد أبنائها باللجوء إلىٰ إجهاض الزوجات وقتل الأطفال ومنع الحمل.

واستخدم «أغسطس» ما له من حقوق بوصفهِ رقيبًا وتربيونًا [التربيون: مسؤول منتخب يمثل الشعب في حماية المصالح العامة والدفاع عنها]، فأصدر طائفة من القوانين -أو لعله حمل الجمعية علىٰ إصدارها- تهدف كلها إلىٰ تقويم الأخلاق وتشجيع الزواج والوفاء بين الأزواج والأبوة الصالحة والحياة البسيطة، والعودة بها إلىٰ السنن القديمة. وحرَّمت هذه القوانين علىٰ المراهقين والمراهقات أنْ يحضروا دور اللهو العامة في صحبة الكبار من أقاربهم؛ ومنَع النساء من مشاهدة الاستعراضات الرياضية، وقصَر أماكنهم في المجتلدات علىٰ المقاعد العليا؛ ثم حدد مقدار ما ينفَق من المال في البيوت، وعلىٰ الخدم والولائم والزواج والجواهر والملابس. وكان أهم هذه «القوانين اليوليائية» كلها «القانون اليوليائي الخاص بالعفة ومنع الزنىٰ» ١٨ق. م.

وبهذا القانون وضع الزواج لأول مرة في التاريخ الروماني تحت حماية الدولة، بعد أنْ كان متروكًا لسلطة الآباء في أسرهم، واحتفظ الأب بحقهِ في قتل ابنتهِ الزانية هي وشريكها ساعة أنْ يضبطهما متلبسين بهذه الجريمة، وأُجيز للزوج أنْ يقتل عشيق زوجته إذا ضبطه في منزله، أما زوجته فلم يكُن له أنْ يقتلها إلا إذا ارتكبت الفحشاء في بيته هو. وكان يطلب إلىٰ الزوج الذي يكشف عن خيانة زوجته أنْ يأتي بها إلىٰ المحكمة في خلال ستين يومًا من هذا الكشف؛ فإذا لم يفعل هذا كان يُطلب إلىٰ والد الزوجة أنْ يقوم هو بهذا العمل؛ فإذا لم يفعل الوالد نفسه ذلك جاز لأي مواطن أنْ يتهمهما.

وكان عقاب المرأة الزانية أنْ تُنفىٰ من البلاد طوال حياتها، وأنْ تجرد من ثلث ثروتها ومن نصف بائنتها، وأنْ يحرم عليها الزواج مرة أخرىٰ.

وقد قُررت هذه العقوبات نفسها علىٰ الزوج الذي يتغاضىٰ عن زوجته الزانية. غير أنه لم يكُن من حق الزوجة أن تتهم زوجها بالزنىٰ، فقد كان له أنْ يتصل بالعاهرات الرسميات المسجلات دون أنْ يعاقبه القانون علىٰ هذا الاتصال. ولم يكُن هذا القانون يطبق إلا علىٰ المواطنين الرومان)[1].

والحق أنني أردت بهذا الاقتباس المطول أمرين معًا:

الأول: بيان خطر الانحراف الاجتماعي في مفهومي الزواج والأسرة علىٰ الأمم والممالك والدول، وأنَّ التساهل في ضبط نظام الزواج الفطري لا يؤدي إلىٰ تفكك أهل البيت فقط، بل يتجاوز ذلك إلىٰ تحلل الأمة والدولة وضعفهما وتهالكهما.

الثاني: اهتمام أولي الأمر بالشأنين الزواجي والأسري، لكونهما من الركائز الاستراتيجية في قوة الأمة وضعفها، وبابًا إلىٰ تماسك الدولة وتمزقها.

---

(١) قصة الحضارة ١٠/ ٢٨-٣٠ بتصرف يسير.

يمكن أنْ تضع خلاصة مفادها: قل لي ما نظام الزواج؛ أقل لك ما هو حال الأمة.

وإنما أوردت لك مثالًا واحدًا علىٰ ذلك، وإلا فإنَّ التاريخ لا يكفُّ عن حكاية هذه الأحوال، لا يكف عن التأثر -قوة وضعفًا- بكيان الزوجية، ولا يكف عن الحملات التصحيحية بما يتوافق مع الرؤىٰ الاستراتيجية للنخب الحاكمة وأهل الرأي والقرار.

وهكذا تجتهد الأمم والممالك في إيجاد نظرية اجتماعية تعنىٰ بمفهوم الزوجية والبيت، لما سيكون لها من أثر بالغ في قوته وضعفه.

وفي مستهل بناء الأمة الجديدة نزلت سورة البقرة -وغيرها من السور بالتأكيد- لتضع اللبنات الفكرية والتشريعية لشؤون البيت والزواج، إذ لا تقوم الأمة إلا إذا كان نظام الزوجية الفطري فعالًا.

ففي موضوع الزواج، ذكرت السورة تزويج حواء من آدم، وأخبرتنا أنَّ زواج الذكر بالأنثىٰ كان في مبدأ أمر الخليقة، ما يشير إلىٰ فطرية الزواج وكونه أصلًا في بناء البيوت:

﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:٣٥].

ولاحظ هنا أنَّ السكنىٰ في الجنة لا تكتمل إلا بزوجه حواء!

فمع ما في الجنة من نعيم وملذات، إلا أنَّ آدم لم يتحصل له السكن والاستقرار إلا بوجود زوجة يأوي إليها وتسكن نفسه إليها.

أخرج الطبري[١] عن ابن عباس وابن مسعود أنَّ الله تعالىٰ أخرج إبليس من الجنة حين لُعن، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشًا ليس له زوج يسكن

(١) جامع البيان ١/ ٥٤٨.

إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة؛ خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟

فقالت: امرأة. قال: ولمَ خُلقت؟ قالت: لتسكن إليَّ. لاحظت؟

آدم يدخل الجنة، ثم هو لا تسكن نفسه بما فيها من النعيم حتىٰ ينعم الله عليه بالزوجة.والزوجة تخبر أنَّ وظيفتها -وهي إذ ذاك في الجنة- تسكين وحشة آدم. ثم يهبط آدم إلىٰ الأرض ومعه زوجه: هو يسعىٰ في الأرض. وهي تسكن نفسه؛ ليستطيع القيام بواجبه.

آدم له وظيفة. وحواء لها وظيفة مختلفة.

وهذه أول هداية يجب علىٰ الأمة أنْ تفهمها، وهي أنَّ الحياة لا تصلح إلا بالزواج، ولا تستقر إلا به، حتىٰ لو كانت الحياة في وسط الجنة المملوءة نعيمًا وترفًا ولهوًا وزينة، وأنَّ الذين ينشدون الاستقرار والطمأنينة في أي شكل من أشكال التمتع خارج إطار الزوجية الفطرية إنما يسعون لمعاكسة ما جُبلوا عليه ومخالفة فطرهم، فلا ريب بعد ذلك أنْ ينعكس استقرارهم اضطرابًا وشتاتًا، وأنْ تؤول سكناهم وحشة وجفافًا.

والثقافة الغربية اليوم لا ترفع بشأن النكاح رأسًا، ولا تُعلي من شأنه، لأنها تعتمد نظام الأسرة وحدةً للمجتمع، ثم تجعل للأسرة مفهومًا أوسع من قصره علىٰ الزواج الفطري؛ إذ يشمل أي اجتماع بشري في مكان إقامة مشترك ذي خصائص محددة. سواء كان الاجتماع بين رجل وامرأة أو بين رجلين أو بين امرأتين، وسواء كان الأطفال من ولادة طبيعية من الزوجين أو من الأم فقط أو بالتبني. والأب ليس هو الأصل! ناهيك بمسائل العصمة والميراث وبر الوالدين...

عقدة النكاح هي الفطرة القويمة، والتي لا قوام للحياة إلا بها، وعليها اتفقت جميع الشرائع. وبها يستمر النسل ويتكاثر الناس كما أراد الله تعالىٰ لآدم حين خلقه:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠].

ألا ترىٰ أنَّ أوروبا لديها الكثير من الإشكالات المتعلقة بالنظام البشري.

ثم إنه في مرحلة الحروب الصليبية المتأخرة، والتي تسمي نفسها «الاستعمار»، قام تياران مناهضان للبناء الزواجي الفطري، المكون من الأب والأم والأبناء، وهذان التياران الشيوعية والنسوية، معاداة للفطرة، وحربًا علىٰ قوة الأمة التي تكتسبها من عقد النكاح، وسعيًا إلىٰ تقوية رابطة الدولة الحديثة وهيمنتها بإقصاء رابطة الدم والنسب والأسرة والقبيلة، وإسقاطًا لمعاني الشرف والنبل والعفاف في الشعوب ليبقىٰ الفرد بعد ذلك ذليلًا مأجورًا للكيانات والمنظمات.

واليوم يعلو وينتفش تيار تحرير المرأة الغربي (النسوية)، وتقف معه أنظمة ومؤسسات دولية وأممية بغرض عولمته علىٰ الأمم المغلوبة والبلاد المهزومة، من خلال مواثيق تُوقَّع باسم تمكين المرأة ورفض التمييز العنصري بين الجنسين وحقوق المرأة، ومن خلال تصدير ثقافته عبر الوسائل التي تخاطب الأجيال الجديدة.

وفي سورة البقرة نجد القرآن يعلي من شأن الزواج في صورته الوجدانية والعاطفية، فيصفه باللباس لقربه والتصاقه وستره:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧].

والطبري يذكر للباس في هذه الآية ثلاث دلالات، كلها تعلي من شأن الرابطة الزوجية، وإنما عبر عنها القرآن بالتكنية أدبًا تعليميًّا، فيقول:

(فإنْ قال قائل): وكيف يكون نساؤنا لباسًا لنا ونحن لهن لباسًا؛ واللباس إنما هو ما لبس؟

قيل: لذلك وجهان من المعاني:

- أحدهما أنْ يكون كل واحد منهما جُعل لصاحبه لباسًا لتجردهما عند النوم، واجتماعهما في ثوب واحد، وانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه؛ بمنزلة ما يلبسه علىٰ جسده من ثيابه، فقيل لكل واحد منهما هو لباس لصاحبه، كما قال نابغة بني جعدة:

إذا ما الضجيع ثنىٰ عطفها تداعت فكانت عليه لباسا

فكنىٰ عن اجتماعهما متجردين في فراش واحد باللباس، كما يكنىٰ بالثياب عن جسد الإنسان.

- والوجه الآخر أنْ يكون جعل كل واحد منهما لصاحبه لباسًا لأنه سكن له، كما قال جل ثناؤه: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ [الفرقان:٤٧] يعني بذلك سكنًا تسكنون فيه. وكذلك زوجة الرجل سكنه يسكن إليها، كما قال تعالىٰ ذكره: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] فيكون كل واحد منهما لباسًا لصاحبه بمعنىٰ سكونه إليه، وبذلك كان مجاهد وغيره يقولون في ذلك.

- وقد يقال لما ستر الشيء وواراه عن أبصار الناظرين إليه هو لباسه وغشاؤه، فجائز أنْ يكون قيل: هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، بمعنىٰ أنَّ كل واحد منكم ستر لصاحبه -فيما يكون بينكم من الجماع- عن أبصار سائر الناس)[1].

وذكرت سورة البقرة التماثل بين حقوق الزوجين علىٰ بعضهما، مع زيادة درجة القوامة والرياسة للرجل:

---

(١) جامع البيان ٣/ ٢٣١.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٨].

قال ابن عاشور: (وكان الاعتناء بذكر ما للنساء من الحقوق علىٰ الرجال، وتشبيهه بما للرجال علىٰ النساء، لأنَّ حقوق الرجال علىٰ النساء مشهورة، مسلَّمة من أقدم عصور البشر، فأما حقوق النساء فلم تكُن مما يُلتفت إليه، أو كانت متهاونًا بها، وموكولة إلىٰ مقدار حظوة المرأة عند زوجها، حتىٰ جاء الإسلام فأقامها. وأعظم ما أُسست به هو ما جمعته هذه الآية)[1].

وزيادة الدرجة تكون في الحقوق للرجل، فهو القائم علىٰ رعايتها وحمايتها والإنفاق عليها وإسكانها وسَوْق المهر لها، فلزم من ذلك أنْ يكون القائد والقائم والرئيس لبيته وأهله. قال السعدي: (أيْ رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤])[2].

وهي درجة تشبه -من باب التمثيل والتقريب فحسب- درجة مدير المؤسسة ورئيس الدائرة، فهذه الدرجة له لا تعني هوان الأعضاء والموظفين أو احتقارهم.

لكن المشغبين علىٰ شريعة الله والذين يحسدون المسلمين علىٰ شرفهم وتماسكهم وفضلهم يزعمون أنَّ هذا انتقاص لحق المرأة، ويسودون الصحف ويملؤون الفضاء ضجيجًا بالمناداة بحق المرأة، وفي المسلمين سماعون لهم.

وتعلمنا سورة البقرة أنَّ الإيمان بالله هو أهم معيار للزواج، سواء في ذلك الرجل والمرأة، ولأنَّ حياتنا مؤطرة به فينبغي أنْ يكون الزواج كذلك:

---

(١) التحرير والتنوير ٢/ ٣٩٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١٧٠.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٢١].

وذكرت السورة ما يحل وما يحرم في عقد الزوجية، فمثلًا:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢-٢٢٣].

تحريم الجماع مدة المحيض -ومثلها مدة النفاس- وجواز الاستمتاع بما دون ذلك في هذه المدة، ويكون التطهر فصلًا بين الحيضة والجماع، وإباحة الاستمتاع بكل شيء عدا الدبر: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وفي آيات الصيام أحل للمسلمين ذلك في ليالي الصيام دون نهارها، وحرم ذلك في حال الاعتكاف.

وذكرت السورة تحريم الإيلاء -هو الحلف علىٰ ترك وطء الزوجة- علىٰ الرجال لمدة تزيد علىٰ أربعة أشهر، لما فيه من الإضرار بحق الزوجة والاعتداء عليها:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٦-٢٢٧].

وبعد أربعة أشهر يخير الرجل بين الرجوع «الفيئة» إلىٰ وطء زوجته والتكفير عن اليمين، أو الطلاق، والفيئة أحب إلىٰ الله.

ثم ذكرت السورة أحكام الطلاق: عدد الطلقات وما يترتب عليها من أحكام متعلقة بالمهر والسكن والنفقة والعدة والرجعة ورضاع الأولاد؛ مما تؤلف في تفاصيله المجلدات من الكتب.

وذكرت السورة أحكام عدة المتوفىٰ عنها زوجها، وأحكام الخطبة وكيف تكون، ومكارم الأخلاق المأمولة في تلك الأحوال.

لكن الله تعالىٰ يحذر من التلاعب بهذه الأحكام، لأنَّ في التلاعب بها والالتفاف عليها وعدم العمل بها إضرارًا يلحق بالبيت والأمة:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٣١]

قال البغوي: (لا تتخذوا آيات الله هزوًا بالإعراض عنها والتهاون في العمل بما فيها)[١].

ونددت السورة بالتفريق بين الزوجين وفصل رباطهما عدوانًا، حتىٰ إنها لما أرادت أنْ تبين خطر السحر، ذكرت أشد آثاره علىٰ الأمة:

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢].

قال ابن عاشور: (إشارة إلىٰ جزئيٍّ من جزئيات السحر، وهو أقصىٰ تأثيراته، إذ فيه التفرقة بين طرفي آصرة متينة؛ إذ هي آصرة مودة ورحمة، فإنَّ المودة وحدها آصرة عظيمة، وهي آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما، والرحمة وحدها آصرة،

(١) أنوار التنزيل ١/ ١٤٣.

منها الأبوة والبنوة، فما ظنكم بآصرة جمعت الأمرين)[1].

إنَّ تحطيم أواصر الزوجية من أكبر الاستراتيجيات التي لا يكف الشيطان عن السعي لتحقيقها في واقع الناس؛ لما في ذلك من استرقاق لهم وتدمير لكيانهم وتمزيق لهوية الإنسان، ولهذا الغرض يقيم إبليس جائزته اليومية.

عن جابر بن عبد الله ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ إبليس يضع عرشه علىٰ الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا، قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتىٰ فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت). قال الأعمش: أراه قال: (فيلتزمه)[2].

فوجود البيت المبني علىٰ الزواج الفطري هو أشد علىٰ الشيطان من كثير من شؤون الاستقامة السلوكية.

وفي تعظيم حق الوالدين ذكَّرت السورة بأنَّ حقهما شريعة قديمة، جاءت بها الرسل والأنبياء وأُنزلت بها الكتب:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣].

ومن أعظم فضائل الوالدين حفاظهما علىٰ حق الله في الزواج؛ فالزواج أصل الوالدية، ونقل شرفه إلىٰ الأبناء، وتوريث الإسلام إلىٰ الأجيال اللاحقة، وهذه بعض الحكمة في تشريع بر الوالدين والإحسان إليهما عند الكبر.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٥].

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٦٤٤.

(٢) أخرجه مسلم ٤/ ٢١٦٧، ح٢٨١٣.

وسورة البقرة إذ تحث علىٰ بر الوالدين وتقديمهما في الإنفاق والإحسان؛ تنبه إلىٰ أنَّ واجب البر لا يصح أنْ يطغىٰ فيتحول الوالدان إلىٰ مصدر تشريع وتتحول أعرافهما وعاداتهما وما اعتاداه إلىٰ حق مطلق واجب التقليد والاتباع:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (دعا رسول الله ﷺ اليهود من أهل الكتاب إلىٰ الإسلام، ورغبهم فيه، وحذَّرهم عقاب الله ونقمته، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا؛ فإنهم كانوا أعلم وخيرًا منا، فأنزل الله الآية)[1].

والآية ترفض التعصب لآراء الآباء إذا هي خالفت الحق، وأنَّ الحمية لهم لا تصح ما لم يكُن الحق معهم.

ولم تغفل السورة ذكر النماذج الصالحة في تربية الأبناء علىٰ توحيد الله وتعظيم حقه والتزام طاعته، فهذا إبراهيم عليه السلام يبني البيت الحرام بمعية ابنه إسماعيل، ويدعو بصلاح ذريته:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

ومسؤولية الحفاظ علىٰ توحيد الله بالعبادة واجتناب الشرك وتوريثه للأجيال اللاحقة كان شعورًا متجذرًا في أنبياء الله تعالىٰ، حتىٰ إنهم ليوصون به أبناءهم في أكرب الساعات وأشدها؛ أعني ساعة الاحتضار:

---

(١) جامع البيان ٣/ ٤٢.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢-١٣٣].

أعظم ما يقدمه البيت لأبنائه، وما تقدمه الأجيال الحالية للأجيال اللاحقة هو توريث التوحيد ونقل رسالته إليها.

وإن كانت سورة البقرة أطلعتنا علىٰ شيء من سيرة آل إبراهيم، فإنَّ سورة آل عمران أطلعتنا علىٰ شيء من سيرة آل عمران:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٣-٣٧].

وقصت علينا من نبأ أم مريم عليها السلام، التي تقربت إلىٰ الله بأنْ نذرت حملها لله، وجعلته وقفاً لعبادة الله وخدمة بيته ودينه، وتالله إنها منزلة عظيمة تلك التي تجعل هذه الأم تغلِّب الآجل علىٰ العاجل وتغلِّب الأجر علىٰ الغريزة وتغلِّب الإرادة العلمية علىٰ الإرادة العاطفية. فجعلها الله قدوة للأمهات في معرفة مقصود الحياة، وأنَّ المقصود الأسمىٰ -علىٰ مر العصور والأحقاب- هو عبودية الله تعالىٰ، وهي قدوة لهن في طريقة تفكير الأم تجاه أولادها، وأنه ينبغي أنْ يكون عندها أمومة

صالحة في أولادها تفوق أمومة الحيوانات المقتصرة علىٰ الرعاية البدنية والأنس العاطفي وإشباع الغريزة. هذا سيفضي بالأم إلىٰ الاهتمام الديني بأولادها وتربيتهم علىٰ ما يرضي الله وتقديمهم فداء لدين الله وخدمة له، وهي قدوة لهن في استثمار حياة الأولاد فيما يعود عليهن بالأجر الموفور من الله، وتقديم ذلك علىٰ مصالح الدنيا وعلىٰ إشباع غريزتها الأُمية.

الأم الصالحة هي الرصيد الاستراتيجي في نصرة دين الله تعالىٰ وبناء الأمة القوية بتحرير أولادها لله تعالىٰ من كل عبودية وارتباط يقيدهم عن أداء حق الله وحق الأمة عليهم، ولا يثنيها عن ذلك الأمر الخوف علىٰ الولد من الموت أو العوز أو البعد.

حتىٰ الاسم، لم يكن مجرد اسم، بل قامت امرأة عمران بتسمية ابنتها تسمية دالة علىٰ إدراكها لمقصود الحياة ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾. قال الشوكاني: (ومقصودها من هذا الإخبار بالتسمية التقرب إلىٰ الله سبحانه، وأنْ يكون فعلها مطابقـًا لمعنىٰ اسمها، فإنَّ معنىٰ مريم خادم الرب بلغتهم، فهي وإنْ لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة فذلك لا يمنع أنْ تكون من العابدات)[1].

فهذه البيوت العريقة المؤمنة هي النموذج الأصلح للاقتداء في حرصها علىٰ هداية بنيها المتمثل في الدعاء لهم وتنشئتهم علىٰ توحيد الله وطاعته واحتساب الأجر في ذلك.

ولقد نشأت الأمة علىٰ هذه المفاهيم الفطرية للنكاح والزواج والأبوة والبنوة، وعاشت علىٰ ذلك قرونًا، حتىٰ وطئت جيوش الاستعمار بلاد المسلمين، واحتلت أرضهم، ونشرت عقائدها وأفكارها وثقافاتها، وفطنت إلىٰ القوة المتجذرة في

---

(١)فتح القدير ١/ ٣٨٤.

الأمة -أعني عقدة النكاح- فعمدت إلىٰ تسخير أدواتها بغرض تدمير نظام الزواج الفطري، وإحلال مفاهيم جديدة للأسرة بديلًا عن مفهوم القرآن، فسخرت الإعلام والفن والقضاء والتجارة وكل ما يمكن لإزاحة هذه القوة العتيدة، فأصبح المسلم اليوم -يا للأسف- يناقش حقوق المرأة وقضية المرأة وتمكين المرأة وحرية المرأة، وغيرها من المصطلحات الفضفاضة ذات المفاهيم المنحرفة والأبعاد التفكيكية، التي لم تعهدها الأمة من قبل.

نحن مطالبون بالعودة إلىٰ نداء الفطرة، والرجوع إلىٰ هدايات القرآن لتصح حياتنا وتقوىٰ أمتنا، والله المستعان.

حركة الأموال

بات من الأهمية بمكان -في تأسيس الأمة المسلمة- أنْ يكون لها نظام مالي، يحافظ علىٰ كيانها الاجتماعي من الضعف والاهتراء، ويحفظ علىٰ الأفراد حقوقهم الخاصة، ويأخذ بيد الفئة الضعيفة وغير المنتجة.

ولكل أمة نظامها الاقتصادي، لأنَّ المال عصب الحياة، ولا يمكن بحال إغفال هذا الجانب في إدارة الدول والجماعات والكيانات. فكيف بالممالك العظمىٰ! ثم كيف بأمة أراد الله لها أنْ تكون خير أمة أخرجت للناس. وأراد الله لها أنْ تكون أمة عالمية لا إقليمية. وأراد الله لها أنْ تكون أمة رحمة لا أمة ظلم واستعباد!

وقد بعث الله نبيه ﷺ، وبعث به هذه الأمة الجديدة، وقد كان العالم تائهًا في دروب الضلالة الاقتصادية، وإذا ضربنا بعض الأمثلة علىٰ ذلك فإننا سنذكر المثال الأبرز حينها، وهو النظام الإقطاعي الذي شاع في بقاع كثيرة من العالم، لا سيما في أوروبا، وهو نظام اجتماعي اقتصادي تعتمده الممالك الزراعية..

فالأرض في المملكة الإقطاعية هي مِلك الملِك، ويوزعها إقطاعات علىٰ الأمراء في نظير التزامات مالية أو عسكرية يقدمها الأمراء، ويزيد عدد الأمراء وينقص بحسب المساحة التي يملكها هذا الملك.

ويقسم الأمير الواحد مقاطعته إلىٰ إقطاعات أصغر مساحة، يوزعها بين طبقة من السادة الإقطاعيين في نظير التزامات يتكفلون بها.

ويعيش السادة الإقطاعيون علىٰ عمل الفلاحين وكدهم؛ الذين يرتبطون بالأرض ويصيرون جزءًا منها، فعندما تباع الأرض أو تنتقل ملكيتها فإنَّ الفلاحين أيضًا تنتقل ملكيتهم إلىٰ السيد الجديد، ويخضعون لإرادة هؤلاء السادة الإقطاعيين[1].

والنظام الإقطاعي يحمل معه -طبيعيًّا- نظامًا اجتماعيًّا يحدد مفهوم المواطنة والدولة، والحقوق والواجبات تبعًا لذلك، كما يضع تعريفًا لعلاقة السيد الإقطاعي بالفلاحين «أقنان الأرض» وعلاقته بالأمير وعلاقة الأمير بالملك.

ولما تنصرت أوروبا في القرن الرابع الميلادي أقرت هذا النظام، وجعلت الكنيسة شريكًا فيه، بل أصبح الأساقفة ينافسون الأمراء! في السيطرة والتحكم والاستعباد؛ ولكن بطريقة فيها بعض الاختلاف.

وهذا النظام الإقطاعي لم يأتِ باعتبار الأصلح والأفضل للناس، وإنما أفرزته الحروب والصراعات التي خولت القوي أنْ يفرض نظامًا اقتصاديًّا يصب في مصلحته أولًا، والتي سخرت الحركة المالية في تعبيد الناس لأسيادهم، فاتخذ الناس بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله؛ كما تعبر الآية في سورة آل عمران:

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وانتشر النظام الإقطاعي في بقاع كثيرة في العالم إضافة إلىٰ أوروبا.

هذا مثال لما كان وقتها من أنظمة اقتصادية.

ومما تفشىٰ قبل مبعث نبينا ﷺ في الجزيرة العربية وغيرها كذلك: الخمر والميسر والربا.

---

(١) انظر: القاموس السياسي ص٩٦.

وهي -إذا صحت العبارة- سياقات اقتصادية اجتماعية، أضرت بالمجتمع في بنيته، وأضرت بالفرد كذلك.

كانت الخمر علامة علىٰ الكرم والسخاء والثراء، وكان الشعراء يتمدحون بها لأجل ذلك، يقول عنترة:

وإذا شربت فإنني مستهلك   مالي، وعرضي وافر لم يكلم

ويقول عمرو بن كلثوم في مستهل معلقته:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمــور الأندرينا

وكانت لها مراسم وطقوس يسيرة في شرابها، وكانت أنواعًا وألوانًا، كما كانت مصدر ربح للتجار والمزارعين.

وكذلك الميسر الذي هو في حقيقته مقامرة بالمال، لكنه موضوع علىٰ هيئة كرم وبذل، وكان يُنفق منه -تمدحًا- علىٰ الفقراء، ويتضمن كسبًا سريعًا من دون عمل ولا استحقاق، وكانت له طقوس يعمل بها الناس تدلك علىٰ أنَّ الميسر كان له شأن كبير في الحركة المالية والاجتماعية في الناس[1].

وأما الربا فقد كان أعظم هذه النظم إجرامًا في حق الناس وكسبًا للمال بالباطل، إذ تؤول فكرة الربا إلىٰ أنْ يتضخم المال في أيدي القلة من الناس من دون كثير جهد، في حين يتحول الناس إلىٰ عبيد كادحين لأجل سداد الدائنين المرابين.

وكان في المجتمعات الجاهلية دائنون مرابون معروفون، يقرضون الناس، فإذا طلب هؤلاء المدينون تأجيل سداد ديونهم أجلوا السداد بشرط الزيادة في الدين، وهكذا في كل مرة.

---

(١) انظر في تفصيله -على سبيل المثال- التحرير والتنوير ٢/ ٣٣٩ وما بعدها.

وهذه أمثلة علىٰ الخطوط التي كان يتحرك المال وفقها والسياقات الاقتصادية في الأمم والمجتمعات، وليس المقصود استقصاء كل الصور والعناصر التي تكونت منها النظم الاقتصادية الجاهلية.

المهم.. لقد تحولت حركة المال في المجتمعات إلىٰ سيف مصلت علىٰ رقاب الناس، وكان القوي يأكل الضعيف، ونتج عن ذلك: الطبقية، وهي التفاوت في الدرجة بين الناس، ما يترتب عليها من آثار اجتماعية؛ يتعلق بعضها بالزواج والشرف والقضاء والرأي المسموع، والحقوق والواجبات.

ويدلك علىٰ ذلك وصف النبي ﷺ لهذه الحالة في الحديث الذي روته عنه أمنا عائشة رضي الله عنها (أنَّ قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حِب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟! ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله! لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[1].

في ذلك الحين نزل القرآن، ليهدي الناس صراط الله المستقيم، في كل شؤون حياتهم، ومن أهمها: الخطوط المستقيمة لحركة الأموال.

وكانت سورة البقرة حافلة بهذا التأسيس العادل بين الناس، الرحيم بهم، المعترف بحقهم في التملك، والدليل علىٰ ذلك مجيء نحو ثلاث وعشرين آية متتالية في بيان ما يحل وما لا يحل، ما يحسن وما لا يحسن، إضافة إلىٰ الآيات المتفرقة بهذا الشأن.

---

(١) أخرجه البخاري ٤/ ١٧٩، ح٣٤٧٥.

ففي حركة المال وكسبه أباحت سورة البقرة البيع والشراء والدين والرهن ونحو ذلك:

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢].

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ [البقرة:٢٨٣].

وحرمت السورة أكل المال بالباطل:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨].

قال الزجاج: أيْ تعملون علىٰ ما يوجبه الإدلاء بالحجة، وتخونون في الأمانة، لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم، وأنتم تعلمون أنَّ الحجة عليكم في الباطن، وإنْ ظهر خلافها[1].

وهذه الآية تحمِّل المسلم مسؤوليته تجاه التدرع بالقوانين التجارية التي يستطيع أحيانًا أنْ يأكل المال بالباطل من خلالها أو بالالتفاف عليها، فإذا ما قيل له اتقِ الله، قال: أنا أتكسب وفقًا للقوانين، ولم أخرق النظام! قال ابن عطية: (قال قوم: معنىٰ الآية تسارعون إلىٰ المخاصمة إذا علمتم أنَّ الحجة تقوم لكم، إما بألَّا تكون علىٰ الجاحد بينة، وإما بأن يكون مال أمانة كاليتيم ونحوه مما يكون القول فيه قوله، فالباء في «بها» باء السبب)[2].

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٥٨.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٦٩١.

وقال قتادة: (اعلم -يا ابن آدم- أنَّ قضاء القاضي لا يحل لك حرامًا، ولا يُحق لك باطلًا، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرىٰ ويشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أنَّ من قُضي له بباطل أنَّ خصومته لم تنقضِ حتىٰ يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي علىٰ المبطل للمحق بأجود مما قضي به للمبطل علىٰ المحق في الدنيا)[1]. وقال الشوكاني: (لا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال)[2].

وهذه مسؤولية أخلاقية يجب علىٰ المسلم أنْ يكون لها أهلًا، فقدرته علىٰ أكل المال بالباطل لا تبرر له صنيعه عند الله تعالىٰ، ومن هنا ونحوه نص أهل العلم علىٰ أنه (ليس كلُّ سببٍ نال به الإنسان حاجته يكون مشروعًا، بل ولا مباحًا)[3].

وتلك الآية تعمُّ كل أكل مال بالباطل، فكل معاملة تزيد رصيدك المالي بغير وجهٍ تستحقه لا تجوز لك.

هذا قانون الإسلام في المال.

وسورة البقرة هيأت الناس لتحريم الخمر والميسر، وتحريم الخمر يعني تحريم تجارتها التي كانت أحد مصادر الدخل المهمة لمجتمعات الجاهلية، لأنَّ تجارة الخمر تشمل تصنيعها ونقلها وتوزيعها وتحضير المواد الخام وصناعة أوعيتها وبيعها وغير ذلك، وتحريم الميسر يعني تحريم الأموال التي تصرف في وجه اللهو والمقامرة:

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٨٠.

(٢) فتح القدير ١/ ٢١٧.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٧٧.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢١٩].

عن عائشة، قالت: (لما أنزلت الآيات من سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلىٰ المسجد، فقرأهن علىٰ الناس، ثم حرم تجارة الخمر)[١].

وهذا من التدرج في تحريم الخمر، حيث التنبيه علىٰ ضررها وتحريم تجارتها، وشيئًا فشيئًا حتىٰ نزل التحريم الصريح لشربها.

وأشارت الآية إلىٰ الاعتناء بما تؤول إليه المعاملات المالية، مما يصح أنْ يكون مؤثرًا في أحكامها.

وحرمت سورة البقرة أكل الربا واتخاذه وسيلة للتكسب والتعامل المالي:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

وآيات الربا هذه حوت الكثير من المسائل الفرعية المرتبطة به، قال القرطبي: (الآيات الثلاث تضمنت أحكام الربا وجواز عقود المبايعات، والوعيد لمن استحل الربا وأصر علىٰ فعله. وفي ذلك ثمانٍ وثلاثون مسألة)[٢].

وقد ذكرت لك هذه العبارة لتدرك عناية سورة البقرة بتأسيس نظام الاقتصاد الرباني؛ العادل والرحيم، فقد قام أهل التفسير والفقه باستنباط الأحكام الكثيرة

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٤٠٩، ح٤٦٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٢٥.

منها، وهذه الأحكام عبارة عن تفصيلات تشريعية لجوانب في النظام الاقتصادي وحركة الأموال.

وتأمل التشديد في تحريم الربا، فقد جعله الله مؤذنًا بحربه، وأنَّ الأمة التي تعتمد علىٰ الربا أمة تحارب الله ورسوله، فوالله لقد عرضت نفسها للخسارة ومحق البركة والضعف الاقتصادي، لأنه لا يمكن لأحد أنْ يغلب الله في حربه.

ثم إنَّ سورة البقرة حين منعت من هذه السياقات المالية المنحرفة كشفت الستار عن شريعة رحيمة عطوفة علىٰ الناس، فبدلًا من انتفاع الناس بالربا مؤقتًا، ثم وقوعهم في الخسارة الفادحة، أو تحولهم إلىٰ عبيد لدىٰ الدائنين الجشعين؛ جاءت الشريعة بإنظار الدائن المعسر احتسابًا لوجه الله تعالىٰ.

ثم فرضت السورة الإنفاق في سبيل الله والصدقة علىٰ الفقراء والمحاويج من عموم الناس، فلم ترغب بإهمال هذه الفئة التي لم تتمكن -بشكل أو بآخر- من الاستكفاء بما لديها، ووجب علىٰ الأمة أنْ تقدم لها الدعم الكافي:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وشريعة الإنفاق تعود بالنفع علىٰ فاعلها، وتعود بالنفع علىٰ الأمة التي جعلتها جزءًا من ثقافتها وهويتها، فالأمة التي تنفق في سبيل الله لا تحتاج إلىٰ مد يدها إلىٰ الكافر الأجنبي، ولا تحتاج إلىٰ مد يدها إلىٰ المرابي الجشع، إنها في حالة من الاكتفاء الذاتي، وفي حالة من التدوير الصحيح للأموال بين أيدي الناس كافة، ألا ترىٰ أنَّ الله تعالىٰ جعل الإنفاق وسيلة للنجاة من الضعف الذي ينتاب المجتمعات والأمم، بل جعل الله تعالىٰ ترك الإنفاق في سبيل الله سبيلًا إلىٰ الهلكة والضياع والضعف والتمزق:

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾ [البقرة:١٩٥].

قال حذيفة بن اليمان وابن عباس والحسن وعطاء وعكرمة وجمهور الناس: (المعنىٰ لا تلقوا بأيديكم بأنْ تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة؛ فيقول الرجل ليس عندي ما أنفق)[1]. وهذا مفهوم أصيل في الإسلام، أعني أنَّ سد حاجات الأمة المالية احتسابًا يقوي الأمة ولا يضعفها، ويخلف الله به علىٰ صاحبه ولا ينقصه، جاءت بذلك سورة البقرة إبان تأسيس الأمة الجديدة المؤمنة. فالجميع إذًا مستفيد من حركة المال وفق شريعة الإنفاق، وليسوا كذلك إذا تمت الحركة هذه وفق النظام الربوي.

في تنشئة الأمة المسلمة أراد الله أنْ يهديها لأحسن حركات المال نفعًا وصلاحًا في طريقة الكسب وطريقة الإنفاق. وهذا الإنفاق محفوف بمكارم الأخلاق والمروءات، لا كإنفاق أهل الجاهلية الذي يرفع الناس ويخفضهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٦٢].

فهذه شريعة أخلاقية، ليست كالنظم الجافة الصلفة، والتي لا تعبأ بالإنسان ولا تراعي وجدانه ولا تجتذب حبه وقلبه، ولا تهتم بما ستؤول إليه شخصيته.

والمال في حقيقته وسيلة وليس غاية، وهذا ما جهدت سورة البقرة في تبيانه وغرسه في عقلية المؤمن؛ هي وآل عمران جنبًا إلىٰ جنب، وذلك من خلال الحث علىٰ الإنفاق في حالة تشوف النفس للمال:

﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٧٠٢.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢].

وحذرت السورة من إيهامات الشيطان وتخويفه من نقص المال وضعف الاقتصاد وانتشار الفقر بسبب الإنفاق في سبيل الله وترك المحرمات من المعاملات المالية، وللشيطان أتباع من الإنس يحملون رايته وينظرون بعينه، فيوردون أدلتهم ودراساتهم علىٰ ضرورة الربا، والأثر الإيجابي لحرية الكسب المطلقة:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨].

وقد أوحىٰ الشيطان اليوم إلىٰ أوليائه، وأملىٰ عليهم كثيرًا من الخطط والطرائق التي تفضي إلىٰ أكل المال بالباطل، وزينها في نفوس الخلق، وجملها في عقولهم، حتىٰ آلت إلىٰ أنْ تكون شبهات تتطلب العرض والنقد والمناقشة والتفنيد، كما تجعل المؤمن أكثر حاجة إلىٰ الاستهداء بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ليكون علىٰ بصيرة من أمره، في كسبه وإنفاقه، ذلك أنَّ الله تعالىٰ سيسأل كل فرد يوم القيامة عن ماله: من أين اكتسبه، وفيمَ أنفقه.

فإذا قام النظام الاجتماعي علىٰ حركة المال الشرعية، وتحمل الأفراد مسؤولياتهم الأخلاقية تجاه ذلك أصبحت الأمة أقوىٰ ما تكون.

أسباب القوة والنصر

استجاب الله تعالىٰ لإبراهيم عليه السلام دعوته أنْ يجعل من ذريته أمة مسلمة وأنْ يبعث الله فيهم رسولًا منهم، وذلك بمبعث نبينا ﷺ ونشوء الأمة المسلمة والدولة العادلة في المدينة:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

والله تعالىٰ بين لنا أنَّ سبيل الفلاح والتمكين هو الاهتداء بالقرآن:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥].

فإنَّ الاهتداء بالقرآن يعني الصعود والقوة والتماسك، ويعني الرقي والسمو والعلو.

وكما أنَّ هذا الأمر كان يتطلب القيام بعدد من المهام والتضحيات، والتي منها الهجرة من الأوطان ومفارقة الأهل والعشيرة والأزواج والتخلي عن الأموال والممتلكات والعقار.. فإنَّ الحفاظ عليه يتطلب أيضًا العديد من المهام والتضحيات والواجبات، وقد أراد الله تعالىٰ لهذه الأمة أنْ تكون أمة قوية، أمة قادرة علىٰ حمل الرسالة الخاتمة والمهيمنة، أمة تستطيع مواجهة التحديات التي تعترض لها عبر الأزمان، ولا يريد الله لها أنْ تكون أمة ضعيفة مستضعفة، ولا أمة مخذولة مهزومة.

وقد أفاضت سورة آل عمران في بيان مكونات السياج الذي به تُحفظ الأمة من الانهيار والتآكل والتمزق، وعناصر القوة التي تجعلها قائمة علىٰ سوقها ومناكفة لخصومها.

- **ومن تلك الأسباب رعاية المحكمات وحفظها والدعوة إليها:**

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧].

والاعتناء بمحكمات الشريعة يحفظ الأمة من الانحلال والتمزق والانهيار، ذلك أنها محل إجماع المسلمين وسبب اجتماعهم وتوحدهم، كما سبق بيانه. لذلك تكرر الأمر بالاعتصام بالله تعالىٰ وبحبله المتين:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

ولذلك استفهمت السورة إنكارًا عن عدم الاهتداء بكتاب الله تعالىٰ ورسوله ﷺ:

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٠١].

قال قتادة: (علمان بينان: وجدان نبي الله ﷺ وكتاب الله؛ فأما نبي الله فمضىٰ ﷺ؛ وأما كتاب الله فأبقاه الله بين أظهركم، رحمة من الله ونعمة، فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته)(١).

فالمقصود أنَّ الله جعل الاهتداء بكتابه سببًا مباشرًا في فلاح الأمة ونجاح المجتمعات وقوتها وبقائها متماسكة، ألا ترىٰ أنَّ من مقاصد وجود المتشابهات

---

(١) جامع البيان ٥/ ٦٣٤.

في كتاب الله ضمان استمرار صلوحية الوحي في هداية الأمة، بالحكم على كل المستجدات والنوازل.

- **ومن أسباب القوة والنصر الاجتماع على الهدى والتعاقد على الحق والتناصر عليه:**

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣].

قال البيضاوي: (أيْ ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب، أو لا تتفرقوا تفرقكم في الجاهلية يحارب بعضكم بعضًا، أو لا تذكروا ما يوجب التفرق ويزيل الألفة)[1].

ويبسط القرطبي بيان ذلك فيقول: (ولا تفرقوا، يعني في دينكم كما افترقت اليهود والنصارى في أديانهم؛ عن ابن مسعود وغيره. ويجوز أنْ يكون معناه: ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة، وكونوا في دين الله إخوانًا، فيكون ذلك منعًا لهم عن التقاطع والتدابر، ودلَّ عليه ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع، فإنَّ ذلك ليس اختلافًا؛ إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع، وأما حكم مسائل الاجتهاد فإنَّ الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ودقائق معاني الشرع، وما زال الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث وهم مع ذلك متآلفون)[2].

---

(١) أنوار التنزيل ٢/ ٣١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٠٣.

والأمة التي تختلف نخبها علىٰ المحكمات، ويدب إليها البغي والتفرق والتشرذم أمة ضعيفة، أمة تشرع أبوابها لدخول الغزاة، وتفتح خزائنها لهم للاستقواء علىٰ الفريق الآخر منهم، والتاريخ كشف حجبه عن وقائع من هذا القبيل.

ولا يتم اجتماع الأمة علىٰ شيء مثل الاهتداء بالوحي في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، هذا الاجتماع والتآزر والتكتل ضروري في بناء الأمة ومواجهة الأزمات والتصدي للأعداء. ألا ترىٰ أنَّ عيسىٰ عليه السلام نادىٰ في الحواريين:

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٥٢-٥٣].

قال ابن كثير: (والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلىٰ الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أنْ يهاجر: «من رجل يؤويني حتىٰ أبلغ كلام ربي؟ فإنَّ قريشًا قد منعوني أنْ أبلغ كلام ربي». حتىٰ وجد الأنصار، فآووه ونصروه وهاجر إليهم، فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر، رضي الله عنهم وأرضاهم)[1].

الاجتماع علىٰ محكمات الشريعة مقياس قوة.

- **ومن أسباب القوة والنصر التي تقوي قواعد الأمة وتحفظ سياجها العدل والقسط في كل شيء:**

وسورة آل عمران تربي المسلمين علىٰ هذا المعنىٰ:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٤٩.

قال ابن عاشور: (وقد أقام الله القسط في تكوين العوالم علىٰ نُظمها، وفي تقدير بقاء الأنواع، وإيداع أسباب المدافعة في نفوس الموجودات، وفيما شرع للبشر من الشرائع في الاعتقاد والعمل: لدفع ظلم بعضهم بعضًا، وظلمهم أنفسهم، فهو القائم بالعدل سبحانه، وعدل الناس مقتبس من محاكاة عدله)[1]. وكما أنَّ الكون لا يقوم إلا بالعدل، فكذلك الأمة لا تقوم إلا به.

والأمة التي تأذن بظلم القوي للضعيف وتسمح بذلك أمة غير شريفة، ولا هي تستحق النصر من الله، بل كلما خفتت أضواء العدل وعلا ضجيج الظلم آذنت الأمة بالانهيار والتمزق وتسلط الأعداء، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه ﵁ قال: (سأل رسول الله ﷺ جعفرًا ﵁ حين قدم من الحبشة: ما أعجب شيء رأيته؟ قال: رأيت امرأة تحمل علىٰ رأسها مكتلًا من طعام، فمرَّ فارس فركضه، فأبدره، فجلست تجمع طعامها، ثم التفتت فقالت: ويلٌ لك إذا وضع الملك تبارك وتعالىٰ كرسيه، فأخذ للمظلوم من الظالم. فقال رسول الله ﷺ تصديقًا لقولها: لا قدست أمة، أو كيف تقدس أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها غير متعتع)[2].

- **ومن أسباب القوة والنصر الاستصحاب الدائم لأحوال الآخرة ومنازلها:**

فإنَّ الإيمان باليوم الآخر علىٰ وجه الحقيقة، والعلم بدقائقه ومشاهده وتفاصيله، يولد رقابة داخلية لدىٰ أفراد الأمة، رقابة تمنعهم من ارتكاب المحظور وتدفعهم إلىٰ القيام بالواجبات، وتوقظ فيهم حس المحاسبة والمجاهدة، فتجعلهم أفرادًا صالحين، لا تسيطر عليهم الشهوات فتحرفهم عن طريق الهداية، وتحيل

---

(١) التحرير والتنوير ٣/ ١٨٧.

(٢) أخرجه البزار ١٠/ ٣٥٥، ح٤٤٦٥. والقصة حسنها الألباني، أما لفظ الحديث فقد صححه، كما في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٣٥٩، ح١٨١٦-١٨١٩.

هؤلاء الأفراد إلىٰ بناة لصرح الأمة، لما ورد في فضائل الأعمال المتعدية النفع من الأجور العظيمة، ولهذا جاء بعد ذكر المحبوبات من متاع الحياة الدنيا التذكير بما للصالحين المهتدين النافعين من أجر عظيم ورزق كريم في الآخرة، حتىٰ لا يغتروا بمفاتن الدنيا عن الأدوار الرئيسة التي لأجلها خلقوا؛ وإنْ كانت مباحة:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٤-١٧].

إنَّ الأمة التي تهتدي بكتاب ربها تسمو علىٰ الشهوات، وإنْ كانت مباحة، إنها لا تمنع نفسها مما أحل الله تعالىٰ ولا تحرمه علىٰ نفسها، ولكنها تقدرها بقدرها، وتجعلها وسيلة لا غاية ومفضولة لا فاضلة، ولا تتقيد بها، ولا تكون مأسورة لملذاتها.

ولقد جاء التذكير باليوم الآخر ومشاهده في التعقيب علىٰ عدد من القضايا المهمة الأخرىٰ التي تناولتها السورة، كالتعقيب علىٰ الاعتداء علىٰ الأنبياء والآمرين بالقسط، وكالتعقيب علىٰ الإعراض عن التحاكم إلىٰ كتاب الله، وكالتعقيب علىٰ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاختلاف والتفرق، وكالتعقيب علىٰ النهي عن أكل الربا، وكالتعقيب علىٰ الغلول ومنع الزكاة، وكالتعقيب علىٰ بذل النفس في سبيل الله والاستشهاد في أرض الجهاد، وكالتعقيب علىٰ تقلب الكافرين في الأرض، وغير ذلك.

الأمة التي لا تؤمن إلا بالقوة المحسوسة أمة ضائعة فاقدة للبوصلة، تتيه في ظلمات المعاصي والانحرافات، وتديم سجودها للدرهم والدينار، وتبيع شرفها لأجل خميصة أو خميلة، وتقترب كل يوم من حتفها وهلكتها ونهايتها.

والناس الذين تخضع قلوبهم للغيب الأخروي يقيم الله بهم اعوجاج الأمة وينهضها الله من كبوتها بهم، فأنت ترىٰ الرقي والسمو، ولهذا قال الإمام مالك: (بلغني أنَّ النصارىٰ كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا)[1]. لقد كانوا علىٰ درجة من البهاء والرقي ما يجذب إليهم الناس كالمغناطيس، ولا أقول ذلك علىٰ مستوىٰ الأفراد -وهم كذلك- وإنما أقصدهم بوصفهم أمة وكيانًا.

- **ومن تلك القواعد البذل والسخاء والإنفاق في سبيل الله:**

الإنفاق في سبيل الله ورفعة الدين ونهضة الأمة وحمايتها من الانهيارات وإغناء الفقراء وإعفاف المحاويج، إلىٰ الدرجة التي تصل بصاحبها إلىٰ أنْ ينفق من أعز ما يملك، لأنَّ قيمة الشهوات انخفضت لديه لصالح الأمة وفي سبيل المصالح العامة: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢].

قال عطاء: (لن تنالوا شرف الدين والتقوىٰ حتىٰ تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء)[2]. وقال ابن عطية: (أيْ من رغائب الأموال التي يُضن بها)[3].

أنْ يتحول الإنفاق والبذل في أوجه الخير -بلا مقابل- إلىٰ ثقافة اجتماعية ومنهج حياة؛ هذا دليل علىٰ قوة الأمة الداخلية، وقدرتها علىٰ التماسك، مهما بلغت

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٧٠١.

(٢) معالم التنزيل ١/ ٣٨١.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٤.

الخطوب والمخاطر، ولذلك ضرب أصحاب الرسول ﷺ أروع الأمثلة في وجوه الإنفاق المختلفة، ومثال أبي بكر وعثمان وأبي الدحداح وأبي طلحة ظاهر.

وهذا أيضًا يعني ارتفاع حس المسؤولية لدىٰ أفراد الأمة المسلمة الواعية، لذا قال ابن عطية: (وإذا تأملت جميع الطاعات وجدتها إنفاقًا مما يحب الإنسان، إما من ماله وإما من صحته وإما من دعته وترفهه، وهذه كلها محبوبات)(١).

- **ومن أسباب القوة والنصر تعظيم البيت الحرام:**

البيت الذي جعله الله مباركًا وهدىٰ للناس، وجعل فيه من آثار إبراهيم عليه السلام، الاسم الذي يذكرنا دائمًا بالحنيفية والتوحيد:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦-٩٧].

يقول السعدي: (فوصفه بخمس صفات، أحدها: كونه أسبقُ بيوت العالم وضْعًا في الأرض.

الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرًا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق.

الثالث: أنه هدىٰ، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتىٰ كأنه نفس الهدىٰ.

الرابع: ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد علىٰ أربعين آية.

الخامس: الأمن الحاصل لداخله.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٥.

وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس علىٰ حجه؛ وإنْ شطت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار)[١].

ألا ترىٰ أنَّ الله أوجب الحج إليه؛ إذ لا تقوم الأمة بغير السفر إليه والازدحام في ساحته. قال الطبري: (وأصل البك الزحم، يقال منه: بك فلان فلانًا إذا زحمه وصدمه فهو يبكه بكًّا، وهم يتباكون فيه: يعني به: يتزاحمون ويتصادمون فيه، فكأن بكة: فَعْلَة من بكَّ فلان فلانًا: زحمه، سميت البقعة بفعل المزدحمين بها)[٢].

فكلما كان المسجد الحرام محتفظًا بهذه الصفات، باقيًا علىٰ هيئته التي أرادها الله تعالىٰ.. كان أكثر بركة للعالم وأكثر صلاحًا ونفعًا في المعايش.

وآيات البيت الحرام التي ذكرها أهل العلم عجيبة، ومما يطول بذكرها المقام، وقد سمعت مرة واحدًا من طلاب العلم من المعتنين بحدود الحرم المكي؛ يتحدث عن آيات الله تعالىٰ في جغرافية مكة وحدودها وجبالها وأوديتها وأمطارها وتاريخها، ما يدهش السامع ويحثه علىٰ الاستزادة من معرفة خصائص هذه البلدة المباركة التي حجها الأنبياء من قبل.

- **ومن أسباب القوة والنصر القيام بأمر الدعوة إلىٰ الخير ومداومة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤-١٠٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٥٩.

(٢) جامع البيان ٦/ ٢٣ - ت: شاكر.

واختلف المفسرون في قوله تعالىٰ ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٌ﴾ هل «من» تعني بعضكم أم تعني كلكم؟

فابن جرير الطبري والقرطبي والبيضاوي وابن كثير والشوكاني والسعدي علىٰ أنها للتبعيض، أي جماعة منكم يدعون إلىٰ الخير.

والبغوي والزجاج وابن عطية علىٰ أنها تعني كلكم.

قال السعدي: (أيْ جماعة، يدعون إلىٰ الخير وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلىٰ الله ويبعد من سخطه، ويأمرون بالمعروف وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه، وينهون عن المنكر وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه.

وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أنْ يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلىٰ سبيله وإرشاد الخلق إلىٰ دينه، ويدخل في ذلك: العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلىٰ الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلىٰ الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم الشرعَ كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٌ﴾ إلخ، أيْ لتكُن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة.

ومن المعلوم المتقرر أنَّ الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به، فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العُدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلُّم العلم الذي يحصل به الدعوة إلىٰ الخير ووسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم علىٰ تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه،

وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلىٰ الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين)[1].

وكأنك تقرأ خطة النهضة الإسلامية، لكن الحقيقة أنَّ معنىٰ الآية هكذا، معناها أنَّ علىٰ مجموع الأمة -بغض النظر عن الأفراد- أنْ يقوموا بواجبهم تجاه الإصلاح ومنع الفساد، وتجاه الارتقاء ومنع السفول، وتجاه التقوي ومنع الضعف، وتجاه البناء ومنع الشروخ والتصدعات.

وهذا هو تلخيص فكرة الواجبات الكفائية في الإسلام.

وابن كثير -وإنْ كان يرىٰ التبعيض- يوجب علىٰ الجميع القيام بالدعوة إلىٰ الخير، فيقول[2]: (والمقصود من هذه الآية أنْ تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإنْ كان ذلك واجبًا علىٰ كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإنْ لم يستطِع فبلسانه، فإنْ لم يستطِع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان، وفي رواية: وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[3].

وابن عطية يمدنا بمزيد من البسط في شرحها وتحليلها، فيقول: (قال الضحاك والطبري وغيرهما: أُمر المؤمنون أنْ تكون منهم جماعة بهذه الصفة، فهم خاصة أصحاب الرسول، وهم خاصة الرواة. فعلىٰ هذا القول «من» للتبعيض، وأمر الله الأمة بأنْ يكون منها علماء يفعلون هذه الأفاعيل علىٰ وجوهها ويحفظون قوانينها علىٰ الكمال، ويكون سائر الأمة متبعين لأولئك، إذ هذه الأفعال لا تكون إلا بعلم واسع، وقد علم تعالىٰ أنَّ الكل لا يكون عالمًا.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٦٥ - فروقات.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٩٣.

(٣) أخرجه مسلم ١/ ٦٩، ح٤٩.

وذهب الزجاج وغير واحد من المفسرين إلىٰ أنَّ المعنىٰ: ولتكونوا كلكم أمة يدعون، و«من» لبيان الجنس، ومعنىٰ الآية علىٰ هذا التأويل: أمر الأمة بأنْ يكونوا يدعون جميع العالم إلىٰ الخير، الكفار إلىٰ الإسلام، والعصاة إلىٰ الطاعة، ويكون كل واحد من هذه الأمور علىٰ منزلته من العلم والقدرة. قال أهل العلم: وفَرَض الله بهذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية إذا قام به قائم سقط عن الغير.

قال: والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف علىٰ مراتب، ففرْض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة وحملهم علىٰ جادة العلم، وفرْض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم هي اليد، وفرْض سائر الناس رفعه إلىٰ الحكام والولاة بعد النهي عنه قولًا؛ وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إنْ رأىٰ أحد نازلة بديهة من المنكر كالسلب والزنىٰ ونحوه فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويَحسن لكل مؤمن أنْ يحتمل في تغيير المنكر؛ وإنْ ناله بعض الأذىٰ)[(١)].

وفرض الكفاية معني بكفاية الأمة من الخير، فإذا قام بالدعوة إلىٰ الخير من يكفي في ذلك ويسد حاجة الأمة إليه سقط التكليف عن الباقين، وأما إذا لم يكفِ ما قام به البعض فإنَّ الدعوة إلىٰ الخير تظل متعينة باقية الفرض علىٰ مجموع الأمة، حتىٰ تُسد الحاجة ويتم الاكتفاء.

وبعض الناس يظنُّ واهمًا أنَّ الأعمال المتعدية النفع ليست من صلب العبودية، فرد الله هذا الظن:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ

(١) المحرر الوجيز ١/ ٤٨٥ بتصرف.

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

قال ابن عاشور: (وقد جمعت هذه الخصال جماعَ الفضائل الفردية والاجتماعية؛ الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال.

فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، لأنهما ينبثق عنهما سائر التحلِّيات المأمور بها، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها، والمواساة تَقْوىٰ عنها الأخوة والاتحاد وتسدد مصالح للأمة كثيرة، وببذل المال في الرقاب يتعزز جانب الحرية المطلوبة للشارع حتىٰ يصير الناس كلهم أحرارًا، والوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية وهي ثقة الناس بعضهم ببعض، والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة)(١).

والأمة التي يخفق أفرادها في سد الحاجات الخيرية والاكتفاء بمجالات قوتها ونمائها تتسارع إليها الآفات، وتصبح عرضة لنهب الأمم الأخرىٰ وغزوها.

- **ومن أسباب القوة والنصر القيادة المؤمنة المؤتمنة، التي تبني قيادتها علىٰ اللين والرحمة والتواضع، والتي تشارك الأمة أمرها، وتستند إلىٰ قوة الله وحده:**

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٥٩-١٦٠].

---

(١) التحرير والتنوير ٢/ ١٣٢.

ورسول الله ﷺ يوحىٰ إليه، ومع ذلك يأمره الله بأنْ يستشير الناس، قال ابن عطية: (والشورىٰ من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه. وصفة المستشار في الأحكام أنْ يكون عالمًا دينًا، وقلَّ ما يكون ذلك إلا في عاقل، فقد قال الحسن بن أبي الحسن: ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله. وصفة المستشار في أمور الدنيا أنْ يكون عاقلًا مجربًا وادًا في المستشير. والشورىٰ بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب الخلافة -وهي أعظم النوازل- شورىٰ، وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما بحضرتهم)[1].

فالهداية إلىٰ الأفضل هي سبيل إلىٰ النصر والقوة، وهذه الآية نزلت عقب المصيبة التي حلت بالمسلمين في أحد، والتي كان أحد أسبابها رأي بعض شباب الصحابة الذين حرصوا علىٰ الخروج للقتال، فاستجاب النبي ﷺ لهذا الرأي تأدبًا بآداب القيادة السامية، وليس اقتناعًا بهذا الرأي، فإنَّ رأي النبي ﷺ كان في التحصن بالمدينة والقتال داخلها.

فأراد الله تعالىٰ أنْ يعطي الأمة درسًا في أخلاق القيادة من جانب ودرسًا في أهمية التشاور من جانب آخر، حتىٰ وإنْ كانت له نتائج سلبية، لأنَّ القيمة الناتجة عن الحفاظ علىٰ هذا المبدأ أهم من النتائج المادية، لأنَّ هذه المبادئ مفتاح للنصر وسبب للقوة، قال ابن عطية: (ثم ثبَّت تعالىٰ المؤمنين بقوله: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾ أيْ فالزموا الأمور التي أمركم بها، ووعدكم النصر معها)[2].

- **ومن أسباب القوة والنصر فهم قوانين الخلق ونظامه وسنن الله فيه وسننه في الأمم والمجتمعات والدول:**

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٦٧٣.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٦٧٦.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٧-١٣٨].

قال ابن عاشور: (والمعنىٰ قد مضتْ من قبلكم أحوال للأمم، جاريةٌ علىٰ طريقة واحدة؛ هي عادة الله في الخلق، وهي أنَّ قوة الظالمين وعتوَّهم علىٰ الضعفاء أمرٌ زائل، والعاقبة للمتقين المحقين. وفي الآية دلالة علىٰ أهمية علم التاريخ لأنَّ فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل، وأسباب صلاح الأمم وفسادها)[1].

ومن تلك السنن الربانية:

- أسباب النصر وأسباب الهزيمة.
- وأسباب هلاك الأمم والجماعات.
- ومركزية المساجد والبيت الحرام في معايش الناس.
- وأنَّ العدل قامت عليه السماوات والأرض.
- وأنَّ الظلم مؤذن بخراب العمران.
- وأنَّ ترك الواجبات الكفائية مفسد للكيان الاجتماعي ومدمر لبناء الأمة.
- وغير ذلك مما جاءت به آل عمران وغيرها من سور القرآن.

■ **ومن أسباب القوة والنصر الجهاد في سبيل الله والدفاع عن بيضة الإسلام:**

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٩٧.

﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٦].

لكن العمل علىٰ تقوية قواعد الأمة وسياجها يلزمه تقوىٰ وصبر.. وليس الأمر بالتمني ولا بالأوهام والأحلام.

بلىٰ إنْ تصبروا وتتقوا.

فبالصبر وتقوىٰ الله يكون توقي أذىٰ العدو وحربهم.

ونلاحظ -بعد هاتين الآيتين بيسير- ورود النهي عن أكل الربا في سياق الحديث عن غزوة أحد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣١].

ليتبين لك أثر المعاملات الربوية علىٰ إضعاف الأمة المسلمة ووقوعها في مرمىٰ السهام الأجنبية. قال السعدي في هذه الآيات وما بعدها: (ولعل الحكمة -والله أعلم- في إدخال هذه الآيات أثناء قصة أحد أنه قد تقدم أنَّ الله تعالىٰ وعد عباده المؤمنين؛ أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم علىٰ أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، فكأنَّ النفوس اشتاقت إلىٰ معرفة خصال التقوىٰ التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوىٰ؛ التي إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولىٰ وأحرىٰ، ويدل علىٰ ما قلنا أنَّ الله ذكر لفظ «التقوىٰ» في هذه الآيات ثلاث مرات)[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٤١.

وقد أعلم الله تعالىٰ الأمة أنه سيتولىٰ إضعاف قلوب عدوهم، وسينزل فيها الرعب، إذا تحققت في الأمة أسباب القوة والنصر:

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠-١٥١].

فلا يزال أهل الشرك والنفاق في خوف ورعب؛ وإنْ أبدوا غير ذلك، أو كانوا أكثر عدة وعتادًا، وهذا يوجب علىٰ كل مؤمن في أمة الإسلام أنْ ينزع عن قلبه الخوف من غير الله؛ فإنَّ الشيطان لا يفتأ أنْ يدخل في قلبك الخوف من غير الله، وعندها عليك أنْ تتذكر قوة الله وجبروته، وأنْ تستعين به:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

فعمليات التخويف التي تُبث في المؤمنين هي من كيد الشيطان، وذلك بأنه يخوف المؤمنين بقوة أوليائه الكافرين وحلفائهم قال السدي: (يعظم أولياءه في صدورهم ليخافوهم)[(١)]، لكن تخويفه لا يعمل في القلوب المؤمنة العارفة بالله وقوته وقدرته وسننه وأيامه، وينبغي ألا يلج قلب المؤمن من ذلك شيء، هكذا نهىٰ الله تعالىٰ عن مخافتهم، (فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإنَّ نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته)[(٢)].

---

(١) معالم التنزيل ١/ ٤٥٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٦٢.

- **وفي خاتمة السورة نصت الآيات علىٰ خلاصة ما هو مطلوب من المؤمنين في الأمة المسلمة، فقالت بوضوح تام:**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فلن تفلح الأمة إلا إذا لزم أفرادها الصبر والتقوىٰ وصابروا علىٰ ذلك واستمروا وثبتوا علىٰ صبرهم وتقواهم ومرابطة الثغور التي يريد العدو أنْ يتسلل منها إلىٰ كيان الأمة.

إنه الجد والمثابرة والثبات.

وإنه شعور الرباط الذي ينبغي لمن يعملون في خدمة الأمة المسلمة ودعوتها أنْ يستصحبوه، ولابن تيمية كلام يحسن إيراده هنا، إذ يعطي وصفًا أدق للرباط: (والمرابطة في سبيل الله أفضل من المجاورة بمكة والمدينة وبيت المقدس، حتىٰ قال أبو هريرة ﭬ: «لأنْ أرابط ليلة في سبيل الله أحب إلي من أنْ أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود». فقد اختار الرباط ليلة علىٰ العبادة في أفضل الليالي عند أفضل البقاع؛ ولهذا كان النبي ﷺ وأصحابه يقيمون بالمدينة دون مكة؛ لمعانٍ منها: أنهم كانوا مرابطين بالمدينة. فإنَّ الرباط هو المقام بمكان يخيفه العدو ويخيف العدو، فمن أقام فيه بنية دفع العدو فهو مرابط، والأعمال بالنيات)[(١)].

وهذا يقتضي أنَّ ثغور الرباط تشمل كل المواقع التي تمثل خطرًا -في الاعتناء بها أو إهمالها- علىٰ مستوىٰ الأمة.

بهذه العناصر وتلك القواعد يجب علينا بوصفنا أفرادًا في الأمة المسلمة أنْ

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤١٨.

نبذل ما نستطيعه، من وقت وجهد ومال وعلم في سبيل تقويتها، حراسة للأمة وحفظًا لكيانها.

فاللهم اجعلنا من المتقين الصابرين المرابطين علىٰ ثغور الأمة المتنوعة.

أسباب الضعف والانهيارات

كما أنَّ للأمة قواعد متينة وسياجًا منيعًا يحفظها من التآكل والذبول ومن الاختراق والانهيار، فإنها أيضًا معرضة للأمراض التي تُضعف جسدها والمعاول التي تهدم حصونها.

وسورة آل عمران عنيت بالحديث عن هذه الأمراض والمعاول كما عنيت بالحديث عن المقومات والقواعد والسياج، لتجعل أصحاب النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار -والأمة من بعدهم- علىٰ بينة من واجبات الانتماء إلىٰ أمة الإسلام، وعلىٰ وضوح من استحقاقات الأمة عليهم، إذ لا تكتمل هوية المسلم دون أنْ يؤدي واجباته نحو أمته، فيحافظ علىٰ ارتفاع رايتها ومتانة حصونها، وهكذا القرآن الكريم يهدينا إلىٰ ما فيه قوتنا وتماسكنا وصمودنا، ويعلمنا أسباب الضعف والتردي حتىٰ نجتنبها ونحاذرها.

عرفـتُ الشـر، لا للشـر ولكـن لتوقيـهِ
ومـن لا يعـرف الشـر مـن الخيـر يقـع فيـهِ

وسورة آل عمران توضح أنَّ أسباب الضعف والانهيارات لا تكون من خارج الأمة، بل من داخلها:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[آل عمران:١٦٥].

وتجلية هذه الحقيقة غرضه أنْ تعي الأمة المسلمة أنها وحدها المسؤولة عن قوتها وضعفها، ونصرها وهزيمتها، فهي التي تقوي بنيانها أو تضعفه، بل إنَّ سورة آل عمران لتبين أنَّ مؤامرات الأعداء لا تبلغ من الأمة المسلمة ما يبلغ منها على أيدي أبنائها:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران:١١١].

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران:١٢٠].

- **فمن معاول الهدم وعوامل الضعف التي نستفيدها من سورة آل عمران: رفض الاهتداء بالكتاب والرسول:**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٠-١٢].

قصة آل فرعون من أكبر الأدلة التاريخية علىٰ أنَّ القوة والمنعة التي تتمتع بها الدول والجماعات لم تمنعها من السقوط إذا هم كفروا وأشركوا. قال السعدي: (وهذه الحال التي ذكر الله تعالىٰ أنها لا تغني الأموال والأولاد عن الكفار شيئًا سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرىٰ لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة، العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود، لما كذبوا بآيات الله، وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا؛ أخذهم الله بذنوبهم، عدلًا منه لا ظلمًا، والله شديد العقاب علىٰ من أتىٰ بأسباب العقاب؛ وهو الكفر والذنوب علىٰ اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها)[١].

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٣٤ - فروقات.

قصة انتفاش فرعون ثم سقوطه جديرة بالاعتبار، حيث القوة المالية القوة العسكرية والقوة العمالية، لقد وصل الحال بفرعون إلىٰ أنْ يزعم أنه الإله وأنه الرب.

لكن هذا الجحود كافٍ في استحقاق السقوط، ولا شك.

وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ ليتبين لك أنَّ القوة المادية لا تنفع أهلها إذا اجتمعت بها الذنوب المهلكة.

والله تعالىٰ يخبر أنَّ العلو والغلبة للذين يتبعون الرسل وليس للذين يكفرون:

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران:٥٥].

وما يحصل خلاف ذلك فهو تربية إلهية للمسلمين، قال السعدي: (وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارىٰ وغيرهم علىٰ المسلمين: حكمةً من الله وعقوبة علىٰ تركهم لاتباع الرسول ﷺ)[1].

ضعف الأمة الحقيقي هو بضعف اتباعها للنبي ﷺ وبضعف التزامها كتاب الله تعالىٰ، وقد ربىٰ الله الصحابة علىٰ هذا المعنىٰ حين انتزع النصر منهم في غزوة أحد بسبب مخالفتهم قواعد النصر وقوانين القوة الإيمانية، ذلك أنَّ بعضهم تساءل: لقد وُعدنا بالنصر، فلم حلَّت بنا الهزيمة؟ فأجابهم المولىٰ الكريم:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

أنْ يتجه الكيان إلىٰ معصية الرسول ﷺ فهذا إيذان بسلسلة من الهزائم والانتكاسات:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ٢٠٤٩ - فروقات.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:١٦٥].

قال الزجاج: (أيْ أصابكم بمعصيتكم النبي ﷺ، وما مِن قوم أطاعوا نبيهم في حربهم إلا نُصِرُوا، لأنهم إذا أطاعوا فهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون)[١].

وتأمل هذا التوضيح الرباني:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾ [آل عمران:١٥٥].

قال البغوي: (أيْ بشؤم ذنوبهم، قال بعضهم: بتركهم المركز)[٢]. ويقتضي قوله هنا أنها ليست مخالفة خاصة، بل هي مخالفة متعلقة بالجماعة المؤمنة في غزوة أحد.

ألا ترىٰ أنَّ العالم الإسلامي الذي وهبه الله أكثر خيرات الأرض وكنوزها بات يئن من ضعفه وتسلط الأعداء عليه وتنافسهم علىٰ موارده.. حين هجر كتاب الله وثنىٰ عطفه عن اتباع محمد!

- **ومن أسباب الضعف والتردي الانهزام النفسي أمام الكفر وطرائقه وجنوده وحضارته ومناهجه**، حتىٰ ولو كان في حال الهزيمة الميدانية وظهور راية المشركين واستعلاء المنافقين، فإنَّ قلب المؤمن لا ينهزم ولو انهزمت آلته وعتاده:

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

قال السعدي: (ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوىٰ، فإنَّ الحزن في القلوب والوهن علىٰ

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٨٨.
(٢) معالم التنزيل ١/ ٤٣٦.

الأبدان زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجِّعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا علىٰ قتال عدوكم، وذكر تعالىٰ أنه لا ينبغي ولا يليق بهِم الوهن والحزن وهُم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالمؤمن المبتغي ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي له ذلك)[1].

ثم ضرب الله مثلًا أولئك الأبطال والشجعان الذي آمنوا بالله تعالىٰ واتبعوا الأنبياء عليهم السلام، وجعلهم قدوة لأبطال الأمة المسلمة وشجعانها:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

فما جبنوا عن الجهاد بما نالهم من ألم الجراح وقتل الأصحاب.

وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم وما ذلوا.

ولكنهم صبروا علىٰ أمر ربهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم[2].

- **ومن عوامل ضعف الأمة فساد النخبة من أهل العلم وأولي الأمر**، فإنَّ فسادهم يصدع بناء الأمة صدعًا عظيمًا، ويجعلها عرضة للمخاطر في أمنها ودينها وأخلاقها:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩].

قال البيضاوي: (حسدًا بينهم وطلبًا للرئاسة، لا لشبهة وخفاء في الأمر)[3]. ومن فسادهم ما وصفهم الله تعالىٰ به من نبذ الكتاب والإعراض عن تحكيمه واتباعه وجعله غرضًا لأهواء الناس:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٤٥.

(٢) انظر: معالم التنزيل ١/ ٤٣٠.

(٣) أنوار التنزيل ٢/ ١٠.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران:١٨٧].

قال ابن عاشور: (والاشتراء هنا مجازٌ في المبادلة والثمن القليل، وهو ما يأخذونه من الرشىٰ والجوائز من أهل الأهواء والظلم من الرؤساء والعامة علىٰ تأييد المظالم والمفاسد بالتأويلات الباطلة)[1]. فهل أحد يجهل ماذا يعني انتشار الرشىٰ والجوائز في مجتمع ما؟!

ومن فسادهم اتباع المتشابه من الآيات ابتغاء الفتنة والتأويل:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران:٧].

ومن فسادهم خيانة الأمة بأخذ الغلول، لذلك نفىٰ الله وقوعها من الأنبياء:

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٦١].

وهو تحذير لورثة الأنبياء وقادة الناس من الخيانة والمالية.

- **ومن عوامل الضعف في سورة آل عمران التعلق بالدنيا والركون إليها وكراهية الموت والغفلة عن اليوم الآخر.**

وهو ما ينشأ أصلًا عن اختلال التصور تجاهها أو غلبة الشهوات علىٰ المعاني الإيمانية في النفوس، لذلك جاء الترغيب فيما أعده الله في الآخرة لعباده المؤمنين تعقيبًا علىٰ إخباره حب الناس للدنيا:

---

(١) التحرير والتنوير ٤/ ١٩٢.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٤-١٥].

وتعقيبًا علىٰ الانهزام في أحد؛ أباحت آل عمران سرًّا مكنونًا في النفوس، محذرة من أثره، وهو مرض حب الدنيا:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ [آل عمران:١٥٢].

أي صرفكم عن النصر، قال القرطبي: (بعد أنْ استوليتم عليهم ردكم عنهم بالانهزام)[١].

ولتصحيح مفهوم الحياة والفوز فيها قال تعالىٰ:

﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾[آل عمران:١٨٥].

فالحياة وفق التصور القرآني لا تنتهي بالموت، بل تمتد إلىٰ الآخرة، وإنما الموت هو لحظة الانقطاع عن العمل والبدء بالحساب والجزاء، ولكن الإنسان قد يغتر بزخرف الدنيا، فتلهيه عن الحياة الحقيقية، لذلك ينخر الفساد فيه، وفي أمته في آن واحد. قال الطبري: (وما لذات الدنيا وشهواتها، وما فيها من زينتها وزخارفها، إلا متعة يمتعكموها الغرور والخداع المضمحل، الذي لا حقيقة له

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٥٣.

عند الامتحان، ولا صحة له عند الاختبار، فأنتم تلتذون بما متعكم الغرور من دنياكم، ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب والمكاره، يقول تعالىٰ ذكره: لا تركنوا إلىٰ الدنيا فتسكنوا إليها، فإنما أنتم منها في غرور تمتعون، ثم أنتم عنها بعد قليل راحلون)[1].

إنَّ الأمة التي تجعل غاية طموحها متاع الدنيا ورفاهية الإنسان ستضطر إلىٰ تعاطي المحرمات والممنوعات، ستغير وجهتها وتحرف إبرة بوصلتها، ستأخذها الدنيا بعيدًا عن مرضاة الله تعالىٰ وحقوقه التي أوجبها عليها، لأنَّ غاية الطموح الواجب هي تحقيق العبودية لله تعالىٰ.

- **ومن تلك العوامل الغفلة عن كيد الأعداء والجهل بمكرهم وأساليب عدائهم، ناهيك بتجاهله أو التغافل عنه، لذا جاء التنبيه الرباني:**

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٦٩-٧٣].

قال الطبري: (والإضلال في هذا الموضع: الإهلاك)[2]. وقال الحسن وقتادة والسدي: (تواطأ اثنا عشر حبرًا من يهود خيبر وقرىٰ عربية، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد ﷺ أول النهار، باللسان دون الاعتقاد، ثم اكفروا آخر النهار، وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمدًا ﷺ ليس هو بذاك

(١) جامع البيان ٦/ ٢٨٨.

(٢) جامع البيان ٥/ ٤٨٩.

المنعوت، وظهر لنا كذبه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم، واتهموه، وقالوا إنهم أهل كتاب وهم أعلم به منا، فيرجعون عن دينهم)[1].

وهذه خطة قديمة حديثة، أعني الإيمان وجه النهار والكفر آخره، وفيها استمالة لقلوب المؤمنين، وابتلاع لعقولهم، حتىٰ إذا ما استحكموا القرب والمحبة انقلبوا عليهم بصنوف من الشُّبَه والانحرافات، أو مالوا عليهم بأدواتهم الاستعمارية، التي بها يُحكمون السيطرة علىٰ الأمة المسلمة.

- **ومن أخطر تلك العوامل: موالاة الكافرين والاستعانة بهم والوثوق برأيهم ومشورتهم.**

وقد صرحت سورة آل عمران بخطر ذلك وحذرت منه أشد التحذير:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ [آل عمران:١١٨-١٢٠].

ومن دونكم بمعنىٰ من غير المؤمنين، لأن غير المؤمنين دون.

قال ابن عباس: (كان رجال من المؤمنين يواصلون رجالًا من اليهود؛ للجوار والحلف الذي كان بينهم في الجاهلية، فنزلت الآية في ذلك). وقال أيضًا ابن عباس وقتادة والربيع والسدي: (نزلت في المنافقين؛ نهىٰ الله المؤمنين عنهم). قال ابن

(١) معالم التنزيل ١/ ٣٦٨.

عطية: (ويدخل في هذه الآية استكتابُ أهل الذمة، وتصريفهم في البيع والشراء، والاستنامة إليهم، وروي أنَّ أبا موسىٰ الأشعري استكتب ذميًّا فكتب إليه عمر يعنفه، وتلا عليه هذه الآية، وقيل لعمر: إنَّ ههُنا رجلًا من نصارىٰ الحيرة؛ لا أحد أكتبَ منه ولا أخط بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: إذًا أَتخذُ بطانةً من دون المؤمنين)[1].

قال القرطبي: (يعني لا يتركون الجهد في فسادكم، يعني أنهم وإنْ لم يقاتلوكم في الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد في المكر والخديعة)[2].

وأهل العلم -كما ترىٰ- يحذرون من توظيف اليهود والنصارىٰ في مناصب الأمة المسلمة، وأنه من أشد الخطر عليهم؛ استهداء بهذه الآية، إذ كيف يستأمن الذئب علىٰ الغنم؟ وكيف يستأمن العدو؟

وإذا طالعت الكتاب المترجم بعنوان: «حكاية عار -قصة نهب المصريين» لكاتبه البرلماني ورجل الأعمال الاسكتلندي «جون سيمور كي» المتوفىٰ عام ١٩٠٩م والذي تحدث فيه عن ما آل إليه الاقتصاد المصري من الانهيار، والذي انتهىٰ به الحال إلىٰ الاحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢م.. إذا طالعته فسترىٰ كيف يستطيع العدو احتلال دولة حين يوظِّف بعض خبرائه في مناصب الدولة المهمة.

ولذلك فإنَّ طاعتهم لا تجوز، وهي سبب في خسارة الأمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٩-١٥٠].

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٧٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١١٥.

قال السعدي: (وهذا نهي من الله للمؤمنين أنْ يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إنْ أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر)[1].

يا أمة محمد! لا تطيعوا الكافرين. وإنْ لبسوا ثياب الناصحين. وإنْ نثروا على فقرائنا الدراهم والدنانير. وإنْ قدموا لنا أحسن المخترعات وأفضل الخدمات. لا تطيعوا الكافرين.

وبينت السورة العلة التي يتعللون بها:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥].

قال الكلبي: (قالت اليهود إنَّ الأموال كلها كانت لنا، فما في يد العرب منها فهو لنا، وإنما ظلمونا وغصبونا فلا سبيل علينا في أخذنا إياه منهم)[2].

ذات التعليل الذي يعللونه اليوم.

- **ومن تلك العوامل تفرق الأمة وعدم اجتماعها على الحق، قال تعالى:**

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣].

- **ومن تلك العوامل أكل الربا**، لذلك جاءت آية الربا في سياق الحديث عن غزوة أحد كما سبقت الإشارة إليه.

سورة آل عمران تربي الصحابة -والمؤمنين من بعدهم- على حراسة ثغور الأمة من كل ما يصدع بنيانها ويخترق حصونها، لتبقى الأمة المسلمة أمة قوية منيعة.

فاللهم ادفع عن أمة الإسلام الآفات والأمراض التي تهدم حصونها.

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٥٠.
(٢) معالم التنزيل ١/ ٣٧١.

قائمة المراجع

١. الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، الطبعة الأولىٰ ١٤٢١هـ.

٢. الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ.

٣. ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ت: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، الطبعة الأولىٰ ١٩٩٢م.

٤. أحمد بن حنبل، المسند، ت: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة.

٥. أحمد عطية الله، القاموس السياسي، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة.

٦. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولىٰ ١٤١٦هـ.

٧. البخاري، الجامع المسند الصحيح، دار التأصيل، الطبعة الثالثة ١٤٣٨هـ.

٨. البزار، مسند البزار (البحر الزخار)، ت: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولىٰ.

٩. البغوي، شرح السنة، ت: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٣ه.

١٠. البغوي، معالم التنزيل، ت: د. محمد النمر وآخرون، دار طيبة، الطبعة الثالثة ١٤٣١هـ.

١١. البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥هـ.

١٢. البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولىٰ ١٤١٨هـ.

١٣. الترمذي، الجامع الصحيح، ت: أحمد محمد شاكر، وآخرون، مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي، ١٣٩٥هـ.

١٤. ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ت: د. سفر الحوالي، مركز البيان للبحوث والدراسات، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـ.

١٥. ابن تيمية، الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول، ت: محمد بن عبد الله الحلواني ومحمد كبير شودري، رمادي للنشر، الطبعة الأولىٰ ١٤١٧هـ.

١٦. ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، جمع عبد الرحمن ابن قاسم.

١٧. ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ت: محب الدين الخطيب، دار المعرفة.

١٨. ابن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، ت: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة النشر.

١٩. ابن خلدون، المقدمة، ت: عبد السلام الشدادي، بيت الفنون والعلوم والآداب.

٢٠. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ت: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٢١. الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية ٢٠١١م.

٢٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة ١٤٠٩هـ.

٢٣. الرازي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، دار الفكر، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٥هـ.

٢٤. الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ت: عبد الجليل عبد شلبي، عالم الكتب، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ.

٢٥. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث.

٢٦. ابن إسحاق، السير والمغازي، ت: سهيل زكار، دار الفكر، الطبعة الأولىٰ ١٣٩٨هـ.

٢٧. ابن سعد، الطبقات الكبرىٰ، ت: الدكتور علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ.

٢٨. السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ت: سعد الصميل، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة ١٤٣٥هـ.

٢٩. ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار القلم، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤هـ.

٣٠. الشاطبي، الموافقات، ت: مشهور آل سليمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولىٰ ١٤١٧هـ.

٣١. الشافعي، الرسالة، ت: أحمد محمد شاكر، دار الفكر.

٣٢. الشوكاني، فتح القدير، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥هـ.

٣٣. ابن أبي شيبة، المصنف، ت: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٩هـ.

٣٤. الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ.

٣٥. الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: د. عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ.

٣٦. عابد السفياني، المحكمات في الشريعة الإسلامية، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠هـ.

٣٧. ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٣٨. عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٣٩. عبد المعطي الشعراوي، أساطير إغريقية، مكتبة الإنجلو المصرية، ٢٠٠٥م.

٤٠. ابن العربي المالكي، أحكام القرآن، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ.

٤١. ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: مجموعة من الباحثين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٦هـ.

٤٢. علي الملا القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ.

٤٣. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة عشر.

٤٤. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية.

٤٥. ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ت: زاهر بن سالم بلفقيه، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ ١٤٤٠هـ.

٤٦. ابن القيم، الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة، ت: د.علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

٤٧. ابن القيم، هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ، ت: عثمان جمعة ضميرية، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٩هـ.

٤٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ت: د. محيي الدين ديب مستو ود. علي أبو زيد، دار ابن كثير، الطبعة الخامسة ١٤٣٩هـ.

٤٩. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ت: أبو إسحاق الحويني، سعد الصميل، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية ١٤٤٠هـ.

٥٠. مالك بن أنس، الموطأ، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية (البابي الحلبي).

٥١. الماوردي، النكت والعيون، دار الكتب العلمية.

٥٢. محمد رشيد رضا، المنار (تفسير القرآن الحكيم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٥٣. محمد بن عبد الوهاب، كشف الشبهات، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولىٰ ١٤١٨هـ.

٥٤. مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، موسوعة التفسير بالمأثور، دار ابن حزم، الطبعة الثانية١٤٤٠هـ.

٥٥. مسلم، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

٥٦. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دار القلم، الطبعة الأولىٰ ١٤١٢هـ.

٥٧. النووي، المجموع شرح المهذب، ت: محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد.

٥٨. ول ديورانت، قصة الحضارة، دار الجيل، ٢٠١٠م.

٥٩. وهبة الزحيلي، العالم الإسلامي في مواجهة التحديات الغربية، دار الفكر، ٢٠١٣م.